كلمة العدد

— ١ —

« من أجل ثقافة عربية وطنية تقدمية ومناضلة »

تحت هذا الشعار العريض انعقد في عدن / صنعاء المؤتمر الثالث عشر للادباء والكتاب العرب ، في الفترة بين ٢٦ تشرين الثاني و ٣ كانون الاول ١٩٨١ ، على هامش المؤتمر اقيم مهرجان الشعر الخامس عشر . ندع الآن ، الحديث في مهرجان الشعر ، فالحديث في مهرجانات الشعر العربي ، كما يبدو ، أمر غير ذي جدوى .

إذن ، تتحدث في المؤتمر !

إذن ، تتحدث فيما يعنينا ، هنا ، من المؤتمر !

ما يعنينا هو المادة ، لا الهيكل التنظيمي . ونعني بالمادة القاعدة الفكرية التي عليها اثبتت بحوث المؤتمر .. نعني الجوهر والافق معا ، الاسس والرؤى .

من الاسس نبدأ : على ثلاثة أسس ارتكزت بحوث المؤتمر : علاقة المثقف العربي بالسلطة . الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطورها في مواجهة الغزو الثقافي . ثم آفاق التجديد في عملية الابداع الادبي ، أساسا فكريان ،

وآخر فني . ثلاث لجان ، اذن ، لثلاث فروع ، كان ينبغي أن تصب كلها في الشعار الاكبر للمؤتمر : « من أجل ثقافة عربية وطنية تقدمية ومناضلة . » .

— ٢ —

ندع ، أيضا ، الحديث في قضايا الابداع .

لدينا ، اذن ، قضيتان كبريان كلتاهما تطرح نفسها ، بعنف ، على ساحة الثقافة العربية الراهنة . واذا كانت مسألة البحث في « علاقة المثقف العربي بالسلطة » وفي الازمة الناتجة عن هذه العلاقة المركبة والغامضة .. اذا كانت هذه المسألة شديدة التعقيد وخاضعة لاكثر من معيار، وبالتالي مثار حوار وجدل طويلين حول مفهوم الثقافة بذاتها ، ومفهوم الديمقراطية .. أقول : اذا اختلف المثقفون العرب حول هذه القضية ، فان ذلك جد طبيعي ، لكل شرفته التي منها يرى . قد تعلو الشرفة عن الاخرى ، أو تهبط ، وقد يحدث ، نتيجة ، ان تتسع الرؤية أو تضيق . بين الاتساع والضيق تهتز الصورة ، ويتأرجح وجه الواقع على المرآة .

المرآة والصورة ، الحلم والواقع ، .. لابد من تعارض ان السياسي يتعامل مع الواقع بلغة السياسة . أما المثقف فيتعامل بلغة الثقافة . وهما لغتان قليلا ما تلتقيان . غير أن جوهر المسألة ليس في هذا التعارض . يكمن جوهر المسألة في أزمة الثقة بين اللغتين ، وهي أزمة تاريخية يبدو

أن حلها مستحيل ٠ حول هذه الازمة ، بالذات ، تتمحور بحوث المثقفين العرب الذين تناولوا موضوع « المثقف العربي والسلطة » ٠ ثم يتفرعون ، فلا يلتقون ، بعض ، في المثال ينأى ٠ بعض ، يدنو من الواقع ٠ الهدف واحد، ولكن ، ما الطريق الى الهدف ؟!

ـ ٣ ـ

تقول السياسة ، في كل مكان : ان غايتها هي تكوين الانسان الحر ٠

وفي كل مكان تقول الثقافة : ان غايتها هي تكوين مثل هذا الانسان ٠

وهذا الانسان ، منذ الازل ، لم يتكون ٠ في الماضي ، كما في الحاضر ٠ في العالم المتحضر ، كما في العالم المتخلف ٠ الحرية هي قضية الانسان على الارض ٠ وهي قضية يبدو أنها ستظل مؤجلة ٠ يبدو ، بالتالي ، أنها ستظل المطلب الذي لن يتحقق ٠

ولكن ، ما الحرية في حد ذاتها ؟

والمثقف ، كيف يفهم الحرية ؟ وكيف يفهمها السياسي ؟!

والحكمة ، كيف تتنفس على الورق ، اذا كانت في حاضنة الخوف تولد ؟!

ولماذا خوف الكلمة ؟ ولماذا الخوف من الكلمة ؟! الاسئلة كثيرة ، ولا أجوبة ٠

أكرر : ان القضية ليست في بساطة تناول ثمرة عن غصن يتدلى .

— ٤ —

ندع ، أيضا ، الحديث في قضية الديمقراطية .

تتحدث في الغزو الثقافي .

وهنا نقع في اختلاط المواقف ، واختلاط الرؤى .

ثمة غزو واحد يقع على العرب ، الان : هو الغزو الامبريالي — الصهيوني . وبمقدار ما هو غزو سياسي ، هو ، أيضا ، غزو ثقافي . وجهان لعملة واحدة ، هما ، كلاهما يستهدف اقتلاع العربي من ذاته . واحد يستهدف اقتلاعه من المكان ، والاخر من الزمان ، من الارض ، ومن التاريخ . الواحد منهما يعجز عن الفعل دون الاخر . هكذا يأتي الغزو السياسي المسلح مصحوبا بغزو ثقافي أكثر عنفا . وينضرب الحصارعلى العربي : حصار من الداخل والخارج، في آن . حصاره هو ، داخل ثقافته التي تتفتت الى ثقافات تطفو على التيارات الانعزالية والاقليمية والمذهبية ،وحصار الارض التي تنسحب من تحت قدميه شبرا بعد شبر .

على أية أرض يقف العربي اليوم ؟

وعلى أية ثقافة يرتكز ؟

للغزو ايديولوجية متكاملة ، لها ، بالتالي ، استراتيجية متكاملة هي الاخرى . « انها نظام متكامل » على حد تعبير

سمير سعيد • وهو نظام رأسه في البيت الابيض ، أما أطرافه فتتحرك ، متسللة ، داخل المكان العربي ذاته •• هكذا يتم اختراق الثقافة العربية • وهكذا تحدث التعددية التي تجعل من الثقافة العربية ، التي ينبغي أن تكون واحدة، ثقافات متناقضة ، متعادية ، بل ، ومتصارعة على الساحة الواحدة •

اذن ، على أية ثقافة يرتكز العربي اليوم ؟!

في البحوث التي اخترناها لهذا العدد من « المعرفة » نقع على نموذج هذه التناقضات العجيبة • ثمة ، كما يبدو ، لونان للفكر العربي : الابيض والاسود • ولا تدرج بين هذين اللونين • ولا وقوف الا على الطرف الاقصى من اللون الواحد • ثمة ، لنقل ، ثبوتيات فكرية • مثلا : الثقافة الغربية ، جملة وتفصيلا ، ثقافة غازية • مثلا ، كل الافكار التي تنبع من الموروث العربي هي أفكار مستوردة ••الى آخر هذه الاطلاقات التي تناقض روح البحث العلمي الموضوعي •

هذا تأكيد اخر على أن ثقافتنا القومية العربية مغزوة من الداخل والخارج ، في آن •

— ٥ —

نوضح ختاما ، عدة حقائق :

الأولى : هذا العدد الخاص من « المعرفة » لا يتضمن بحوث المؤتمر جميعا ، على الرغم من أنها كلها بين أيدينا •

لقد حدث انتقاء • وهذا الانتقاء خضع لشرطين : ما يتعلق بالجانب الفكري من جهة ، ثم المستوى الفكري والفني من جهة اخرى • اغفالنا لبعض البحوث الهامة لايعنيّ عدم توفر الشرطين فيها ، بمقدار ما يعني وجهة نظر من الجهة ذاتها •

الثانية : ليس من الضروري أن يتفق بعض مـا في هـذه الدراسات مع رأ يالمجلة • بل لعل ثمة عددا من الآراء ، في هذه البحوث ، تناقض نظرتنـا الـى مسألة الثقافة القومية ، والـى مفهـوم الموروث العربي ، ومفهوم استيراد الافكار ، و ••• علـى أن اختلاف الرأي لا يمنع من نشر مثل هذهالاراء• نحن ، اذن ، نطرحها لانها ، أولا ، مثار حوار ، ولانها ، ثانيا ، جادة وتنطلق من موقع الحرص على الثقافة القومية العربية ، لا من موقع العـداء أو التخريب •

الثالثة : نحن نقدم وثائق لمؤتمر أدبي ، على مستوى الفكر العربي كله • والقيمة الاساسية لهذه البحوث ، معا ، هي في أنها وثائق حية لهذا الفكر ، بتناقضاته واندفاعاته ، وعقلنته ، وتشتته ،بعاطفيته وعلميته في آن •

الرابعة : يبدو أن الطريق مازالت طويلة لان يكون ثمـة فكر عربي واحد ، لا أفكار عربية •

□ رئيس التحرير

المؤتمر العام الثالث عشر
للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
عدن - صنعاء
نوفمبر ١٩٨١

المثقف العربي والديمقراطية

انطون مقدسي
(سورية)

أزمة ديمقراطية ام ازمة مجتمع ؟

ان اول جواب يتبادر للذهن عند السؤال عن دور المثقف في انشاء نظام ديمقراطي عربي ، وموقعه منه ، هو ان هذا الدور يقوم على توعية الجماهير الى حقوقها وواجباتها ، على اذكاء روح الصراع الكائنة فيها ضد الاستعمار والرجعية ، ضد المحتكر المستغل ، على نشر الافكار التقدمية والاشتراكية او على وضع خطة عمل منهجي لانقلاب جماعي أو لثورة اجتماعية تعطي السلطة لصاحبها الحقيقي الذي هو الشعب ؛ وان موقع المثقف هو في قلب الجماهير حيث يستطيع ان يتعرف الى مشكلاتها فيعيشها ، يتقمصها ومن ثم يحللها ليجد الطريق الى حلها بتعبئة هذه الجماهير وزجها في معركة الاستقلال والتحرر ؟ وذلك بتوزيع المناشير والكتابة في الصحف ، ومن ثم التظاهر فالاعتصام فالاضراب فحمل السلاح والثورة .

هذا الجواب يلخص المهام الرئيسية التي يجب على المثقف ان ينهض بها في بلد متخلف مستعمر تحكمه طبقاته الاقطاعية الرجعية وتشمل ضمنا جوهر الديمقراطية الذي هو الشعب معبرا عن ارادته . ولقد نهض بهـا المثقفون العرب فعلا ــ واحيانا على خير وجه ــ في كل قطر عندما خاض معركة التحرر والاستقلال ، لا بل منذ بداية النهضـة (اواسط القرن التاسع عشر) بمعنى ما . ومايزالون ينهضون بها حيث ماتزال انظمـة الحكم مناهضة لقضايا الشعب ومتواطئة مع الاجنبي .

الا ان هذا الجواب لم يعد كافيا في مرحلة مابعد فك الاستعمار التي هي مرحلة انجاز الاستقلال والتحرر والشروع في بناء الوحدة القومية على اسس شعبية اشتراكية . لا بل يبدو لي انه صار يشير الى اهداف هي في الواقع اسئلة اكثر مما هي اجوبة ، واشكالات اكثر مما هي حلول ؛ او هو يضم ، اذا شئت ، مجموعة اهداف عامة ، مجردة ، غائمة حتى لاكاد اقول انها غيبية ، تطرح الاسئلة التي يطرحها كـل مفهوم منهـا مثلا : ماالسبيل الى تحقيق هذا المفهوم او ذاك ؟ وما الذي حققه المثقفون من هذه المفاهيم وقد تحررت واستقلت اغلب الاقطار العربية ، وعدد كبير منها على رأسه حكومات اخذت بكل هذه الاهداف وتزعم انها في طريقهـا الى تحقيقها او انها حققت العدد الاكبر منها ؟ اولا يختلف دور المثقف الذي هو مواطن في قطر حكومته تقدمية عن زميله المواطن في قطر حكومته رجعية ؟ . . .

ان تساؤل مؤتمر يمثل اتحادا يضم الاكثرية الساحقة مـن الكتاب العرب ، وفيهم الشاعر والروائي ، المفكر والفنان ، الخ .. عن « ازمـة الديمقراطية » ليدل على انهم يشعرون ــ جلهم ان لم يكن كلهم ــ ان انظمة حكوماتهم غير ديمقراطية او ليستديمقراطية بما فيه الكفاية ؛ وسؤالهم عن موقع المثقف ودوره ليدل على ان الموقع صار اشكاليا والدور غير واضح ، في مرحلة البناء القومي .

الواقع ان الاستقلال نسبي ، اقصد انه يتناسب مع درجة استكمال البناء القومي ، بأبعاده الاجتماعية والثقافية ، الاقتصادية والسياسية وغيرها ، شروط وجوده . وكذلك التحرر . وطالما ان البناء لم يستكمل هذه الشروط فبوسع الاجنبي ان ينفذ الى الدار ويعطل ــ او على الاقل يؤخر ــ حركة نموها . وكلنا يعرف ان الوطن العربي مايزال متخلفا في كافة اقطاره ، واننا بحاجة الى جهود اجيال واجيال كي نستعيد الموقع الطليعي الذي كان لاجدادنا بين الامم والشعوب .

هذا من وجه ، ومن وجه آخر فان الذين خاضوا في عهد الاستعمار والحكم الاقطاعي ، معركة الاتصال بالشعب ومعايشته وتحريكه يعرفون بالتجربة الطويلة ان من السهل، اليوم كما بالامس، استثارته بالشعارات الفضفاضة . ولكنها استثارة قصيرة المدى لانها تستند الى الغرائز لا الى العقل الذي يخطط وتعبىء الانفعالات لا الاذرع للبناء. والغرائز كالانفعالات تتوارى بسرعة وقد لاتخلف وراءها سوى خيبة الامل ؛ وعندها يعود الشعب الى صمته الالفي ، صمت ابي الهول فارادته سر مغلق . وهذا ليس بالامر المستغرب . فالشعب العربي تمرس بالتقية قرونا فصارت جزءا لايتجزأ من شخصيته التاريخية، فسرعان ماتنطوي، كل فئة من فئاته ، على ذاتها وتقول غير ما تضمر لتأمن شر كل من تعتقد ان بيده ــ أو قد تكون بيده ــ سلطة ما .

اضف اخيرا ان التاريخ يقلب اليوم صفحاته بسرعة متزايدة الى حد الافراط والارهاق . فاجيال الغد التي تشكل امة المستقبل تختلف كليا عن الاجيال التي تحتل اليوم الساح، وهذه عن اجيال الامس القريب . اما اجيال الامس البعيد ــ اقصد الخمسينات ــ فتبدو احيانا وكأنها من القرون الغابرة . فالذي يعمل في حقل الانشاء القومي عليه ان يجمع بين خاصتين متعارضتين : الاولى ان يخطط للمستقبل اذ ان الحاضر مصير لتوه ماضيا ؛ الثانية ان يكون على درجة من المرونة والجاهزية للانفتاح بحيث يتمثل بسرعة المستجد بجدة حقيقية ويدخله في خططه .

اقول ملخصا : ان المشكلة المطروحة على العرب، مثقفين واميين، حكاما ومواطنين هي مشكلة اعادة بناء الامة الواحدة والمواطن الحر والمجتمع الاشتراكي ، على اسس تحتفظ للعربي بشخصيته التاريخية وفي الوقت ذاته تضعه على مشارف القرن الواحد والعشرين ؛ وان الديمقراطية الاوجه من اوجه هذه المسألة الكلية ، في اطارها يجب ان توضع وعلى ضوئها تفهم .

فمن السهل تحديد الاهداف العريضة الاجمالية . ولقد حددت فعلا في كلياتها المجردة ورددت بكافة الانغام بحيث حفظها الشعب عن ظهر قلب وملها فسقطت في الفراغ . ويبدو لي ان الاجيال الناشئة كثيرا ماتتجاوزها بيسر ثم تتناساها لتنساها لانها لاترى لها اية قيمة اجرائية .

قد يكون من السهل ايضا تحديد مايجب على المثقف ــ وغير المثقف ــ ان يقوم به ليؤدي واجبه . فاحكام القيم تملأ صفحات الكتب والبيانات واعمدة الجرائد .

والصعب هو رسم طريق واضحة المعالم الى الاهداف . الصعب هو ان تحدد لكل فئة من فئات المجتمع موقعها . الصعب هو تحليل الواقع العربي المشبع الى حد التخمة بالتناقضات والفوارق والتفاوتات من كافة الاجناس والانواع : في السكان ، عددهم ، كثافتهم ، اصولهم العرقية والتاريخية ، في الثروات ، مصادرها وسبل توظيفها ؛ ، الايديولوجيات، في المستويات الثقافية وحتى احيانا في العادات والتقاليد ، الخ .. بحيث يحق للمشاهد الخارجي ان يتساءل عن القاسم المشترك بين هؤلاء البشر . ومع ذلك ففي قرارة شخصية كل عربي «شيء» يشده الى العربي الاخر ويجعله يرى فيه قريبا في النسب واخا يفزع له .. وهذا « الشيء » صعب التحديد هو الذي يجب انقاذه قبل فوات الاوان . وقد تكون الديمقراطية هي السبيل الاصح وربما الوحيد الى هذا الهدف العظيم

والاصعب هو ان تعرف بعضا مما يحدث في القطر المجاور لقطرك .

فليس من شأني اذا ، ليس من شأن اي باحث بمفرده الاجابة عــن سؤال هو اسئلة مطروحة ، لا على هذا المؤتمر وحسب ، بل على الامــة العربية . والذي ستمضي سنوات وسنوات قبل ان نصير مؤهلين لطرحها بدقة ومن ثم لمعالجتها فالاجابة عنها . فبحثي سيقتصر على القاء بعض الضوء على بعض المفاهيم الاساسية التي هي ابعاد السؤال : اولا مفهوم الثقافة من حيث ارتباطه الوثيق بمفهوم الديمقراطية ومن ثم سأشدد على بعض التعارضات الصارخة في الوجود العربي على اعتبار انها العوامل غير المباشرة التي جعلت انظمة الحكم في الوطن العربي تراوح بين المركزيــة والسلطة المطلقة .

• واحاول في فقرة ثالثة استجلاء بعض معالم ازمة الديمقراطية في الوطن العربي .

واسائل رابعا واخيرا عن موقع المثقف في هذا الوطن : اين هو ولماذا لا يحتله ؟ وعن دوره : ماهو وعما اذا كان هو المسؤول ام لا عن عدم الاطلاع بـه .

... ام ازمة انسان ؟

الثقافة فسحة وعي كلما اتسعت وتعمقت مكنت صاحبها (المثقف) من اداء ثلاث من وظائفها تجعل منها الاساس الذي يقوم عليه الحكــم الديمقراطي : الاولى تصور وتصوير الجماعة المعينة في واقعها الراهــن والتمييز في القوى التي تتالف منها بين ماهو متحفز للعمل فهو طليعي وبين ما هو منهك استنفد كافة طاقاته فهو على اهبة الزوال ؛ او اذا شئت ايضا تبين امكانات الجماعة المستقبلية وعزلها عما يعيق تفتحها . الوظيفة الثانية ، هي الرؤية الواضحة جهد المستطاع لموقع هذه الجماعة من العالم والدور الذي يمكن ان تلعبه بوصفها قوة من قواه ، هذا اذا عرفت كيف تفيد من طاقاتها . الوظيفة الثالثة ، وهي الحاسمة او الاخطــر شــانا ،

رسم الطريق التي على الجماعة ان تسلكها لتوظف قواها الحية ومخزونها من الطاقات الطبيعية والانسانية بحيث تعطي مردودها في ظرف معين على أكمل وجه ممكن . هذه الوظائف متكاملة لانها اوجه ثلاثة لفعل واحد هو الفعل الذي يتحرر به الانسان ، فردا أو جماعة ، من اصدام ماضيه لينشيء مستقبله او ايضا ليكون ذاته بانسنتها ؛ وهذا التكوين في جوهره مستقبلي[١]. وإن الحرية الا بعد من ابعاد هذا الفعل هي منه في مركز الصـدارة .

فالثقافة هي الطريق الى التحرر .

والانسان الحر وحده يستطيع ان ينهض بعبء الديمقراطية .والتعبير المبين ، أدبا كان ام فكرا ، شعرا ام فلسفة ام فنا ، عملا ام نظرا ، هو قمة الثقافـة .

وبتعبير آخر فان الثقافة هي قدرة الانسان على لم شتات عالمه وتنظيمه على أسس تتوافق مع الظرف الذي تجتازه الجماعة ، فأدائه بكلام فني معقول ، فالسيطرة عليه وتبديله ، اي نقله باستمرار الى وضع احسن مما هو عليـه .

والثقافة كالديمقراطية والحرية والابداع بكافة انواعه ، الثقافة ككل انماط الوجود رفيعة المستوى ليست وضعا يستقر فيه الانسان مـرة ولكل مرة ؛ بل عليه أن يستحقها دائما وابدا . فمتى ضعفت في الانسان القدرة على الابداع ، متى كف عن اغناء ذاته ، متى خارت قواه ــ قل : متى هرم ــ استسلم لعاداته فحولها الى أصنام يعبدها وصار أسيرها . والجماعة التي تراوح مكانها زمنا ، التي تقلد ولا تبدع ، تسقط بسرعة عن المرتبة الثقافية التي بلغتها وتنزلق على منحدر الانحسار ، فتتحول الحريات فيها الى اعراف او شعائر نمطية تقيد سلوك افرادها وفئاتها وتمنعهم من التقدم . فالايديولوجيات الاكثر طليعية وعلمية تفقد تدريجيا الكثير من قيمتها وتتحول الى كليشيهات وشعارات عندما لا تطور ذاتها مع

تطور الواقع أو بالاحرى عندما تعجز عن تبديل الواقع والتطور معه . وقد تخنق عند العباقرة الملتزمين بها مواهبهم الخلاقة . والمدرسة التي يتحول التدريس فيها الى تلقين معلومات يحفظها الطلاب غيبا ليكرروها — ببغائيا — في الامتحان وبعده ينسونها هي الد اعداء الثقافة . وقد تقوض في المجتمع الذي يأخذ بها اسسه الارسخ جذورا .

وتطرح علينا الثقافة ، اذا فهمناها على هذه الشكل ، ثلاثة اسئلة اساسية : ماهي وسائلها ؟ ما المعيار الذي نعتمده لنعرف ما اذا كانت الوسائل التي نستخدمها . . . ناجعة ام لا ، وما اذا كانت ثقافتنا صحيحة ام فاسدة ؟ وبالنتيجة من هو الانسان المثقف ؟

ليس معيار الثقافة كم المعلومات وان كان حد ادنى منها ضروريا ؛ وليس ايضا الشهادة الجامعية وحدها وان كانت هذه من مؤشرات الثقافة الهامة . فالمناضل في الاحزاب ذات البرامج الثورية قد يبلغ وعيه بعد سنوات من التمرس في تعبئة الطبقات الشعبية وتوجيهها ، درجة من الارهاق والاحاطة ودقة المحاكمة تضعه ، اقله في المجال السياسي ، في مستوى المثقف الجامعي من الدرجة الجيدة . وفي راي علماء النفس والاجتماع ان العامل المتخصص باختصاص تقني دقيق يحتاج الى ثقافة علمية نظرية فوق المتوسط قد تبلغ محاكمته مستوى حامل شهادة من شهادات الدراسات العليا الجامعية . وهو يمنح في بعض البلدان المتقدمة أجرا يضاهي مرتب حامل هذه الشهادة وقد يفيض عنه .

اذ ان الثقافة احاطة ونفاذ ، اقصد التمييز في مجمل وضع معين او في موضوع نظري بين ابعاده الاساسيةوالثانوية ، بين معقوله ولا معقوله ؛ ومن ثم الكشف عن الاسس التي يقوم عليها فالحكم على قيمته ؛ وفي مرحلة اخيرة وضع نموذج اجرائي ، يمكننا من تقويمه او تبديله . وهذا ماكان يسميه افلاطون الكشف في الشيء عن مفاصله الطبيعية ، او رؤيته من حيث هو كما تقول الفلسفة الاغريقية) وذلك بقصد الحكم على درجة تحقيقه — أو لا تحقيقه — لنموذجه أو درجة قربه منه .

الثقافة باختصار هي اغناء العقل انماؤه بحيث يمكن المرء من الحكم بالسرعة اللازمة على قيمة وضع أو موضوع أو في الحد الادنى ابداء الرأي بشأنه .

ومن المؤسف انها ارتدت ــ وترتد أكثر فاكثر ــ في البلدان المتخلفة (ومنها الوطن العربي) الى الشهادة كلما علت درجتها كانت ثقافة حاملها ارفع . وصارت الشهادة اداة ترقية اجتماعية يهجر من اجلها الشباب الريفيون حقولهم لاعتقادهم انها ترقي بهم الى المستوى المدني . وكذلك ابناء الطبقات الشعبية في المدينة فهم يفضلون الشهادة الجامعية على المهن اليدوية لانها تضعهم في مصاف البورجوازيين أو تقربهم منهم . وينتسبون في اغلبيتهم الساحقة للكليات المدعوة خطا نظرية (الاداب ، الحقوق ، الخ) لاعتقادهم انها اقرب منالا . وقد صارت حقا كذلك ، لا بل تدنت في بعض الجامعات العربية الى حد التفاهة . وعندما ينالون الشهادة يتسكعون على أبواب الدوائر الحكومية طلبا للوظيفة . ويشكلون جيشا من العاطلين عن العمل او من الموظفين الذين لا تدري ما العمل الذي يقومون به . ثم يقضي احدهم حياته يتذمر من سوء الحال أو يسلك الطرق الملتوية ليعيش هو وأسرته بشكل لائق .

وهذا خطأ فاحش في التقدير اذا قسنا الثقافة بمقياسها الحقيقي الذي هو مستوى معين من المحاكمة . وقد يكون ابن الشعب الذي تمرس بالكفاح من اجل رزقه وخبر الناس في ساح العمل فعرف « الحياة » على حقيقتها ، قد يكون ــ وهو كذلك في أغلب الحالات ــ أقوى حدسا وأسرع استجابة واسلم محاكمة من حامل الشهادة الجامعية الذي اقتصر طوال سنوات على حفظ الكتب المقررة عن ظهر قلب .

وبالمقابل فان الفلاح العربي وابن الشعب وابن البادية على درجة من الوعي والحذر تكاد تفقدهم كل عفوية ، فسذاجتهم مفتعلة ، وقد يتظاهر أحدهم بالجهل والغباء « مدراة لزمانه » كما يقولون . وبالفعل فان كلا

منهم يعرف بسرعة مخاطبه ويرتب له بالسرعة اللازمة الجواب الذي يعتقد انه يتوقعه منه على الخصوص اذا لاحظ انه ذو سلطة او قد يكون يوما ماذا سلطة . اذ انه منكفيء على مصلحته الذاتية لايتعداها ، وهو نافذ البصيرة ضمن حدودها ، سريع الادراك . على العكس من الجامعي الذي تحجب عنه الكتب حقيقة الواقع فيقنع بالاحكام العامة القائمة أو بالشعارات اذا كان حزبيا .

والواقع أن العربي ، حاكما كان أم مواطنا ، مثقفا أم جاهلا ، ابن تاريخ طويل ، قرونه الاخيرة على الخصوص عصور غزوات وفتوحات وخصومات داخلية دامية مزقت الوطن العربي وخلفته لنا أشلاء ، كما أن العربي عانى خلالها كافة انواع الامتهان من احكام جزافية وبطش وتهجير وتشريد ، الخ ... بحيث صار الكبت فيه طبيعة ثانية . فهو مزدوج الشخصية ، من جهة ينفتح للآخر ، يبادره بالمودة ، يضحي في سبيله ــ وتلك طبيعته الاصيلة ــ ولكنه يسيء الظن به عند أول بادرة لا تعجبه فيلجأ الى الحيلة وكأن الآخر خصمه حتى يثبت العكس . والعربي اجمالا ــ وباستثناء قلة قليلة من النخبة رفيعة الاخلاق ــ لايفهم العلائق الاجتماعية ــ السياسية الا على انها علائق حاكم بمحكوم سمتها الاساسية الذاتية (شخصية كل من الطرفين) لا علائق مواطنة ناظمها التشريع فهي موضوعية . فلا وجود عنده للمصلحة العامة والمؤسسة عنده مرتبطة بشخص مديرها فبوسعه العبث بها دون اي وازع اخلاقي أو وطني اذا كان بمنأى عن عين الرقيب أو اذا ضمن اذاه بأية وسيلة مشروعة كانت أم غير مشروعة .

انه بحاجة الى مناخ عام اجتماعي ــ سياسي من الطمأنينة والامان المستمرين يعيداليه أولاثقته بالحاكم ومن ثم بذاته وبالجماعة، ومن جهة اخرى الى تربية طويلة ممتدة على اجيال تعيد تكوينه فتعيده الى طبيعته الانسانية الاصيلة وفي الوقت ذاته تضعه بمستوى القرن الواحد والعشرين الذي بدأنا نلجه .

وإن الديمقراطية الا حصيلة هذين العاملين : الثقة بالحاكم والتربية العقلانية السليمة .

وكذلك بالمناسبة التحرر من الاستعمار بكافة الوانه وتحرير الارض التي أصبحت أرضين .

والتربية عمل ثقافي ومن شان المثقف .

وانا اعني الثقافة العامة ، كما قاربتها بسرعة ، وافهم بكلمة « مثقف» في هذا البحث السريع كل من يسهم بشكل أو بآخر في فعل تكوين الانسان، اقصد : المعلم والمربي من كافة درجات التعليم ، والشاعر والمفكر ، الكاتب والفنان أيا كان فنه ، وايضا الصحفي والاعلامي بشكل عام . وكذلك البيروقراطي على الخصوص في الاقطار التي اخذت بمبدأ التحويل الاشتراكي وحيث البيروقراطية المتضخمة (الى حد الانتفاخ أحيانا) تمثل وتحدد قطاعا كبيرا جدا من العلائق الاجتماعية وعلى الخصوص العلائق بين الحاكم والمواطن ، اذ معها يتدرب المواطن على التعامل الموضوعي مع الناس ، وهذا واحد من أسس الديمقراطية .

اضف السياسي الذي هو ــ على الخصوص في « البلدان المتاخرة ، حيث ملكة التحليل ضعيفة ــ المربي الاول بسلوكه وكلامه وتوجيهاته ، فكل بادرة تصدر عنه تعادل بمفعولها ، المباشر على الاقل ، عمل عشرات المثقفين . ووحده يستطيع أن يعيد الثقة للمواطن بوطنه اذا كان صريحا في كلامه ، موضوعيا في احكامه وتقديراته ، نزيها في معاملته للناس . كما يستطيع أن يكون الانسان الديمقراطي اذا كان على صلة حقيقية بالمواطن العادي يصغي الى شكاواه ويجهد كي يستجيب للمشروع منها .

والعمل الاجتماعي ــ السياسي هو ايضا اداة تربية جيدة . فالنقابات والاتحادات ومنظمات الشباب الرياضية والكشفية والنوادي الفنية والثقافية وغيرها من وسائل تنظيم المجتمع الحديث قد يكون لها أحيانا

من المفعول التربوي ما للحزبي وللكاتب وللمفكر . اذ انها هي التي تنقل المواطن تدريجيا من العلائق الشخصية ، قبلية كانت ام طائفية ام اسروية، الى علائق اجتماعية موضوعية تتوافق مع روح حضارة العمل والانتاج .

أما الاختصاص الدقيق فتأثيره التربوي والثقافي غير مباشر . اذ من المعلوم ان المتخصص باختصاص عال كثيرا مايتجنب خوض غمار السياسة اليومية . ولكن دور الهيئات المتخصصة يتزايد مع غزو التكنولوجيا المتزايد لكافة مرافق الحياة ؛ فهذه الهيئات هي التي تخطط المشروعات الكبرى وتضع النماذج الاجرائية لتحقيقها . وهي تؤثر نظام الحكم شديد المركزية على نظام الحكم الديمقراطي لانه يتوافق مع نوع عملها البعيد عن فهم الانسان العادي ، وهي تفرض أحيانا الحكم المركزي لا شعوريا على الحاكم .

ومن المؤسف ان الدوائر العليا المشرفة على السياسة الثقافية في الوطن العربي توجه سياستها اكثر فاكثر نحو اعداد التقنيين المتخصصين ، وان كانت تعجز أحيانا عن ايجاد عمل لهم يمارسون فيه اختصاصهم حقا . وبالمقابل فهي تهمل الثقافة العامة وتستهين بأصحابها ودعاتها. وهذا ايضا خطأ فاحش ، اذ ان المطلوب هو اعادة تكوين الانسان العربي والانسان يتكون وينمو ... ويتقهقر كلا او باغلب ابعادوجوده . فالاختصاص ضعيف الجدوى ، وقد يسيء اذا لم يكن مصحوبا بثقافة عامة تمكن صاحبه من فهمه وممارسته في مكان وزمان محددين ؛ وعلى سبيل المثال فان الحاسبة الالكترونية والطائرة .. واية آلة اخرى تنتجها التكنولوجيا الحديثة تستلزم شعرا وفكرا ، عادات وتقاليد ... موسيقى وفنا ينسجم معها .

ان ذهن العربي على درجة من المرونة والجاهزية ـ اي القدرة على الانفتاح ـ تمكنه من تمثل منجزات الحضارة الحديثة واستخدامها باتقان على الخصوص في مجالات العلم والتقنية حيث برهن في شروط معينة عن قدرته على الابداع . بهذا تتسع فسحة وعيه وتتعمق بسرعة . ولكن ما

ان يمارس فعاليته في ظروف مجتمعه العادية حتى يفرض عليه ذاته من جديد ـ شعوريا ولا شعوريا ـ الموروث برمته كما نقلته اليه قرون الانحسار ، على الخصوص في حساسيته (تجاوبه مع الموجودات) وعقليته أو طرق فهمه للقيم الاخلاقية واستجابته لمعاني الوجود الكبرى . بهذا تعود الى شخصيته « ثقالة » كان يعتقد انه تحرر منها فتضيق مرة اخرى فسحة وعيه وتفقد الكثير من جاهزيتها ؛ وتضعف للسبب ذاته محاكمته أي قدرته على الاحاطة بوضع أجتماعي معين او بموقف من مواقف حياته وتعريته وتقييمه بما له وبما عليه ، وتلك بداية التحرر مع الاسف .

ليس المطلوب بدون شك اسقاط التاريخ أو تعليقه ، فهذا ممتنع ؛ كما ان التنكر للماضي دفعة واحدة يفقدنا شخصيتنا الحضارية . وانما المطلوب هو اقامة فسحة بيننا وبينه ـ وايضا وبالتالي بيننا وبين واقعنا الراهن ، بيننا وبين ماحفظناه من علوم ومعارف بين كل منا وبين ذاته الشخصية والاجتماعية ـ فسحة تمكننا من السيطرة على عناصر وجودنا وأبعاده للتوجه به شطر المستقبل الذي هو حاضرنا الحقيقي .

وهذه المسالة هي التي اسميها فسحة الجاهزية .

ان قوتنا نحن العرب في تاريخنا فهو الذي جعلنا نصمد قرونا للغزو والتدمير ، الاستبداد والاستعمار ؛ بذلك حفظنا في الوجود . ولكن آن الاوان كي نقرأ الفائت على ضوء الآتي فنجعل من الماضي مستقبلا ؛ وهذا جوهر « التقدم » .

كما ان الانكفاء على هذا الماضي واجتراره هو جوهر « الرجعية » .

فالقضية أو الازمة اذا شئت هي قضية او ازمة ثقافة اقصد تكوين الانسان كما قلت .

والقضية هذه اكثر القضايا اشكالية .

والازمة هذه أكثر الازمات استعصاء على الحل .

وأقصد بكلمة « أزمة » هنا مجموعة التعارضات التي تعجز الجماعة عن تخطيها . وعندها يتكفىء كل فريق من فرقائها على ذاته معتقدا انه بذلك يضمن مصالحه ويتهم « الآخر » بالتقصير ناسيا أو متناسيا هذه الحقيقية الاساسية وهي أنه لا وجود للجزء بدون الكل ، او أن الكل املان ينهض كلا أو يكبو كلا .

فاشكاليتنا نحن العرب هي وجودنا على مشارف القرن الواحد والعشرين ، تاريخا نعجز عن دفعه الى الامام فيشدنا الى الوراء . وفي وضع كهذا تستسلم الجماعة للحكم المركزي واحيانا الاستبدادي لانها لاتستطيع حكم ذاتها بذاتها .

فالتعارضات غير المحلولة التي تستدعي الحكم غير الديمقراطي هي التي علينا أن نشدد الآن على بعض منها ، ثم نسائل عن الديمقراطية وعما تنتظره الامة العربية من مثقفيها من أجل تحقيقها .

أربــع تعارضات .

ان الذي وضع الامة العربية في موقع الازمة هو صدمة الحضارة الحديثة التي هزت كيانها من الاساس بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخنا الطويل ، على الخصوص انها وقعت بعد قرون من الضعف والتردي والاحتلال . وماتزال الصدمة منذ اوائل القرن التاسع عشر وحتى اليوم تغوص اكثر فاكثر في اعماق اللاشعور الجماعي لتعيد منه الى سطح الشعور صراعات من كافة الانواع والالوان كنا نعتقده ، لسنوات قليلة خلت ، أنا تجاوزناها ودفناها الى الابد . وسوف يمضي زمن طويل ، سوف تمر الامة بمحن كثيرة ، على ما يبدو ، قبل أن تمتص الصدمة فيعود التوازن والاستقرار الى كياننا الفردي والاجتماعي .

هذه الصدمة هي التي نغفل ــ نريد ــ الا نراها ، مع ان الرؤية الواضحة هي التي تمكننا من اتقاء شرورها الكثيرة . اذ ليس من السهل

على امة كانت تعتقد ــ بحق ــ لماضي نسبيا قريب منا ، انهامن الحضارات في الطليعة وان ثقافتها ارقى الثقافات وأعلاها شأنا ، ليس من السهل عليها ان تستيقظ على فجأة لتجد ذاتها تجاه فاصل حضاري ــ ثقافي ربما زاد عن ستة قرون ، يفصل بينها وبين الامم المتقدمة . والادهى ان هذا الفاصل قد يكون الآن في تزايد . فالتراث الضخم من العلوم والآداب، من الفلسفات والفنون ، من البنى والعادات والقيم والمعاني . . . عالم متكامل قائم يتحدانا في وجهنا : اما ان نتمثله ونسهم في حركته ، واما ان يلاشينا .

لقد وضعنا املنا بين الاربعينات والخمسينات في اليقظة الشعبية التي كانت ، ومازال ، تنقل الجماهير من هامش التاريخ حيث كانت تجتر بؤسها الى ساحه . فالشعب وحده يستطيع مبدئيا ، اذا وضع في شروط ملائمة ، أن يتجاوز التقصير ايا كان حجمه ونوعه . ولم نكن مخطئين . فمن ثمارها النهضة الثقافية ــ الادبية في اواسط القرن التاسع عشر التي بدلت اسلوب الكتابة العربية والمنعطف نحو الحداثة في الشعر (اواسط الخمسينات) الذي بدل لحد كبير حساسية العربي (تعامله مع الموجودات) وذوقه وكذلك انتشار الايديولوجيات التقدمية الاشتراكية الذي مايزال يبدل شخصية الشعب العربي وظهور الاحزاب والتجمعات السياسية اليسارية التي كونت رايا عاما جديدا تصدى للاستعمار ومؤامرته ، والتي شقت للممارسة السياسية طرقا غير التي سلكها آباؤنا واجدادنا واحسن مردودا منها .

والواقع ان الصدمة صدمات ، اللاحقة منها اقوى من السابقة ؛ فما ان نعتقد ــ خطأ او صوابا ــ انا تجاوزنا الواحدة حتى تضعنا التي تلي امام مشكلات اكثر استعصاء على التذليل . واولاها كانت صدمة الحضارة الصناعية التي حملت الينا ، الى جانب منجزاتها التقنية ، مبادىء الثورة الفرنسية ومعانيها ، وهي التي صارعها جماعة النهضة

الاوائل . وتلتها الحرب العالمية الاولى فالثورة السوفييتية التي أدخلت أول تبديل كبير على وجه العالم في القرن العشرين والتي تسارعت معها حركة تحرر الشعوب على الخصوص في العالم الثالث .

ونظن بعد الحرب العالمية الثانية اننا بدأنا حقا نصير اسياد انفسنا ، القطر تلو الاخر فبوسعنا ان نتمثل تدريجيا الحضارة المستجدة ونؤلف بينها وبين موروثنا الثقافي التاريخي ، فاذا بنا ، على فجأة مرة بعد مرات، في مواجهة الصدمة الاعنف والابعد مدى ، اقصد صدمة الحضارة العلمية ــ التقنية التي ترمي في الماضي البعيد موروث القرن التاسع عشر برمته وتشكل بعدا اساسيا من ابعاد منعطف في تاريخ الانسانية ماتزال ــ ونزال ــ في بداياته . فالادب والفن والفكر ، الاقتصاد والسياسة وتنظيم الجماعات ، وبمعنى ما الانسان ذاته وايضا الاستقلال والديمقراطية ، الخ . . . معها غيرها قبلها ، وكذلك التسلط والاستغلال والاحتلال والاستعمار .

وتشق الثورة العلمية ــ التقنية للامل في انقاذ الانسانية الفقيرة المعذبة ابوابا جديدة . فبوسع التكنولوجيا ان تضمن مبدئيا لكل انسان الغذاء والدفء والسكن الصحي والعلاج ومبادىء المعرفة ، وايضا مع الزمن العمل الذي يضمن له تحقيق العديد من امكاناته وتفتيح اهم مواهبه . الا أن ابواب الامل الكبير هذا لا تنفتح الا للجماعة التي هي من مقياس الثورة العلمية ــ التقنية ، اقصد الجماعة التي تحقق شرطين اساسيين ، كل منهما في الواقع مجمع شروط : الاول هو ، على الاقل وفي مرحلة اولى ، تمثل منجزات هذه الثورة متسارعة التطور ؛ الثاني تنظيم الجماعة ذاتها بشكل يمكنها من استخدام هذه المنجزات . والشرط الاخير هو الصعب تحقيقه الى حد الامتناع احيانا في البلدان المتخلفة اذ يستلزم اولا انشاء بنى اجتماعية ــ مهنية قادرة على تسيير القوى التي تعبأ للتنمية في الاقنية التي تسمح لها باعطاء مردودها على الوجه

الاحسن ، ثانيا تكوين الاطر المتخصصة من كافة المستويات لتسيير العمل في المعامل . وتستلزم أخيرا مجتمعا على درجة من المتانة بحيث يحتوى القوى الشعورية واللاشعورية التي تستثيرها الآلة الحديثة .

والواقع غير ذلك تماما . فالقوى تهدر كالارصدة بلا حساب ، والمتخصصون يهجرون — جلهم ان لم يكن كلهم — الشعب الذي علمهم ، والسكان يزدادون بتسارع مخيف وتزداد معهم الامية والبطالة والفوضى ، والريف يقفر ، والصحراء تتقدم لان الشباب القادر على العمل يهجر الحقل ليتسكع في شوارع المدينة ... وهكذا دواليك ، وكلها من امراض التخلف . هذا مع العلم ان في كل من هذه الامم خططا خمسية وسبعية وما شئت من التشريعات والايديولوجيات والانظمة الحديثة جدا .

والقوة الاكثر خطرا بين القوى التي استثارتها صدمة الحضارة التكنولوجية هي بدون شك « التاريخ » أقصد عودة « القديم » كما يقال في لغة علم النفس التحليلي أو « المكبوت » الجماعي اذا شئت . فالصراعات القديمة بين « الفرق » من كافة الانواع والالوان والطعوم وما خلفته من أحقاد تفلت كل منها من عقالها في الوقت الملائم ، وعلى الاجنبي البقية . فثمة الحروب الاهلية والنزاعات الطائفية وصراعات العصبيات القبلية أو شبه القبلية وكلها تنهك الامة الواحدة وتوزعها على أقطار وقد تجعل منها في نهاية المطاف امما . على اية حال فان الامم المتقدمة او المصنعة تنفذ من هذه الطريق الى صميم الامم المتخلفة وتستولي عليها جسدا وروحا .

ويحق للمرء ان يتساءل ما اذا كان يمكن لحكم ديمقراطي حتى ولو كان شكليا أن يقوم في مثل هذا المناخ .

ثمة خطأ فاحش يرتكبه الكثيرون عندنا اذ يعتقدون ان لنا نظاما من القيم الاخلاقية والمعاني الوجودية والروحية رفيع الشأن لا يعادله اي

نظام آخر في العالم ، وهو كامل ومتكامل الاسس والمبادىء الكبرى — وحتى احيانا التفصيلات الجزئية — اللازمة لتنظيم الجماعة العربية (وغير العربية في نظر بعضهم) سياسيا واقتصاديا واجتماعيا . فلا يعوزنا كي نتحرر ونستكمل شروط وجودنا امة في الطليعة من الامم سوى ... الاداة او الوسيلة التي هي منجزات التكنولوجيا . وبالمقابل فان هناك فئة اخرى — صارت اليوم اقل عددا مما كانت عليه في السابق، كما يبدو لي — تعتقد ان لا خلاص للعرب الا بتبديل جذري لشخصيتهم الموروثة بأخرى تكون صورة عما هي عليه الامم المصنعة .

ربما ان القيم الاخلاقية ومعاني الوجود الكبرى في كلياتها المجردة تراث مشترك بين الناس اجمعين . ومما لاشك فيه هو ان اجدادنا جسدوها في منجزاتهم الحضارية والثقافية على طريقتهم وبشكل يتجاوب مع حاجاتهم اذ ذاك واضافوا اليها قيما ومعاني اخرى اغنتها . واظن انه ليس من الصعب على الانسان ان يستخلص من تاريخنا وتاريخ الانسانية — وايضا من تجاربه اليوم — هذه القواسم المشتركة وان يحددها في صيغها العامة . ولكن العسير الى حد الامتناع احيانا على المتخلف هو تحقيقها اليوم في زمان ومكان معينين . ومن ثم فان منجزات التكنولوجيا ليست اداة حيادية تستعملها كما تشاء ، بل هي عمل ابداعي يعبر عن وجه من أوجه حضارة متكاملة بعضها مع البعض الاخر كما اشرت الى ذلك ، واضفت انها امام تحد مخيف : اما ان تتمثلها او تستعبدك اقول « تتمثلها » لا « تقلدها » ولا أيضا « تتبناها » والفرق شاسع بين الاثنين . فالتقليد هو مسخ . أما التمثل فيقوم على أن تطور شخصيتك انطلاقا من مواقعها وعناصرها وابعادها التاريخية بحيث تصبح بمقياس الحضارة الحديثة فهما وابداعا .

الموقفان في حقيقتهما نظريان . والواقع ان الانسان اليوم بشكل عام في صراع مع الآلة . فهو بمعنى ما يعيد تكوينها او يستخدمها فيجعلها

على صورته ومثاله كما انها بدورها تعيد تكوينه أيضا على صورتها ومثالها وسوف يمضي زمن طويل قبل ان يحصل التوازن بينهما .

والموقفان ، الى ذلك ، يضعاننا في مواجهة التعارض ـ الام الذي يهيمن على الوجود العربي برمته في افراده وجماعاته (مع فوارق في الدرجة لا في الطبيعة كما يقول الفلاسفة) ومنه تنبثق ـ او تكاد تنبثق ـ التعارضات الاخرى كلها بشكل او باخر ، أقصد التعارض بين القديم والحديث .

لقد قيل ويقال ان العلاقة بين الحدين ديالكتيكية اذ ان كلا منهما يستدعي الاخر ويكونه . فالحديث هو الذي يجعل القديم قديما ، والقديم هو الذي يجعل الحديث حديثا . وهذا صحيح .

الا ان التعارض قد يبلغ حد القطعية فالانفصام بحيث يمزق الموجود ويلاشيه . فكم وكم من الامم صارت امما او زالت من التاريخ لانها عجزت عن حل اشكاليتها او عن تطوير ذاتها بحيث تتلاءم مع الوضع العالمي . فالاغريق القدامى استعمروا وتدريجيا ، تلاشوا من الوجود بسبب من صراعاتهم الداخلية التي استنفدت قواهم كلها . وامبراطورية روما كذلك لاسباب كثيرة اذكر واحدا منها هو استسلام روما ذاتها لما يشبه اليوم المجتمع الاستهلاكي . لم نصل بعد نحن العرب ، والحمد لله ، الى هذا الحد ، ولكن يحق لنا ان نتساءل ما اذا كنا على مشارفه ؟

وبتعبير مجرد فان من التعارضات ما يبلغ حدا من الشدة والعمق بحيث يمتنع التاليف بين حديه ، او ان المغايرة قد تبلغ درجة قصوى من اللاتجانس بحيث ان الفاصل بين (الذات) و (الغير) الذي يجعل من كل منهما نفيا للاخر يستدعيه ، يتحول الى عدم (بالمعنى القوي للكلمة) تمتنع معه كل صلة ، كما يقضي بذلك الديالكتيك الكلاسيكي بشكليه (المثالي والمادي) .

لنلاحظ على سبيل المثال اننا لم نمر بمرحلة من مراحل تاريخنا كان التراث الذي هو القاسم المشترك بيننا ، مهما تباعدنا وتفرقنا ، واللحمة الداخلية التي تتخطى الحواجز الجمركية والايديولوجية والاقتصادية وغيرها لتجعل من العربي قريبا واخا لاي عربي اخر ، هذا التـراث لم يكن في يوم من الايام مهددا ، لا بالغزو الاجنبي وحسب ــ فالاجنبي يحتل الاماكن الضعيفة من الجماعة ــ بل ايضا بالخلافات الداخلية التي تجعل الصلة الثقافية ذاتها بين قطر والقطر المجاور له اعسر بكثير مـن الصلة مع الاجنبي . وهذا سبب من جملة اسباب كثيرة اخرى (وقـد لا يكون اخطرها) ارى ان الفت النظر الى واحد منها هو غزو العاميـة للغة الذي هو اخطر من الغزو الاجنبي .

فالتعارض الثاني الكبير هو بين الوحدة والتجزئة .

ان الساح العربي في المرحلة الراهنة مسرح لتصدعات وانشقاقات ومنازعات وحروب محلية واهلية تعيد الى الذاكرة الحروب القبلية في الجاهلية بحيث يبدو هذا الساح المشاهد الاجنبي وكانه ضرب مـن ضروب مسرح العبث الاكثر مأساوية وقد حققت على ارض الواقع . والامر بعد أدهى مما كان عليه في الجاهلية ، فقد كانت يومها للخلافات حدود لاتتجاوزها هي حدود العصبية القبلية . أما اليوم فالتجزئة لا يحدها ، على ما يبدو . هذا مع العلم ان الحاكم والمواطن العادي في هذا الوطن ، المثقف والامي يعرفون أن قوانا كلها مجتمعة تكاد لا تكفي لحل مشكلاتنا المتراكمة التي المحت الى بعض منها .

لقد صرنا اليوم نقنع بالتضامن عوضا عن الوحدة التي كانت لسنوات قليلة خلت الهدف الذي لا نرضى عنه بديلا . والتضامن العربي اليوم هش هشاشة الانظمة السياسية .

قيل ان المصائب تجمع ، وهي توحد بيننا لحـد ما في الحـالات القصوى ، اقصد الغزو الاجنبي المعلن . فمتى انحسر ــ جزئيا ــ عدنا

الى جاهليتنا المستعادة ــ حتى اليوم دوما مستعادة ــ ونسينا ان الاجنبي صار عند بعضهم من أهل الدار ، وعند الكل عشش في النفوس لا يقاومه سوى الموروث القديم الذي هو معه في صراع مستمر .

ان الامل الوحيد اليوم ــ في هذا المجال كما في بقية المجالات ــ هو الشعب الذي يكاد يقف في اغلب الحالات موقف المحايد من الصراعات العربية التي يدفع هو مع ذلك ثمنها . وحياده هذا يمكنه من الحفاظ على الصفات التي عرفت عنه طوال تاريخه الطويل وفي طليعتها ، الصبر على المكروه ، الجدية في العمل والمثابرة عليه ، الكثير من حسه السليم ، الذي مكنه من صيانة ما تمكن صيانته من تراث الاجداد ... وهذا الاعتقاد الراسخ بأن الانظمة ، مهما طال عمرها ، الى زوال . فثمة القدرة على الصمود صانت طوال قرون الانحسار وحدته اقصد شعوره الغامض بالانتماء الى وحدة عليا غائبة ــ حاضرة اسميناها مع النهضة « عروبة » .

بهذا المعنى وبمعان أخرى ارى ان التعارض الثالث هو بين الحاكم والمواطن .

والرابع بين اليمين واليسار بين الرجعي والتقدمي .

والتعارضات الأربعة حاضرة في كل عربي ، فردا وجماعة .

ان مفارقة التعارض الأخير ليست في انه شطر الوطن العربي برمته وكل قطر بمفرده الى شطرين كبيرين ، فقد الفنا تبدل المعسكرات السريع كما الفنا انتقال الفرد احيانا بين عشية وضحاها من اقصى اليمين الى اقصى اليسار وبالعكس . وليس بالامر المستغرب تبديل الواقع في وطن مجزأ ، فلكل قطر من اقطاره تطوره وتاريخه وثوراته ، الخ ... أو قل أن عدم الاستقرار أمر طبيعي بمعنى ما في وطن يتلمس طريقه الى وجوده والى هويته . المفارقة هي في ان الكلام والكتابة والشعارات تقدمية جدا

في حين ان الممارسة قبلية ؛ والبنى الاجتماعية والسياسية المستحدثة (حيث استحدثت) موضوعية قوامها العمل وناظمها التشريع في حين أن العلائق شخصية ؛ والانتماء شكلا للامة وفعلا لزعيم ما قد يكون أحيانا الوجيه المحلي الذي هو الوسط بين المواطن والحاكم .

فالواقع الموروث هو العقلية القبلية التي لازمتنا طوال تاريخنا الطويل فصارت هي وعلائقها وطرقها في فهم قيم الاخلاق ومعاني الوجود لاصقة بتركيبنا النفسي ـ الجسدي ، وهي الخلفية التي ترتد اليها التجزئة أية كانت أسبابها المباشرة أو أيا كان المحرض عليها . الا أن ضرورات المرحلة التاريخية الملحة جدا جعلتنا نقحم فيها التحديث ، أقصد استخدام الآلة المتطورة جدا والايديولوجيات التقدمية وتبديل البنى والتشريعات الناظمة للممارسة .. الخ . فنتج عن ذلك مزيج عجيب غريب هو الذي علينا ، مع ذلك ، ان نطوره كي تنصهر عناصره بعضها مع البعض الآخر فيتحول الى تأليف منسجم . ولهذا فالرأي العام العربي خاضع لتيارات قاهرة تشده تارة الى اليسار وطورا الى اليمين . انه يطلب التحديث الذي لاغنى عنه لوجودنا مستقبلا ، ولكن على فجأة يخشى أن يقتلع من جذوره فيرفض اليوم ما كان يصر عليه بالأمس .

والفرد كالجماعة خاضع شاء أم أبى لهذا المد والجزر .

وهذا ايضا ليس بالمستغرب في منعطف تاريخي حاد هبط علينا ونحن نغط في سبات القرون وعلينا أن نجتازه .

وانما المستغرب هو ألا نفكر باعادة نظر منهجية في ثقافتنا . وقد عرفت الثقافة بأنها اعادة تكوين الانسان ؛ المستغرب ان نرتجل في كافة المجالات ، نرتجل الايديولوجيات ، نرتجل البرامج ، نرتجل التخطيط ، الخ ، وننتبه الى أنا اخطأنا المرمى ، انا ضللنا الطريق، فنصلح الارتجال بارتجال آخر ، وهكذا .

ولهذا اخترعت الشعوب المتخلفة فكرة الزعيم الملهم .

والحق أن الوطن العربي انجب في نهضته افرادا أوتوا في العديد من المجالات قسطا كبيرا من العبقرية . ولكن ما أن يرحل أحدهم حتى يرحل معه عمله وكأن شيئا لم يكن . ذلك ان عمله كان فرديا ، في حين أن التخطيط المدروس والممتد على سنوات وأجيال ـ اي المستقل عن الأفراد ـ هو الذي ينقذ الأمم .

ان شعوب الأرض كلها منذ أن كانت وأين وأنى كانت ، تطلب الغذاء والدفء والسكن الصحي ... تطلب المساواة والاخاء والاستقرار .. تؤثر الاستقلال والحرية على الاستعمار والاحتلال ، والاشتراكية على الاستغلال وتحارب من أجل تحقيق هذه المرامي العظيمة . وايضا فان كل فرد من أفراد بني البشر يبحث عن العمل الذي يمكنه من تفتيح مواهبه . فليست الجماعة بحاجة الى مثقفين من الدرجة العالية والى ملهمين كي تعرف هذه الأمور التي تكاد تكون من الحاجات الأولية والمطالب الاساسية للوجود الانساني . وانما هي بحاجة في مرحلة أولى الى الجرأة في اعلانها على الملأ فتصبح اهدافا يضحي الانسان ، فردا وجماعة ، بماله وحياته من اجلها .

وما من شك في أن اليسار ، على اختلاف أحزابه وفرقه واتجاهاته قد لعب الدور الأكبر والاخطر شأنا في هذا « الاعلان » وايضا في توعية الشعب الى حقوقه وتعبئته لمعركة التحرر والاستقلال ومن ثم لمعركة قلب الانظمة الاقطاعية ـ البورجوازية وابدالها بأنظمة شعبية . وسوف يستمر في هذا الخط حتى تتحرر كافة الاقطار العربية من كل عنصر متواطىء مع الاجنبي . وهذا واجبه . فأفراده جلهم من المثقفين ، وهؤلاء جلهم كانوا من الطبقات المتوسطة التي علمت ابناءها لترقى الى مرتبة الاثرياء الوجهاء ، ثم امتدت الثقافة الى الطبقات الاكثر فقرا التي رات أيضا في الشهادة الاداة الوحيدة للترقية الاجتماعية ، وفي النضال السياسي ـ الاجتماعي ، الطريق الى التحرر . وابن الشعب يتحسس ،

مبدئيا ، مشكلات الشعب أكثر من غيره وقبل غيره . ولكن هل يكفي ان يتحسس كي يعرف ؟ وهل يكفيه ان يعرف كي يعمل ؟ وهل يكفيه ان يعمل كي يحقق هدفه . والحق ان بعض المثقفين العرب ضحوا بمالهم ومستقبلهم وصحتهم واحيانا بحياتهم ليعلنوا ما يجب اعلانه .

الا ان المثقفين العرب وقفوا عند حدود المرحلة الاولى ، او بالاحرى تعجلوا الأمور فقفزوا منها الى المرحلة الثالثة التي هي مرحلة تحقيق الاهداف التي صارت شعارات وحسب . اجل « انتقلوا » وهم لا يعرفون عن الشعب الذي هو موضوع رهانهم سوى ما توحي لهم به انطباعاتهم وحدوسهم وبعض المعلومات المجمعة على عجل ، التي قد تخطىء وقد تصيب ، ولا تصلح بأية حال للمشروع الكبير الذي تستهدفه النهضة الحقيقية لأمة متخلفة في هذا العصر الا وهو اعادة بنائها . وهذا هو السبب « الثقافي » وربما السبب الأول والأهم لاشكاليتنا الكثيرة .

فالذي يعوز القيادة العربية ـ ثقافية كانت ام سياسية ام اقتصادية ام غير ذلك ـ هو التحليل العلمي لواقعنا والبرمجة التي تلزم عنه .

ومن ثم فكثيرا ما تصيب المثقف ـ في البلدان المتخلفة ـ ولو كان من الطبقات الفقيرة وربما لانه من الطبقات الفقيرة ـ عدوى الرفاه البورجوازي أو التسلط الاقطاعي او الاثنين معا . وقد تتملكه على الخصوص اذا ارتقى الى درجة ما من درجات القيادة . فلا يحتفظ من حاجات الشعب ومطالبه الاساسية وارادته « التي لا تقاوم » سوى بالشعارات يرددها بالمناسبات ويعلقها لأجل غير مسمى . عندها يبدأ التعارض بين السلطة والمواطن .

الانحرافات ونقاط الضعف هذه لاحظها كثيرون في البلدان المتخلفة او غير المصنعة . وقد كان بالامكان اصلاحها أو تفاديها لو لم تصب هذه

البلدان بما يمكن أن نسميه « داء الحداثة الكبير » الذي لم تجد لـه البشرية حتى الآن دواء شافيا أو لقاحا واقيـا أقصـد « المجتمـع الاستهلاكي » نقلت جرثومته مـن العالم المصنع الى العالم غير المصنع المواصـلات السريعة والاتصالات المتزايدة بين سكان الارض ووسائل الاعلام الجماهيرية والمجلات المصورة ، الخ .. وبالفعل فان حلم الشباب الناشيء في هذه البلدان ، في الأرياف كما في المدن ، على ما لاحظت ولاحظ كثيرون ، هو السيارة والفيديو ... الاجساد العارية .. التزلج على الثلج شتاء وصيفا البلاجات و « السابحات الفاتنات » ... هـذه هي الجنة وما عداها النار . ومتى تملك الانسان هذا الهوس استعبده في كل خلية من خلايا وجوده فهو مستعد ان يبيع نفسه لأي « مفيستو » كان كي لا يحرم من هذا النعيم . ولكن كثر العرض وعزّ الطلب مع الأسف ، ولا يسلم من الداء الا « من عصم ربك » .

والادهى هو أن الامم المصنعة تنتج وتستهلك وبوسعها على ايـة حال ، هي التي تفرز الداء أن تجد له يوما ترياقا شأنها شأن الساحر يستطيع متى شاء ان يخرج الجني من القمقم ويعيده اليه .

أما الساحر المتمرن فالجني يصرعه لانه يعجز عن اعادة ربطه بالقيد الذي افلت منه . وبالفعل فان البلدان غير المصنعة تستهلك ولا تنتج . وهي في الواقع تستهلك ذاتها .

ولهذا ظهرت في هذه البلدان بوادر انقسام طبقي تتضح معالمه يوما اثر يوم ، لا يدخل في اي اطار من اطر التصنيفات الكلاسيكية المعروفة .

افلا يحق لنا أن نتساءل مرة اخرى ما اذا كان بالامكان نشوء نظم ديمقراطية في وضع كهذا ؟ .

شيء عن الديمقراطية

من المعروف أن الاغريق هم الذين نحتوا كلمة « ديمقراطية » وهم أول شعب في التاريخ أقام اول (وفي راي بعضهم أكمل) حكم ديمقراطي، ولكن ضمن حدود المدينة الواحدة محدودة السكان عددا . وفي المدينة الواحدة ضمن حدود الاسر الاصلية التي كانت تشكل ارستقراطية سياسية - ثقافية - مالية لا يدخل في عدادها الزارع ولا الحرفيون ، ولا الغرباء ولا العبيد . والاغريق هم الذين وضعوا المبادىء اللازمة والكافية لقيام حكم ديمقراطي ، نجدها في كتاب ارسطو « السياسيات».

أولها ، سيادة القانون .

الثاني ، حرية الشعب الكاملة في اعلان رأيه على الملأ والدفاع عنه .

الثالث ، انبثاق السلطة عن الشعب بالاقتراع العام .

الرابع ، أولوية المجالس التشريعية على السلطة التنفيذية .

هل حقق الاغريق هذه المبادىء ؟ متى ؟ كيف ؟ ولاية درجة ؟ تلك اسئلة خارجة عن نطاق بحثي هذا . وانما الاحظ بشكل عام أن الثورات الحديثة بدأت بالتقيد بها كلها تقريبا ثم علقتها الواحد تلو الآخر . وفي نهاية المطاف أسقطتها جزئيا وكليا من حسابها . وربما آلت الىعكسها . . والاعسر على التحقيق اليوم اي في عصر الأتمتة والاعلام الجماهيري هو المبدأ الذي كان الاغريق يضعونه في رأس قائمتهم ، اي الرابع . ففي العالم كله تقلص - بنسب متفاوتة طبعا - دور المجالس التشريعية ، وهو يتدنى أحيانا في البلدان المتخلفة الى حدود الصفر ، اذ أن السلطة التنفيذية شدت اليها السلطات الاخرى أو ربطتها بها مباشرة . والدولة الحديثة تعتمد أكثر فأكثر على الهيئات شديدة التخصص التي هي من سياستها بمثابة العمود الفقري . وهذه الهيئات لا يعنيها من الرأي

العام سوى صمته . وهذا امر تحقيقه سهل على الدولة الحديثة ، حيث قد يكون جهاز الأمن اقوى الاجهزة .

وليس اتجاه الحضارة الحديثة هذا بالامر المستغرب . ففي بدايات الديمقراطيات الحديثة ــ ومنها بالدرجة الاولى الثورة المجيدة في انكلترا (١٦٨٩) والثورة الكبرى في فرنسا (١٧٨٩) ــ كانت الثقة كاملة او شبه كاملة بعفوية الشعب وحسه السليم ، وهما السمتان اللتان تمكناه من معرفة المصلحة العامة (في خطوطها الكبرى طبعا) وابداء الرأي بشأنها اذا افسح له المجال . اما اليوم فالحس السليم في نظرنا مكتسب لا فطري وعفوية الشعب اسطورة رومانتيكية جميلة . اذ لا يمكن للمرء اليوم ان يكون لذاته رأيا عن قضية عامة ــ أو خاصة ــ الا بالاستناد الى المعطيات التي توفرها له الصحف والاذاعات . وهذه لا يمكن ان تكون ــ حيث يمكن أن تكون ــ موضوعية الا ضمن حدود ضيقة . فالخبر الواحد يختلف احيانا من اذاعة الى اذاعة اختلاف الاسود عن الابيض . وفي العديد من بلدان العالم ــ ومنها البلدان المتخلفة ــ كثيرا ما يحل التعليق محل الخبر ، فالموضوعية في حدود الصفر . والواقع هو أن الجماهير تعالج في الاطر المعدة لاحتوائها ، كما تعالج الاجساد بالعقاقير والمساحيق بحيث تصبح مرنة ، بلاستيكية حتى في منعكساتها فتلقن ما يجب عليها أن تقوله عن قناعة وهي تقوله حقا عن قناعة . والفرد في الجمهور ، صوت في جوقة لاخيار له في النغم الذي ينشده ولا في نمط الانشاد . ومع الزمن يتقمص دوره ويصبح اياه . فأين العفوية والحس السليم من كل هذا ؟

يميز افلاطون في جمهوريته بين الشعب والجمهور . وهو يشير بالكلمة الاولى الى الانسان ــ اي انسان ــ في سياق حياته اليومية حيث يحكم بحرية واخلاص على ما يرى ويسمع ؛ وبوسعه ؛ في نظر افلاطون ، ان يفهم الفلسفة ويعمل بموجبها . اما كلمة جمهور فتشير عنده الى الغوغاء التي كانت تحتشد في ساحات اثينا القرن الرابع ق. م. ويستخدمها

الوصوليون لتحقيق مآربهم لدى الحاكم . والذي يسترعي الانتباه في عصرنا هو أن كلمة شعب اختلطت نظرا (وعملا عند بعض الأنظمة) مع كلمة جماهير فهما مترادفتان . وامتدت كلمة جمهور فشملت طبقة البروليتاريا التي اعتقد كارل ماركس والماركسيون الأوائل ومن يسير على دربهم أنها ستنقذ العالم .

بويبدو اننا نسير بخطى حثيثة نحو مفهوم جديد للشعب وللطبقة ما يزال في طريقه الى التكون . فالحرفي يتضاءل مجال عمله والعامل يحل محله في العامل المؤتمتة ، العامل المتخصص ومساعد المهندس والمهندس. وفي المنشآت التجارية ، يحل المتخصص في العلائق العامة وفي ادارة الأعمال محل البيروقراطي الروتيني . وفي عصر المزارع التعاونية (أو الرأسمالية) الكبرى، عصر التراكتور والزراعة المستندة الى الكيمياء، الأكثر تقدما ، يرد دور الفلاح التقليدي الى حدود ضيقة وتنتقل السلطة كالعمل اليومي الى هيئة من المهندسين والمشرفين الزراعيين والاداريين المتخصصين ، الخ .. وفوق هؤلاء وغيرهم هيئات التخطيط العليا التي يبدو أنها تفرض ــ أو ستفرض ــ ايديولوجيتها على السلطة السياسية. وايضا سياستها ونهجها ونظرتها الى الأمور .

أما في البلدان غير المصنعة ــ أو المتخلفة ــ فالطبقات عمليا من عصر ما قبل الثورة الصناعية . اذ انها لم تبدل عمليا ، رغم استخدام الآلة الحديثة ، نظرتها الى الامور وعلائقها وطرق عملها فتنتظم عفويا في البنى التي وصفت لتأطير فئات الشعب اثر الثورة الصناعية . وتلك مأساة اليسار العربي ، انه يريد أن يحشرها عنوة في هذه البنى وأن يفهمها بالاستناد الى مفاهيم هذه الثورة التي صارت من الماضي البعيد .

أما التفاوت بين البلدان المصنعة وغير المصنعة فهو مأساة القرن الواحد والعشرين وربما كارثته الأكبر .

على اية حال فان البشرية على عتبة ثقافة ـ او تربية ـ كلية ستكون لدى الانسان بمثابة طبيعة ثانية او ستكون له بمعنى ما حريات اخرى غير التي حللها الفلاسفة وعلماء النفس . وهذه الثقافة هي التي يجب ان تكون يوما موضوع تأمل قادة العرب من السياسيين والمثقفين .

وفي راي بعض المتشائمين اصحاب مايسمى اليوم بالطوباويات المضادة من امثال جورج اوريل ، فان تنظيم الجماعات الانسانية سيبلغ مع تقدم التكنولوجيا ، درجة من الدقة تحصي على الانسان حركاته وسكناته وهو في منزله ، لتنظمها تنظيم حركات الساعة .

فلا عجب اذا كانت الديمقراطية عالميا في مأزق .

اما في البلدان المتخلفة فيحق للمرء ان يتساءل ما اذا كانت وجدت حقا ديمقراطية حتى تقع في ازمة .

والازمة في الواقع هي ، كما قلت ، ازمة مجتمع ، بالاحرى ازمة انسان ، وتلخص في ان منجزات التكنولوجيا المتقدمة والمجتمع التي تكون معها واستدعاها واستدعته تجذب الانسان العربي بما يشبه السحر وتستولي عليه بكليته فيقبل عليها بنهم هو جوع قرون من الحرمان الى الترف . فليس الذي يشده اليها بالدرجة الاولى هو عقله او قدرته على استشراف المستقبل بل غرائزه . ولكنه ينتبه فجأة الى ان هذه الحضارة التي ماتزال لحد كبير غريبة عنه ستنتزع منه روحه ، اقصد شخصيته الحضارية ، فيخاف ويرتد على اعقابه مذعورا لاجئا الى مواقعه القديمة . اذا الصراع بمعنى مابين الشعور واللاشعور وهو قائم في كل منا ، وعلينا ان نعقلنه بالتحليل الدقيق كي نتجاوزه تدريجيا . وليس هذا بالامر العسير ـ وان كان يحتاج الى عمل عقلي طويل ـ على جماعة صممت على ان تستمر في الوجود .

ولهذا فالتعارضات التي ذكرت ـ وغيرها ـ على الخصوص الاول منها (القديم ـ الحديث) والرابع (اليمين ـ اليسار) في صميم الازمة . وقد يكون الرابع سببها المباشر .

فالذي استدعى قيام انظمة شديدة المركزية في الوطن العربي هو في اغلب الاقطار الانتقال السريع من البنى والقيم والعلائق الاجتماعية الموروثة الى اخرى مستحدثة لانه يعرض الجسد للتراخـي فالتفكك فالفوضى والتلاشي في نهاية المطاف ، وفي اقطار اخرى استدعى الحرص المفرط على الشخصية القديمة قيام انظمة، السلطة التنفيذية فيها مطلقة الصلاحيات .

وبالفعل فليس بالامر السهل ان يزاح عن مركز السلطة اناس وطبقات توارثوها عن ابائهم واجدادهم ، وتسلم لاخرين كانوا بالامس القريب من حاشيتهم واحيانا بين اجرائهم فاذا بهم اليوم اسيادهم . ليس بالامـر السهل ايضا ان تبدل الملكية الخاصة التي اعتبرها بعضهم حقا مقدسا والبعض الاخر بعدا من ابعاد الطبيعة الانسانية ، بملكية مشتركة لوسائل الانتاج ، بعضها او كلها . والاصعب هو تبديل العلائق الاجتماعيـة لدى جماعة بلورتها خلال قرون من الجمود والانعزال عن العالم واجترار الماضي في اعراف وعادات وفي قيم وتقاليد بدت لافرادها وكانها من الازل الـى الابد ، كان تزج المراة مثلا دفعة وأحدة في خضم الحياة الاجتماعية وتعتبرها ندا للرجل في كافة المجالات بعد ان كانت لسنوات قليلـة خلت تعتبره سيدها وعليها ان تلزم بيتها خاضعة لاوامره ومقيدة حتى بنزواته . ان هذا التحول خطير ، اذا حصل فجاة عرض نظام القيم ، القديم منها والحديث المرضي والسليم للانهيار . والامثلة في هذا المجال لاتحصى .

اضف الاجنبي المتحفز دوما للاصطياد في الماء العكر ، وعقدة الاجنبي التي تجعل العربي حذرا من كل بادرة جديدة الى حد الوسواس والهوس .

على اية حال فان الانتقال من انظمة الحكم الموروثة ، وكلها مطلقـة او شديدة المركزية، الى نظام ديمقراطي لايتم بارادة مريد . فلايكفي ان نعلن

نهاية البنى القبلية والطائفية والاسروية وان نزيح القائمين عليها حتى تنتهي هي ومايلزم عنها ولها من علائق وانتماءات شخصية وتزول . فسرعان مايستولي القديم على المستحدث ويعيد تكوينه على صورته ومثاله فتنشأ في البنى الجديدة زعامات أكثرنهما من التي سبقتها وتستعبد الفلاح وابن الشعب مرة ثانية وكأنا بدلنا الاسم والشكل وابقينا المضمون على ما كان عليه . وايضا لايكفي ان نعلن حكم الشعب للشعب حتى يحكم الشعب ويزول فعلا واقع القبلية الذي الفه هذا الشعب قرونا فصار من بنيانه النفسي ــ الاجتماعي ــ الجسدي . فسرعان ماينصاع للاقوى سلطة او للاكثر بطشا . وهذا يكتفي من الديمقراطية بالشعارات ويتصرف كما كان يتصرف اسلافه ممن تعاقبوا على الحكم .

وبتعبير آخر فان الديمقراطية لاترتجل لانها حصيلة تربية طويلة تمتد على اجيال ، وسيلتها وسبيلها الديمقراطية ذاتها . وتتولى امر هذه التربية ، بروح ديمقراطية ، الفئات التي عددتها فيما سبق من مفكرين وسياسيين ، كتاب وفنانين ، مربين محترفين واداريين ، الخ .. وتستند الى مبادىء ثلاثة او اربعة متكاملة تعيد تكوين الانسان فردا وجماعة ، نفسا وجسدا وهي :

الاول فن الاصغاء ، فليس رأيي بالضرورة اصح واسلم من رأيك ، ولو كنت اغزر علما منك . وهذا يعني احترام شخصية الاخر والثقة باخلاصه للقضايا العامة . فلا تتسرع باتهامه اذا غاير موقفه موقفنا . ان الانسان بريء حتى يثبت ذنبه ، كما تقضي اوليات او بديهيات الشرع .

والاصغاء بداية الحوار الصحيح ، فثمة المبدأ الثاني ، ويقوم على التسليم مسبقا بأن الحقيقة الانسانية حصيلة عمل مشتركة قد يمتد اجيالا . ان الحقيقة والديمقراطية والمعقولية وبقية الامور العظيمة ليست « شيئا » يحصل عليه الانسان مرة ولكل مرة .

المبدأ الثالث مرتبط بالثاني ويمكن ان يرد اليه ، وهو نسبية الرأي الانساني ، فرديا كان ام جماعيا، اذ انه لاينفصل عن الظرف الذي استدعاه، شأنه شأن كل فعالية انسانية اخرى . وهذا لايعني ان حقيقة اليوم هي خطأ الغد ، بل ان كل حقيقة جديرة بهذا الاسم وجه من اوجه الحقيقة المطلقة .

المبدأ الرابع هو ضرورة اقامة العلائق الاجتماعية بين المواطنين والحاكم وبين المواطنين بعضهم مع البعض الاخر على اسس موضوعية الناظم لها هو التشريع وايضا القيم والمعاني الانسانية الناظمة لفعالية جماعة ما .

ويمكن تلخيص هذه المبادىء من وجهة نظر البلدان المتخلفة بردها الى ثلاثة اركان هي بين منجزات العقل الحديث الاخطر شأنا وتفوق قيمتها الاجرائية ابداعات التكنولوجيا الاكثر تطورا .

الاول فك الارتباط بين الحقيقة الانسانية والمطلق .

الثاني فك الارتباط بين الحقيقة والانسان الذي يقولها حتى ولو كان هو الذي اوجدها او صاغها .

الثالث ، اعتبار الشخص الانساني قيمة بذاته تفوق كل قيمة اخرى من قيم الحياة الدنيا. فلاتوجد اذا ايديولوجية علمية باطلاق المعنى ، اي يمكن ان نستخدم لفهم او تبديل اي وضع كان ، كما انه لايوجد تشريع لايتبدل مع الزمان والمكان ، فقد يكون عكسه اصح منه غدا، ولاتوجد فلسفة يمكن ان تقول الوجود هو كما هو مرة ولكل مرة ، الخ .. وانما الثابت هو المعاني الناظمة للوجود الانساني والتي اجمعت الانسانية على احترامها والتسليم بصحتها كالعدالة والمحبة والاخلاص ، الخ .. وهذه المعاني لاتوجد، انسانيا ، منفصلة عن الوضع الذي تتحقق فيه ويعطي لكل منها وجهه الانساني . وتبدل الوضع هو الذي يستلزم تبديل الايديولوجيا والتشريع والفلسفة وغيرها .

كما ان الحقيقة الانسانية ليست مرتبطة بأي انسان كائنا من كان حتى ولو كان هو الذي وضعها . ان العقل البدائي وحده لايمكن ان يدرك المبادىء والقيم والحقائق الا اذا راها مجسدة في انسان معين . وهذا موقف خطير جدا . فمن يعتقد انه يملك الحقيقة بالذات او انه يدافع عنها يرى في كل من ينحرف عن حقيقته عدوا خطرا على الانسانية ومن الخير ازالته من الوجود .

اما العقل الحديث او الديمقراطي اذا شئت فيرى ان القائد وجد لخدمة الشعب لا الشعب لخدمته .

وان الحقيقة الانسانية وجدت من اجل الانسان لا انسان من اجلها . ولايجوز في نظام ديمقراطي ان يهان انسان او تقيد حريته بسبب من آرائه ومعتقداته الا اللهم اذا كانت هذه تسويغا لتواطئه مع الاجنبي .

وباختصار مرة اخرى فان العقل الحديث حيث وجد ــ وماأقل ما يوجد فعلا بكليته ــ حطم الاصنام ليحيا الانسان وينمو .. وتلك هــي الديمقراطية ...

وينسى الجميع ان الارادة الشعبية ــ التي هي هنا موطن الحقيقة ــ ليست شيئا قائما بذاته ، هذا يكشف عنه وذاك يخطىء المرمى ، الا اذا رددناها ، كما قلت سابقا ، الى مفاهيم عامة تعني كل شيء ولاتعني شيئا، او الى حاجات اولية يعرفها كل انسان .

ان الارادة الشعبية تولد وتنشأ وتنمو ــ وتتقهقر ــ مع الشعب . فارادة المتخلف متخلفة (عن زمانها) وارادة المتقدم متقدمة (ايضا بالقياس الى زمانها) وكذلك القيادات .

ولكن حيث يحصل اللقاء والتجاوب الفعلي بين الشعب وقيادتــه ويستكمل شروط وجوده فثمة الارادة التي يمكن ان تنمو الى ما لانهاية

له ، بدائيا كان مستوى اللقاء ام طليعة في التقدم . اذ عندها يستطيع كل من الشعب وقيادته ان يكوّن الاخر .

وبتعبير ادق فان موقع الارادة الشعبية هو على الضبط في الفسحة التي تفصل بين الشعب والقيادة وتجعلهما يتكاملان ويتجاوبان في حوار لاينتهي .

انها فسحة الديمقراطية .

فسحة الحرية ، فيها وحدها يتنفس الانسان ويستشعر انسانيته فيتكون وينمو .

وتقع مسؤولية شقها وتوسيعها وتعميقها على القيادة . اما وسائلها فشتى ، هي وسائل كل تربية للمواطن ، وقد اشرت الى بعض من اهمها ويجب ان اشدد الان على اثنين منها : الاعلام الامين للواقع يقوله — جهد المستطاع على الاقل — هو كماهو .

الاصغاء الى الشعب .

قد تكون المبادهة في شق هذه الفسحة للقيادة السياسية . الا ان الباقي تقع مسئوليته على المثقفين وعلى القيادة الثقافية .

بؤس المثقف وعظمته

تنافس اليوم ، في الدول المتقدمة ، ارستقراطية الثقافة ارستقراطية المال ، وقد تحل يوما محلها كما حلت هذه محل ارستقراطية الدم والنسب . فالهيئات المتخصصة ، على الخصوص في التخطيط والاقتصاد واستشراف المستقبل ، في السيبرنطيقا والاعلاميات ، الخ .. وايضا المنظرون وارباب الاعلام الجماهيري ، الخ كلهم يشكلون البعد الاساسي للفعل السياسي .

كما ان الشعراء والادباء والفنانين ، الخ هم الذين يكونون حساسية الجماعة وذوقها وخيالها ويسهمون في نشوء وتبدل نظرتها الى الوجود . والتنافس العالمي بين الدول ثقافي بالدرجة الاولى ، حلبته اليوم البحث العلمي ، فالدولة السباقة في مجاله سباقة في المجالات الاخرى .

ولايقل دور المثقف اهمية لدى الامم المتخلفة عما هو عليه لدى الامم المتقدمة ، وإن كان من نوع آخر . فالمثقف ، في الدول المتقدمة ، حلقة من سلسلة متكاملة الحلقات حتى ولو شكل علمه او فنه منعطفا تاريخيا في مجاله . اما في الامم المتخلفة فهـو ، مبدئيا ، النافـذة التي يطل منها شعبه على الحضارة الحديثة ، او هو صلة الوصل بينه وبينها يعلمه اياها في اصولها وابعادها ومراميها ، وهو امل الشعب في اللحاق بهذه الحضارة . وبالفعل فانه المربي والمنظر ، الاعلامي والاداري ، الكاتب والفيلسوف ، الخ . . وقد يكون عضوا في مجلس الشعب فيشرع ، او مشرفا على قطاع الخدمات فيحقق على ارض الواقع مايرى انه الاصلح للمرحلة التاريخية . انه المسئول عن التبدل الذي يطرا على بنية الفكر في شعبه ، كما انه يسهم على قدم المساواة مع السياسي في اعطاء هذا الشعب صورته الجديدة ، تنقله تدريجيا من القديم الاقدم الى الحديث الاحدث .

لنلاحظ مثلا ان المفاهيم التي اخذت بها بشكل او باخر القيادات السياسية في الوطن العربي وصارت شعارات شعبنا كله تقريبا . ومنها على سبيل المثال لاالحصر ، العروبة والامة الواحدة ، الديمقراطية وحرية التعبير ، الاشتراكية وحقوق لشعب .... وايضا التقدم والثورة وحق المراة بالمساواة مع الرجل والصراع الطبقي ... وكذلك التحديث والبنى الحديثة الاجتماعية والسياسية الخ .. هذه المفاهيم صاغها مثقفون ـ بعضهم معروف ـ في مرحلة معينة من تاريخنا ونشروها بالكلام والكتابة، وهي التي ايقظت شعبنا من سباته الطويل اذ حددت له اهدافا عليه ان

يطالب بها بكافة الوسائل ومنها الثورة اذا اقتضى الامر . ان المثقف في الامم المتخلفة نقطة ابتداء .

والتخلف إن هو الا قصور ثقافي ، نتج عنه قصور في التنظيم الاجتماعي فتباطؤ الحركة الاقتصادية وتردي الاوضاع السياسية الخ . .

والمثقف ، هو ، في المباشر ، صلة الوصل ، مبدئيا ، بين الشعب والحاكم ، يطلعه على حاجاته ، ينقل اليه رغباته ويدافع عن حقوقه ، الخ . . كما انه بالمقابل يحدد للشعب واجباته ويطلب منه بكافة الوسائل، ان يؤديها . ومن هذه الواجبات الثورة على الظلم والاستغلال التي تكمل الثورة على الاستعمار والاحتلال .

وتلك بداية فسحة الديمقراطية : التحليل العلمي والنقد الموضوعي، تحديد الحقوق والواجبات بشكل يضع كل انسان في مكانه ، فثمة الاطار الصحيح لحرية الرأي .

فاذا نظرنا الى الامة بجملتها من منظور المثقف نستطيع القول عنه انه بقعة ضوء في ظلمة . ولكن ما عسانا قائلين اذا نظرنا الى المثقف بمنظور الشعب ؟ المسألة فيها نظر . وبتعبير أوضح ، هل نهض المثقف العربي بالمهمة التي كان الشعب ـ ومايزال ـ يتوقع منه ان ينهض بها ؟ هذا السؤال لا نستطيع الاجابة عنه بنعم او لا .

فالثقافة متعددة القطاعات والاجناس والمستويات ، والسؤال بالتالي أسئلة . لقد أشرت فيما سبق الى انه قصر في مرحلة الاستقلال : فأين ولماذا ولاية درجة ؟ الادانة على العربي سهلة ، والاتهام أسهل . الهام هو ان نحدد موطن الضعف عسى ان نعثر على أسبابه ـ بعضها ان لم يكن كلها ـ فنتداركها يوما .

لنلاحظ بادىء ذي بدء ان المثقف في بلد متخلف ، موظف اجمالا ؛ وهذا ، الى جانب اعباء وظيفته التي تستنفد القسم الاعظم من وقته ،

لا يستطيع الخروج على ولا عن رأي السلطة التي وظفته الا ضمن حدود ضيقة تحازي احيانا درجة الصفر .

ومع ذلك فقد بدأ المثقف العربي في الشعر والتصوير بالدرجة الاولى ومن ثم في بقية الاجناس الادبية والفنون التشكيلية والمسرح والسينما ثورة التحديث التي جددت ـ او على الاقل بدأت تجدد ولما يتجاوز عمرها ربع القرن ـ حساسية العربي وخياله وذوقه وأسهمت في تبديل نظرته الى العالم وموجوداته . وهذا ما يطور اليوم تدريجيا شخصيتنا الموروثة ويعدها لمواجهة الحداثة والاسهام في حركتها .

وانما الضعيف حقا في الثقافة العربية هو الجانب الفكري اوالتحليلي . فلم يتمكن المثقف العربي حتى الان من ان يقدم في اي قطرمن الاقطار ، على ما اعلم ، صورة لها قيمة علمية ما ـ اقصد تقارب الواقع في ابعاده وتطوره وثغراته ، الخ ـ تمكن القارىء من أن يفهم بشكل دقيق وجها من اوجه وجوده الفردي والجماعي . فنحن نجهل حقيقتنا ، وادقنا ملاحظة لايملك عن واقعنا سوى انطباعات قد تخطىء وقد تصيب ، وربما أن درجة الخطأ فيها اكبر من درجة الصواب ؛ كما انه ـ اي المثقف ـ لم يقدم للسياسي اي نموذج اجرائي يمكنه من معالجة احدى مشكلات هذا الشعب الكثيرة بصورة منهجية . والدراسات القليلة الجيدة محدودة الموضوعات ، كثيرا ما تعالج مشكلات هامشية . وعلى اية حال لاتتجاوز حدود ما يمكن لمفكر او عالم أن يلاحظه بمفرده . والباقي من مقالات تنشر في الدوريات او في الجرائد اليومية مرتجل كاغلب الحلول الاجتماعية والسياسية في اغلب الاقطار . وهكذا تتراكم المشكلات وتستمر وتستعصي على الحل كالاوبئة المزمنة ، فتضعف جسد الامة لانه يعجز عن امتصاصها . ومن هذه على سبيل المثال ، التضخم بصوره المتعددة ـ النقدي ، السكاني ، الطلابي ، اجور السكن ، تضخم المدن ، الخ ـ فكل مواطن ، العالم كالجاهل ، وربما السياسي كالمواطن العادي ، يعاني منه ما يعاني ولا يجد سبيلا لتلافي

اذاه . اما اذا اراد ان يعرف كيف حصل هذا التورم ، لماذا ، ما الحل ، من المسؤول ، الخ .. ؟ فالابواب موصدة في وجهه . ومن المفارقات الطريفة ان الذي « يعالج » مشكلات الساعة الكبرى هو الصحف وبأقلام غير متخصصة ؛ ولهذا ينكفىء الكاتب على احكام القيم يرسلها جزافا تساعده في ذلك لغتنا التي حولتها قرون الانحسار الى خطابية بعد ان كانت شعرية .

اولا تقوم الديمقراطية في أولياتها الاولى على أن يشرح العالم للجاهل والمتخصص لابن الشعب امراضه العارضة والمستعصية اولا ليفهم ما هو عليه ومن ثم ليساعده في أدنى الحدود على تحملها ؟ .

ما من شك أن الامة العربية تتقدم باستمرار منذ نهضتها . ولكن يحق لنا ان نتساءل ما اذا كان هذا التقدم يحصل بفضل التخطيط والعمل المنهجي ـ اي بفضل المثقف والثقافة ـ ام بفضل ابن الشعب الذي الف العمل الدائب اية كانت الظروف فصار فيه طبيعة تمكنه حتى من الابداع ضمن الحدود المتاحة ؛ هذا اولا ، ومن ثم بفضل المرحلة التاريخية التي تشكل مناخا من التوتر الفعال المتشائم يدفع الى العمل ؟ يحق لنا ان نتساءل ايضا وبالدرجة الاولى ما اذا كان هذا التقدم يمكننا ، حتى في قطاعاته المتسارعة ، من اللحاق بالامم المتقدمة ؟ .

والواقع اننا مانزال على الصعيد الفكري ـ والتكنولوجي طبعا ـ في مرحلة الاقتباس والتقليد . فايديولوجياتنا ومنظوماتنا الفكرية تتبدل بتبدل الافكار السائدة عالميا ، اي في الامم المتقدمة . وبالفعل فالذي يتأمل تطور الفكر العربي في خطوطه العريضة منذ أوائل النهضة (اواسط القرن التاسع عشر) الى أيامنا يلاحظ انه مر بثلاث مراحل هي مراحل فكر الامم المصنعة . فرجالات النهضة تأثروا بفكر الثورة الفرنسية وحاولوا ، كل منهم على طريقته ، تمثله او تقليده أو مناقشته واحيانا التبشير به ، الخ . فنادوا بالدولة الليبرالية الدستورية وبحق القوميات ،

كل منها ، بتقرير مصيرها ، وبعضهم قال بالدولة العلمانية ، الخ . الاانهم حافظوا على استقلالية الفكر العربي وحقه في رسم طريق خاص به .

وبين الثلاثينات ومعركة ستالينغراد (١٩٤٣) استهوت النازية غالبية مفكري العرب ومنظريه وسياسييه بطرقها في تعبئة الجماهير اولا ومن ثم بفكرها فتعددت التنظيمات السياسية ـ الاجتماعية المتمركزة حول زعيم ملهم مطلق الصلاحية . وبدأت تتكون في هذه التنظيمات الفرق المسلحة الهجومية واخذت القومية شكلا متطرفا في التعصب . فلم يسلم من عدوى هذا الداء «الا من عصم ربك» . ولو استمرت النازية ـ لاسمح الله ـ لاحكمت قبضتها على مثقفي العرب وجرتهم في ركابها .

وتبدأ رحلتنا مع الفكر الماركسي في العشرينات على استحياء لتتسارع اتساعا وعمقا ، مع الخمسينات، فتشمل تدريجيا بشكل او باخر الاكثرية من المثقفين ، الاديب منهم والشاعر والمفكر . وتدخل مفرداتها وافكارها مع الزمن برامج الاحزاب كلها ، وتصبح العلامة المميزة للتقدم ؛ فمن لم يكن ماركسيا نسب بالرجعية . وتتعدد في الوقت ذاته خطوطها . ولكنها تراوح بين حدين : القراءة الكلاسيكية والقراءة المستحدثة التي تمازج بين ماركس ، فرويد ، البدوية وتيارات فكرية اخرى . ويبدو لي انا مانزال في بداية رحلتنا معها رغم هذا التاريخ الطويل نسبيا . وكذلك الثورة العربية التي بدأت عام ١٩١٦ وحتى اليوم تراوح بين الصعود والهبوط عاجزة عن استكمال شروط وجودها : فالوحدة ، خطوة الى الامام وخطوتان الى الوراء ؛ والحريات العربية معلقة لان العدو ، في مكان عربي ، على الابواب ، وفي اخر صار من اهل البيت .

والمفارقة في المراحل الثلاث هي أن المثقفين قدموا دوما افكارهم على انها منبثقة من صميم الشعب وتعبر عن حاجاته ورغباته وتطلعاته .

على اية حال فقد تركت المراحل الثلاث بعضا من بصماتها على فكرنا ؛ فنحن عمليا حائرون ، وعلى سبيل المثال ، بين الدولة الليبرالية

الدستورية وبين الدولة الاشتراكية القائمةعلى التخطيط المركزيالدقيق، بين القومية الشوفينية والاممية ، بين الوحدة والدولة القطرية التي تقدم ذاتها على أنها النموذج الذي يجب ان يحتذى لتتوحد الامة وتتقدم وهكذا . . ومع ذلك فبين انظمة الحكم العربية قواسم مشتركة كثيرة اظن اني ذكرت اهمها ، ومنها عدم ثقة الحاكم بالشعب ، المناداة بالوحدة والاكتفاء على الحدود القطرية ، الخ . .

حائرون ؟ اجل لاننا لا نعرف من نحن فنحدد ــ ولو بشكل تقريبي ــ ماتريد ونخطط لتحقيقه على مراحل . فكل حزب يقدم لك في برنامجه ، بشكل مباشر او غير مباشر ، صورة عن الواقع العربي يقرر انها الاصدق . ويفاجئه الواقع بشيء اخر واحيانا بعكس ماتوقع فلا يتراجع بل يصر على ما كتب . ذلك ان المثقف العربي يقرأ الكتب لا الواقع ، ويرى ماتريه اياه مصادره لا ماتريهاياه عيناه . ولهذا سرعان ما يعمم ويرضى قانعا بتعميماته . ان الواقع العربي في واقعيته المرة زاخر بالطاقات الانسانية والطبيعية الجاهزة للعمل ولكنه مشبع في الوقت ذاته بالتناقضات من كافة الانواع وعلى كافة المستويات . ونحن لاهون بلعبة التناقضات العبثية هذه نهدر فيها طاقاتنا جزافا فلا يفيد منها الا الاجنبي .

في الخمسينات وبعدها جند المثقفون كل قواهم ووسائلهم ــ وهي كثيرة ــ للقضاء على البورجوازية والاقطاعية . ولم يكونوا مخطئين . فالجشع والاستغلال ، واذا اقتضى الامر التواطؤ مع الاجنبيمنالسمات المميزة للطبقتين . كما انهم صارعوا ــ ومايزالون ــ وبكل طاقاتهم ، القبلية والطائفية والاسروية وحاولوا اجتثاثها من جذورها . وحققوا نجاحا يذكر . ففي بعض الاقطار ازاحوا الطبقتين المذكورتين كل منهما عن مواقعها وبمعنى ما اجهزوا عليهما . كما انهم حاولوا تجديدالبنى والعلائق والقيم الاجتماعية كلها ، ليحل الحديث محل القديم وبنسخة .

ولكن من المؤسف انهم خاضوا هذه المعارك ــ البطولية احيانا ــ قبل ان يكونوا لانفسهم فكرة واضحة ــ ولو بوضوح تقريبي ــ عن الطبقات

والعقليات التي سيحاربونها وايضا عن تلك التي سيتحالفون معهـا . فالطبقة لاتوجدفي المطلق ولايمكن ان تحدد مرة ولكل مرة ولان تصنف قبليا فلا تتبدل . صحيح ان هناك سمات عامة مشتركة تمكننا من تعيين المواصفات العامة لطبقة ما وتمييزها عن غيرها ، ولكن السمات هذه ، ايضا ، غير موجودة بذاتها ولذاتها . وهذا شان كافة المفاهيم ، لا تعرف الا على ضوء الواقع الذي منه استخلصت وتحقق ــ او يمكن أن تتحقق ــ فيه . فبالبورجوازية العربية بورجوازيات . وبالفعل ففي كل قطر لها تاريخها ومواصفاتها ، وجهة نظرها في المشكلات الاجتماعية ودرجة ترسخها فيه او تأثيرها في بناه وعلائقه وقيمه . والاقطاعية بعد أكثر تنوعا واطول باعا لانها اقدم تاريخا . وعلى اية حال فاننا لانفيد مما كتب عن البورجوازية في الامم المتقدمة لفهم بورجوازياتنا الا ضمن حدود ضيقة . فتلك احتضنت ثورتين عليمتين (الصناعية والعلمية ــ التقنية) هما اخطر ثورات العلم نتائجا فراكمت رؤوس الاموال وصنعت ، طورت ذاتها بحيث حللت ازماتها الداخلية مرارا وامتصت اكثر من ثورةعمالية ، جددت بناها وعلائقها وقيمها اكثر من مرة ، عمرت ، حاربت ، فتحت . ويبدو أن شوطها لما ينته بعد . اما البورجوازية العربية فنشأت في ظل الاستعمار وبعقلية ماقبل العصر الصناعي ؛ فلم تجد امامها سبيلا للانتشار وتحقيق الربح السريع سوى السمسرة وتجارة الترانزيت . وتفاجئها اليقظة الشعبية فتزيحها بيسر عن مواقعها . الا ان العربي ــ بالمقابل ــ مفطور على التجارة . فعندما توارث البورجوازية ــ حيث توارث ــ بشخص كبار مثليها تقمصت اساليبها وعقليتها واهدافها محدودة المدى الفئات الاجتماعية الاخرى ، طبقات وقيادات .

والاهم هو ان تعرف الطبقة او الطبقات المستقبلية والمناهضة بالتالي للبورجوازية والاقطاعية لانها هي ــ لا نحن المثقفين ــ المعدة لتحل محلها فتجتث العقلية الرجعية من جذورها .

ان المعرفة ليست «ترفا» حتى تصبح الثورة ملحة . فالثورة الكبرى التي قلبت وجه التاريخ اعدها مفكرون من طبقة رفيعة . ثم فمن البديهي ان على الذي يخوض معركة ان يروز ، بما استطاع من الدقـة ، القوى التي هـ يمعه والتي هي عليه . فالفقير بوصفه كذلك عاجز عن مقاومـة الغني بما هو غني . اما العمال في منشأة صناعية كبرى فبوسعهم الانتصار على رب العمل ـ او على الاقل الحد من تسلطه ـ اذا كتلوا جهودهم وعرفوا الظرف المناسب فاغتنموه ليخوضوا المعركة .

هذه امور بديهية يمليها الحس السليم .

ومع ذلك فقد اعتبرنا باستمرار ، نحن المثقفين العرب ، في كتاباتنا وفي ممارساتنا ان العامل والفقير ، الشعب والجمهور ، الكادح والفلاح ، الخ ، مفاهيم مترادفة تشير الى طبقة واحدة وتوجهنا ـ وتوجه معنا السياسي ـ الى هذه الكتل البشرية التي تكاد تكون سديمية بما هـي كذلك . كان هذا التوجه جائزا في مرحلة الاستعمار حيث كان على كافة فئات الشعب وطبقاته ان تتحد لتتحرر فنصبح اسياد انفسنا . وكان ايضا جائزا لحد ما في مرحلة الحكم الرجعي لازاحته عن مواقعه وابداله بحكم تقدمي . هذا بشكل عام ؛ اما مدى فاعلية هذا التوجه فيجب ان ندرس في كل حالة على حدة . ولكن عندما بدأ دور البناء القومي ، عندما باشرنا مرحلة اعادة تكوين الانسـان العربي في قطر من الاقطار ، انفرط عقد هذا « التجمع » القائم ، وبدأ الحكم الشعبي يتعثر . وسـوف يبقى زمنا طويلا مقصرا عن شعاراته وعرضة احيانا للهزات العنيفة . اذ ان ما اسميناه « الطبقات الشعبية » ليس طبقة . فمثلا الامي او شبـه الامي الذي يتحول بين عشية وضحاها من فلاح الى عامل لا يستطيع ان ينهض بعملية التحويل الاشـتراكي .

ولهذا ففي كثير من الحالات كان التبدل جزئيا واحيانا في الكلمات . فقد عاد المتنفذ المحلي ولكن بأشكال غير السـابقة ومعه ما يشبه العلائق

الاقطاعية (التسلط) والبورجوازية (السمسرة) . وبلغ التفاوت الاجتماعي في الثورات احيانا درجة لم يبلغها في العهود السابقة .

لا يمكنني ان اضع مسؤولية هذه الانحرافات وغيرها على ضعف العقل التحليلي العربي وحده وان كان هذا الضعف قد ادرى الى كتابات نظرية غائمة هي اقرب الى ايديولوجيات مرحلة الثورة الصناعية لدى الامم المتقدمة منها الى واقع الوطن العربي ؛ فالمرحلة التاريخية متعددة العوامل والابعاد والاوجه ، ولا يمكن ان تشرح بواحد من شروطـوجودها. وانما شددت على الوجه الثقافي للمشكلة لانه موضوعنا ، وعلي الان ان استخلص نقطة الضعف الاساسية في كتابات الغالبية من مفكرينا . وتلخص في انهم اعتبروا الطبقة ـ ضمنا ـ كما اعتبروا الامة وبقية الموجودات الاجتماعية ـ الانسانية بمثابة « جوهر » ، والجوهر في لغة الفلاسفة كيان مستمر تتعاقب عليه الاعراض وتتبدل ويبقى هو هو . الا ان الموجود الانساني ليس كذلك في نظر العلوم الانسانية اليوم بل هو مركز لتقاطع العديد من العلائق ، أو هو ، اذا شئت أيضا ، مجمع علائق. فالعامل مثلا عامل بالقياس الى رب العمل ، الى المشروع الذي يعمل فيه ، الى نوع اختصاصه (اولا ـ اختصاصه) ، الى الدولة وخطتها ، الى النقابة التي ينتسب اليها ، الى درجة ثقافته ، الخ . وكذلك البورجوازي والفلاح والحرفي ، الخ ...

لنلاحظ على سبيل المثال ايضا ان البورجوازية الصغيرة خلعت طابعها العام على العديد من المدن العربية (وربما على كافة مدننا) حيث الحرفيون بالمئات والمتاجر الصغيرة بعدد اكبر . واقصد بالطابع العام العادات والتقاليد ، نمط الدخول في علاقة مع الاخر ، الخ . وتتميز هذه الطبقة ـ هجينة التركيب بالمناسبة ـ بضيق الافق والخوف من الجديد ، تجنب المغامرة ، والحرص الشديد على تخزين المال ، الخ .. ولكنها تحولت في كتابات عدد كبير من المثقفين ـ يوم اكتشفوها ودهشوا لاعتقادهم ان كشفهم يضاهي الكشف عن امريكا ـ تحولت الى مبدا

ميتافيزيقي يشرح السياسة والشعر ، الفن والاخلاق والادب وكل ما نريـد .

والذي فاتنا كلنا ، نحن المثقفين العرب ، هو الحقيقة الهامة التالية وهي أن في خلفية الطبقات والفئات وكافة التنظيمات الاجتماعية ، القديم منها والمستحدث ، في اعماق كل انسان عربي ، بقايا العقلية القبلية الموروثة عن الجاهلية (وربما عما قبلها) هي والخلق اللازم لها . وهـي تطبع بطابعها البورجوازيات الكبيرة والصغيرة والاقطاعيات ، وتنفذ ، لا شعوريا ، الى صميم التنظيمات المستحدثة وتفرض عليها ، شئنا ام أبينا ، بعضا ـ واحيانا الكثير ـ من علائقها ، اخلاقيتها ونظرتها الـى الاشياء فتحرفها ، دون أن تدري ، عن الطريق المرسومة لها . ولها بدائل عديدة منها الاسروية والطائفية والزعامات المحلية ، الخ . وسوف تستمر لزمن طويل اذا لم نعرف كيف نستأصلها بتربية تستخدم كل وسائـل التربية التي اشرت الى بعض منها .

اقول بشكل ادق واعمـق :

ان ما يميز العربي ، فردا وجماعة ، عن غيره من ابناء الامم الاخرى ، هو الحضور الكثيف لماضيه بكل مسافاته وعقده وتعقيداته في حاضره ، فكأن كل تاريخه يعود بسرعة خاطفة الى ساحة وعيه ، رغما عنه ، عند كل حدث أساسي من احداث وجودنا .

وفي هذا الحضور عظمة العربي وبؤسه .

عظمته لان ماضينا هو الذي ضمن لنا الاستمرار في الوجود فالنهضة فمصارعة الاستعمار ومـن ثم الدخـول في حوار شاق مـع الحضارة الحديثة .. وبالفعل فان الذي يتأمل ، بحد ادنى من الحياد ، في الحركات الثورية التي توالت على اقطار هذا الوطن منذ بداية النهضة الى ايامنا ويعلق محفوظاته من النظريات والفلسفة ، يلاحظ بدون ادنى ريب ، أن التاريخ هو القوة الاولى التي استدعت هذه الحركات وغذتها بالطاقات

الحية ، وجعلتها تنجح حيث نجحت وبنسبة نجاحها ، تلي بقية العوامل ومنها الصراع الطبقي وغيره .

* * *

بؤسه ؟ اجل لان سيطرة التاريخ تربط الانسان بالماضي فتعطل رؤيته للمستقبل ، تجعله عاجزا عن انشاء ما اسمه « فاصل التحرر » اقصد الفاصل الذي يمكنه من السيطرة على واقعه : حاضرا وما ماضيا ومستقبلا .

من المسئول عن هذا القصور الثقافي الذي هو جوهر التخلف ؟سؤال كبير ليست الاجابة عنه بالامر الهين . ليس المثقف وحده بدون شك، فهو موظف ، كما قلت ، وقد تكون مسئولية الذي وظفه اكبر مبدئيا لانه يشرف عليه ويوجهه . ومن ثم فان الحاكم ، وان كان احيانا من فئة المثقفين ، لايقيم كبيروزن للثقافة (الا اللهم في البيانات الرسمية) لان نتائجها ليست دوما مضمونة ، ولا تظهر الا على المدى البعيد ، وهو واقع تحت ضغط الاحداث المتسارعة التي تتطلب منه رد فعل آني يتحمل وحده مسئوليته .

ومن وجه آخر فان الامم المتخلفة تشعر ان قصورها علمي ــ تكنولوجي (ــ هذا صحيح لحد ما ــ) فهي تؤثر الالة على الانسان لان هذا متوافر عندنا بكثرة ، وثمنه ابخس الاثما ، في حين ان الآلة الدقيقة ماتزال قليلة وثمنها مرتفع . كما تؤثر المتخصص في العلوم ، خصوصا المتقدمة جدا، على الشاعر والكاتب والفنان ، لان هؤلاء لا يحتاجون الى اعداد طويل في نظرها وهم ايضا بعدد كبير ،(وتؤثره) ايضا على الفيلسوف والمتخصصين في العلوم الانسانية لانها لاترى في هؤلاء سوى مدرسين لتخريج حاملي شهادات فائدتها العملية قليلة . الا انها تنسى هذه الحقيقة الهامة جدا وهي ان القصور الذي تتحسس منه هو وجه من اوجه قصور آخر اوسع منه بكثير واخطر شأنا ، هو القصور الانساني . فالآلة ــ اية كانت ــ وسيلة ، قيمتها بالذي يستخدمها والذي جعلت من اجله ،

قيمتها بالدرجة الاولى بالذي يبدعها او يسهم في ابداعها وتطويرها لانه وحده يتصرف بها كما يشاء . والاختصاصي ــ أية كانت درجة اختصاصه . لا قيمة له الا بالمجتمع الذي ينظم ذاته بشكل يستطيع معه أن يضع كل انسان في مكانه بالاستناد الى معايير موضوعية في رأسها الموهبة ، ارادة العمل ، الاخلاص له ، الخ . . وهذا المجتمع يكونه المربي والكاتب والاعلامي وبقية من ذكرت بعضا من أهمهم . وهؤلاء جلهم من فئة الموظفين العاديين ، أي الذين يقضون حياتهم في القيام بمهام روتينية . ولاأعرف ، في حدود ما أعرف ، الا مركزا واحدا للبحوث الانسانية في هذا الوطن الواسع والغني بثرواته الطبيعية والانسانية ،وهو مركز محدود الفعالية . وكليات اللغات والعلوم الانسانية (بالمعنى الواسع للكلمة) غالبا ما تكون مهملة ، يحشر فيها الطلاب الذين حصلوا على ادنى العلامات ، مما يضعهم في مرتبة ، اجتماعيا دنيا في نظرهم ونظر اساتذتهم والمجتمع . والمفارقة هي أن هذه الكليات المدعوة خطأ ــ واحيانا احتقارا نظرية هي التي ينهض خريجوها بمهمة تكوين الانسان العربي ، لاالمتخصصون في التقنيات والعلوم الدقيقة ، كما اشرت الى ذلك .

ومن الاسباب الموضوعية للقصور الانساني اللغة . فهي ماتزال بحاجة الى ترويض بالتأليف والترجمة والاقتباس ، ممتد على سنوات كي تصبح لغة تحليلية في عصر صار فيه التحليل،المعمن في الدقةالرياضية، الطابع المميز للغات العالم المتقدم . ربما بالمناسبة أن احد دواعي ظهور شعر الحداثة ــ وتعثره ــ لدى بعض الامم المتقدمة هو ارادة الكشف عن الجوهر الاصيل للغة الذي هو « الشعر » في لغات فقدت كل شاعرية . ولسوف نأسف كثيرا ، نحن العرب ، متى صارت لغتنا حقا تحليلية على الشاعرية التي ما تزال طابعها المميز . الا ان ثمن التحديث ليس بالبخس .

اقول بنتيجة ماتقدم أن المثقف صار هامشيا في الوطن العربي ، سواء كان هو المسئول عن هذه الهامشية أم الحاكم أم الظرف التاريخي المستقل عن ارادتنا ، أم كل هذه الاسباب ؟ .

كلا . فالمثقفون يتكاثرون وتتكون تدريجيا بحكم الاصطفاء الطبيعي نواة سويتها مرتفعة . وهم يشكلون ــ اقله بعددهم المرتفع ــ قوة لا يمكن للحاكم ان يستهين بهابسبب تأثير المثقفالمتزايد في الجماعة العربية. وعلى اية حال فان هذا الحاكم بحاجة اليهم في قطاعات هي من المستلزمات الاولية للدولة اليوم ، ايا كان نظامها ، وايا كان جهل حكامها ، اقصد التعليم بكافة درجاته والاعلام والايديولوجيا والبيروقراطية ، وايضا التأليف الفكري والادبي والترجمة والفن التشكيلي والموسيقي . وبوسع المثقفين ــ اقله بعطالتهم ــ ان يشلوا حركة الدولة . الذي يعوزهم في اغلب الحالات هو وعي خطورة دورهم والثقة بانفسهم ، او اذا شئت ، تجاوز عقدةالنقص التي تجعلهم يضعون انفسهمفي مرتبة دنيا بالقياس الى الحاكم او الى المتخصص في العلوم والتقنيات ايا كان اختصاصه .

وفي اعتقادي ان المثقفين يشكلون في المجتمع المتخلف طبقة او في ادنى الحدود بداية طبقة ، اقصد قوة اساسية من جملة القوى التي تحرك المجتمع او تعطل حركته عند الاقتضاء . ولافراد هذه الطبقة مصالحهم ووجودهم . وقد بداوا يتكتلون ، كل فئة منهم في منظمتها ، لتأكيد وجودهم ، وللدفاع عن مصالحهم .

الا انهم معرضون لخطر كبير ، هم والقيادات السياسية التي اخذت تنبثق في بعض الاقطار العربية من صفوفهم . وبالفعل فان المثقفين (دوما بالمعنى الواسع) يشكلون هم والسياسيون لدى الامم المتخلفة ، حلقة الانتقال من القديم الاقدام الى الحديث الاحدث . او هم، اذا شئت، الشطر المتقدم من الشعب في اتجاه الحداثة . فاذا لم يكونوا كلهم او بعضهم ، بمقياس المهمة الملقاة على عاتقهم ، اذا لم يجهدوا كي يكونوا بمقياسها ، وهي ضمان انتقال العربي بوصفه عربيا ، من الحضارة القبلية الى الحضارة المبرمجة ــ التكنولوجية ، او من الماضي الى المستقبل ، فقدوا ــ ايضا ــ كلهم او بعضهم ــ مناعتهم ، شأنهم شأن جسد الولد في مرحلة النمو السريع ، يصير قابلا لتلقي كافة الجراثيم وانباتها ، اذا

كانت العناية به غير كافية ، وأيضا شأن المراهق الذي لايسهر اهله ومدرسوه على تربيته ، فهو يتعرض لعدوى كافة الامراض الاجتماعية والنفسية . ولقد اشرت الى أثنين من هذه الامراض وأرى أن اشدد مرة أخرى عليهما لنتبين بما أمكن من الوضوح خطر كل منهما : الاول مرض التبرجز الذي يفصل المثقف عن الطبقات الدنيا التي غالبا ما ينبثق منها. بهذا يتكون تعارض خامس يضاف الى التعارضات الاربعة التي ذكرت، هو التعارض بين المثقف والشعب .

المرض الثاني يفوق خطره أي خطر آخر ، هو المجتمع الاستهلاكي الذي جررناه بأيدينا الى داخل الدار ، كما جر اهل طروادة الى قلب مدينتهم الحصان التي دمرها . فقد انتقلت عدواه من الطبقة الثرية الى القيادات السياسية والثقافية . واليوم تنتقل من المدن الى الارياف ومن القيادات الى الشعب . وقد بدأت تظهر نتائج هذا الداء الذي لا دواء له ، مع أننا مانزال في بداية الطريق .

اما نتيجته القصوى اذا تملك الجسد الاجتماعي ــ لا سمح الله ــ فهي كنتيجة أية جرثومة سرطانية تتملك الجسد العضوي ، أقصد الانحلال .

الثقة بالشعب ... الثقة بالانسان

هل قدمت عن الوضع العربي في نهاية هذا القرن صورة قاتمة؟ ربما. ومع ذلك اضيف ان الواقع في اعتقادي بعد أمر من القول . ولكن اذا لم تكن لنا ، نحن الذين ندعي أننا مثقفون ، القدرة على الرؤية والجرأة على القول ، فقد فقدنا المسوغ لوجودنا وفقدت الثقافة قيمتها . والصراحة أجدى لنا وللامة من أن نغطي الواقع بالشعارات الفضفاضة ثم نسير بالطرق الملتوية المألوفة ، كل منا الى مصلحته الخاصة يضمنها كيفما اتفق . هذا الازواج في الموقف يتحول مع الزمن الى ازدواج في الشخصية

هو بمثابة تعارض سادس يضاف الى التعارضات الخمسة السالف ذكرها . وله نتائج خطيرة على العمل العام اذ ان ابن الشعب يكتشفه غريزيا بسرعة ويتبناه ويقلده وتدريجيا يفقد ثقته بالقيادات كلها .

ان الرؤية الواضحة هي بداية المعرفة . والمعرفة المستندة الى التحليل ـ النقد بداية الخلاص .

الا ان طريق الخلاص هو الاطول والاصعب سلوكا ولا يشقه الا الشعب الذي مايزال محتفظا برصيد كبير من روح التضحية التي ورثناها عن أجدادنا . وهو مستعد دوما لتوظيف هذا الرصيد ، ولكن اذا حققت القيادة شرطين : الصراحة والاخلاص . وتلك بداية الديمقراطية : ان يقول القائد الحقيقة هي كما هي والا يخون هذه الحقيقة فيسلك بخلاف ما تقتضيه .

ومن ثم فان عمرنا في الاستقلال قصير . انه لايزيد عن نصف قرن لدى الاقطار الاسبق الى التحرر ، ولما يبلغ بعد ربع القرن في الاقطار التي تأخر تحررها . وهذه فسحة زمنية لاتكفي للحاق بالحضارة الحديثة وقد ناهز عمرها قرونا ستة ، وفي رأي بعضهم تسعة . ان اعادة تكوين الانسان لاترتجل . فالعلم يمكنك اليوم من الحصول على منتجات الطبيعة في اسابيع ، وربما في ايام . أما النضج الثقافي فيحتاج اليوم الى المدة التي كان يحتاجها بالامس القريب والبعيد وسيحتاجها في الغد الابعد . ان الجاهل وحده يصيبه غرور الثقافة لاعتقاده انه حصل عليها كلها . اما الفيلسوف والعالم والشاعر والكاتب والفنان فيشعر في نهاية عمر قضاه في « التعلم » انه مايزال في بداية الطريق .

والاهم هو الا نيأس من الشعب . فهذه جريمة بحق الانسان . ولا يوجد مبدئيا انسان ، لايوجد شعب ميئوس منه . واذا حصل شيء من ذلك ، اذا تأخر نمو شعب ، فان مسئوليته تقع على عاتق القيادة اية كانت .

ومن المؤسف ان المثقف العربي ، ايا كان موقعه في القيادات ، العليا منها والدنيا ، يميل بغريزته الى وضع الشعب (الذي انبثق ، هو ، منه كما قلت) تحت الوصاية . والسياسي بدوره لايثق بالمثقف ، بل يحرمه من المبادهة ويطلب منه ، ضمنا وصراحة ، ان يمشي في ركابه . هذا مع العلم ان السياسي اليوم ، وعلى الخصوص في الامم المتخلفة ، الصق فئات الشعب بالمثقف . وبالفعل فاذا لم يكن بالاساس من فئة المثقفين كما قلت ، فقد اخذ عنهم الايديولوجيا التي استند اليها ليصل الى الحكم ، وهو دوما بحاجة اليهم كي يفسروا هذه الايديدلوجيات بما يتفق ووضعه ومرحلته .

لقد رددت اكثر من مرة في هذا البحث ان الازمة ليست ازمة ديمقراطية . فانظمة الحكم ، ديمقراطية كانت ام مركزية ام استبدادية ، نتيجة تصبح بدورها ، ككل نتيجة اخرى ، سببا يوقع الحكم المستبد في دور فاسد (او حلقة مفرغة) كما تقول المناطقة ، اقصد العنف والعنف المقابل . والايديولوجيا ، اية كانت درجة تقدميتها وديمقراطيتها ، يمكن ان تفسر تفسيرا رجعيا وغير ديمقراطي . وانما الازمة هي ، كما قلت ايضا،ازمة تكوين شعب .والشعب هو الذي يصنع التقدم والديمقراطية، واضيف الان انها ازمة ثقة بالشعب ... بالانسان ، اي حيث يبدأ العمل التربوي التكويني .

فعلى كل منا ، ايا كان موقعه ، سياسيا كان ام مثقفا ، ان يتحمل مسئوليته .

لاتقل ان الحاكم يمنعني من ان اقول ما اعرف ، او ان اعرف مايجب ان اعرف . فبعض الحقائق تؤذي حتى عند اكثر الامم استقرارا ورخاء وديمقراطية . وبالمقابل فان الثقافات الثورية نشأ معظمها في عصور الاستبداد . والحركات الثورية قامت كلها لمناهضة طغيان ما . وموهبة الكلام لاتقوم على ان تقول وحسب ، بل على ان تعرف ماتقول ولمن تقول في الظرف المناسب . وكذلك العمل ثوريا كان أم عاديا .

المناسب . وكذلك العمل ثوريا كان ام عاديا .

ان الخطر على المثقف ، غالبا ، لا يأتي من الحاكم ذاته ، بـل مـن مصدرين هما في الحقيقة اغراءات ، كثيرا مايستهوي بهما الحاكم المثقف في الامم المتخلفة لينصاع له :

اغراء السلطة ، اقصد الاستمتاج بدرجة ما من التسلط .

اغراء الترف ، ومتعته هي أيضا ضرب من ضروب التسلط .

واذ يقع الانسان في هذا الشرك يضع ذاته في موضع « المتلقي » فيستسهل الشروط ايا كانت ، شأنه شأن المراة التي تستسلم لجسدها فهي تستهين بالشرف وبقية القيم . ان اشد انظمة الحكم مركزية في بداياته من صنع مثقفين .

اقول ملخصا :

ان معركتنا الثقافية كمعركتنا السياسية : معركة صمود ويربح المعركة من يصمد على أرضها .

ومعركة المثقف ، رهان الثقافة : الشعب ، ان يوجد فعلا فتوجد معه الحرية او يتلاشيان معا .

المؤتمر العام الثالث عشر
للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب • عدن - صنعاء
نوفمبر ١٩٨١

الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطورها في مواجهة أشكال الغزو الثقافي

د. حسام الخطيب
(سورية)

تمهيـــد :

بكثير من الجد ، بكثير من القلق ، بكثير من التهيب ، أقدم على معالجة مثل هذا الموضوع الكبير الواسع المتشعب الذي يصعب التقاط مادته الهلامية بملاقط البحث الاحترافية المألوفة .

ولم يكن من الصعوبة بمكان ان أقسم البحث الى عدة أقسام بما لدي من مواد متوافرة من الاحصاءات والوقائع والمحاولات من الادانات للعدو الامبريالي الصهيوني ــ حول أشكال الغزو الثقافي ومداه ومآربه ، وحول تدابير الصهيونية في الأرض الحبيبة المحتلة لطمس الثقافة الفلسطينية وسرقة التراث الشعبي والفني الفلسطيني ، واخماد الكلمة المناضلة وخنقها اما بالابعاد واما بالسجن واما بالمصادرة واما بالتهديد والوعيد .

ان هذه المواد ومثيلاتها متوافرة في المراجع العديدة التي نشرتها منظمة التحرير الفلسطينية ، والمؤسسات العربية المختلفة المعنية للدفاع عن الثقافة العربية ، والافراد الغيورون ، وشهود العيان في المنطقة العربية . واذا اعوز المرء شهادات اضافية أو معلومات موثوقة فله في المنظمات العالمية مثل اليونسكو وجمعيات حقوق الانسان مظنة تفي بالغرض وتزيد .

واذن ليس هذا البحث معنيا بالوقائع والمعلومات لذاتها ، أو لغرض توثيقها ، وانما هو محاولة لوضع المشكلة الثقافية على الشاشة الفكرية مكشوفة عارية بقدر ما تسمح قوانين الرقابة السينمائية في البلاد العربية وبقدر ما يسمح التحريم (التابو) الاجتماعي ، اللهم لا خوفا من ذلك ولا فرقا ولا تهيبا ، ولكن رغبة في أن يجد الكلام الذي يقال هنا فرصة للتنفس ، وتأشيرة دخول (فيزا) الى العدد الاكبر من اقطار الوطن الحبيب التي يكاد يصبح من الضروري في معظمها ان (نقطع) للكلمة هوية تضمن (شرعية) الحركة الداخلية وجواز سفر يضمن (الاذن) بالتجوال خارج الحدود .

وسنحاول مع القارىء ألا تكون هذه (التقية) ذريعة لاخفاء أي من الحقائق والاوضاع التي نظن أن جذور العلة الثقافية تضرب فيها أو تمسها أو تمت اليها بصلة كبيرة او صغيرة . فانا احس القارىء ببعض التواء في العبارة هنا وهناك فليعرف ــ وما نحسبه الا قد اعتاد على ذلك ــ أن الوعورة الناجمة عن التوقل(١) في نتوء بارز أو ارتفاع حاد

---

(١) لست من عبدة المعجم ، ولكن لفت نظري من زمن فعل لطيف في العربية اظن أننا بحاجة لاستعماله وهو (استنادا الى القاموس المحيط) : وقل في الجبل يقل وتوقل : صعّد ومنه : الوقل بفتح القاف : الكرب الذي لم يستقصى فبقيت أصوله بارزة في الجذع فامكن المرتقي أن يرتقي فيها ، ومنه فرس توقلة : حسن الصعود في الجبل اذا امكن ان نستخدم هذه الصفة لوصف الرجل فنقول : رجل توقله أصبح لدينا مرادف جيد لكلمة Alpiniste الفرنسية .

استدعت الحذر والالتفاف بدلا مـن استعمال كلاليب متسلقي جبـال الالب التي لا تجدي فتيلا ازاء صلابة الصخور الجاثمة على الربوع غير الثلجية .

الثقافة العربية الراهنة واشكال المعاناة :

الثقافة العربية اليوم محاصرة ، ما في ذلك شك . والاخطار التي تتعرض لها متنوعة ومتعددة الاشكال والوسائل . ويخطىء من يظن أن المسألة تتعلق فقط بما يسمى (التطبيع الثقافي) بين النظام المصـري والعدو الصهيوني .

ان مشكلة الثقافة العربية موجودة قبل التطبيع ، ووجود هـذه المشكلة هو الذي زاد من خطر التطبيع ، الثقافي بل جعل التطبيع ــ ولو في مقاييسه الراهنـة المحدودة ــ ممكنـا(١) ولهـذه المشكلة الثقافيـة ــ التي يجمع كل من بحث في الثقافة على جدية خطورتها ــ وجهان :

وجه طبيعي تاريخي ، ناجم عن طبيعـة مرحلة التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي تخوضه الامـة العربية بأقطارها الاثنين والعشرين حتى الآن .

وجه مصطنع قصدي ، ناجم عن وجود مؤامرة استعمارية صهيونية هادفة الى تمزيق الثقافة العربية واحلال ثقافات اقليمية محلها تجـد مثلها الاعلى ولونها الخاص في منابع الثقافة الغربية .

وهذان الوجهان للمشكلة ليسا منفصلين ، ويصعب البحث في كل وجه منهما على حدة لانهما متكاملان بمعنى أن الوضع التاريخي الحالي

(١) ساعود الى معالجة هذه النقطة عند الكلام عن التطبيع فيما بعد .

للامة العربية هو حصيلة عوامل دخلت من ضمنها العلاقة الاستعمارية القديمة بأبعادها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية من جهة، ومن جهة اخرى يجد التخطيط للغزو الحالي المضاد للثقافة العربية فرصته المواتية من خلال ثغرات النمو التي تعاني منها المرحلة الراهنة للثقافة العربية .

يضاف الى ذلك ان المشكلة الثقافية في اية بقعة من بقاع عالمنا المعاصر تضرب جذورها عميقة في المناخ العالمي للثقافة وكذلك في المناخ الاقليمي العام بحيث يصعب تحديد ما هو مصطنع من المشكلات وما هو ناجم عن طبيعة مرحلة التطور . ونظرا لما يبدو من وجود مخاطر علمية وعملية كبيرة في مثل هذا المنحى من البحث فربما كان من الافضل التوافر على رسم خارطة التحديات التي تواجه الثقافة العربية اليوم ومعالجة كل نوع من التحدي بطبيعته وخصوصيته مع محاولة مستمرة للاشارة الى ما يمكن ان يكون طبيعيا في المشكلة اومصطنعا اي ناجما عن تدبير قصدي خارجي .

ومن فضول القول أن يجري التأكيد هنا على أن جزءا كبيرا من هذه المشكلات سبقت معالجته على يد مفكرين عرب كثيرين ، وأن حصيلة هذه المعالجات ستكون مستندا للمعالجة الحالية(١) .

على اي حال سيجري بحث مشكلة الثقافة العربية في مواجهة الغزو المضاد من خلال المفاصل التالية من المعاناة :

١ ــ معاناة تحقيق التوازن بين الهوية وبين المعاصرة .

٢ ــ معاناة التوفيق بين المستوى النوعي وبين الاتصال الجماهيري.

---

(١) أعتقد أنه من امراض التفكير العربي اليوم ما سميته في بعض كتاباتي (ظاهرة الغاء الاخرين) ، ي البدء دائما من نقطة الصفر والافتراض ان كل ما يكتبه اي انسان هو فجر جديد وفتح من الله لم يسبق اليه انسان .

معاناة تحقيق التجاوب بين اللون القطري واللون القومي العربي .

٤ ــ معاناة المواجهة الفعالة للغزو الثقافي المباشر . (لبنان ، مصر ، فلسطين) .

٥ ــ وسيجري في الختام تصور عام لأسس المواجهة الثقافية .

١ ــ معاناة تحقيق التوازن بين الهوية وبين المعاصرة :

ربما اكثر من اية منطقة اخرى في العالم تدور في المنطقة العربية مناقشات وبشكل يومي حول الهوية الثقافية او الـ (نحن الثقافي) . نحن نريد ان نكون انفسنا ونحن نعتدّ اعتدادا كبيرا بحضارتنا وثقافتنا الموروثة . ونحن سليلو امجاد ثقافية كبرى . نحن مركز الاشعاع الثقافي الانساني في العصور الوسطى . نحن الذين نقلنا الحضارة الى اوربا ونحن اساتذتها . نحن الذين نتكلم اللغة العربية المقدسة الجميلة الغنية بمفرداتها وأساليب تعبيرها وقدرتها على التوالد والاشتقاق . نحن الذين احتفظنا دائما في مجتمعنا للشاعر والمثقف وللعالم بأرفع مكانة ونحن الذين طلبنا العلم ولو في الصين ، ونحن الذين قررنا في موروثنا التاريخي ان العالم يؤتى اليه ولا يأتي (الى الحاكم) وهكذا وهكذا .

ان لدى العربي من الاسباب ما يجعله يشعر بالاعتداد الثقافي الكامل وبالتالي الى الاعتقاد ان العظمة الثقافية التاريخية تمد استطالاتها بشكل طبيعي الى الحاضر والى المستقبل ومقابل ذلك يجد العربي المعاصر نفسه في معضلة ، فلكي يؤكد هويته وعظمتها الثقافية عليه ان يرتد الى الماضي ويحيي روائعه وقيمه ويلبس لبوسه لان الحاضر لم يسعفه بعد بما يطمئنه الى الهوية الخاصة . ولكن العربي في الوقت نفسه يجد أمامه سيلا من الافكار واساليب التعبير والتقنيات الفنية والتجارب المدهشة في مختلف العلوم الانسانية والادب والفنون . وكذلك تواجهه تحديات المتطلبات الثقافية لمجتمع نامٍ ليس في مقدوره ان يضع الثقافة على

الرفوف وفي الواجهات من اجل الزينة والتباهي ، وانما تتطلب منه طبيعة المرحلة التاريخية أن يقوم بعملية مزدوجة في وقت واحد :

شقها الاول : ان يجد في الثقافة صورة حياته المعاصرة ومعاناته ومشكلاته وعواطفه وآلامه وآماله وتطلعاته .

شقها الثاني : ان يجد في الثقافة سلاحا حياتيا يساعده على فهم نفسه وفهم العالم المعاصر ، واستكمال اسباب وجوده المعنوية بل تحويل تطوره الاقتصادي والاجتماعي الى تطور عقلي فني انساني .

ومن هنا تنبع المعاناة .

ذلك أن المجتمع العربي يسير في تطوره باتجاه التقدم العلمي والتنظيم الاجتماعي على أساس القيم الحتمية للمجتمعات المعاصرة سواء أكانت شرقية أم غربية ، وهذه القيم هي : الاتقان التقني ، وفرة الانتاج ، المغامرة العلمية ، المبادلة العالمية في التقنيات في الانتاج ، الاستهلاك والرخاء ، وما أشبه ذلك من القيم .

وأن هذه القيم ومثيلاتها وعلى اختلاف التسميات ، تفرض طرقها الخاصة في التفكير والتعبير أي تفرض ثقافتها الخاصة .

والمشكلة بالنسبة للعربي المعاصر انه كلما اقترب من الموروث الثقافي شعر بالاطمئنان الى هويته ــ او الى المفهوم السائد عن الهوية ــ ولكنه في الوقت نفسه شعر بالابتعاد عن روح العصر ومشكلاته ومتطلباته . وليس أدلّ على ذلك من الشكوى الرائجة حول انصراف الجيل الجديد عن الثقافة واحتقاره لقيمها . ولقد وجهت هذه التهمة قبل نصف قرن الى الجيل الجديد ، وحين صار الجيل الجديد جيلا قديما او كهلا ازداد اعتداده بنفسه وتفاخر بمنجزاته الثقافية واخذ ينعى على الجيل الجديد انصرافه عن الثقافة (اية ثقافة) ويوجه اليه التهمة القديمة اياها .

ومثلما أدرك ابن قتيبة منذ القديم ان لكل جيل ثقافته وان ما هو خارجية أو خارج عن المألوف في عصره يصبح بعد زمن تقليداً ويصبح ما هو مخالف له خارجية وموضع استهجان(١) ، يمكن ان نتصور ان تهم كل جيل باتجاه الجيل الصاعد ما هي الا تعبير عن تغيّر الثقافة بتغير الاجيال وانتفاء اسقاط ثقافة جيل على ثقافة جيل آخر .

وبالمقابل كلما اقترب الانســان من الاحتياجات الثقافية لمجتمعه المعاصر ازداد شعوره بالابتعاد عن ثقافته القوميــة واتسعت مساحة تعرضه للتأثر بالمؤثرات العالمية بل ازداد اندهاشه بها واقباله عليها ليس لانها اعظم أو أعمق من الثقافة القديمة بل ببساطة لانها تتجاوب مع ايقاع العصر وروحه ابتداء من القصة القصيرة المفعمة بالتوتر وانتهاء بموسيقى « الجيرك » المتفجرة ، وكذلك لانها تبدو طازجة وزخمة وقادرة على الاغواء .

والمسألة بعد ليست بسيطة على نحو ما تبدو في هـذا التحديد المختصر . ذلك انه توجد أمام كل فرد وكل جيل وكل طبقة في المجتمع عشرات الاختيارات الثقافية وفقا للظروف الاجتماعية ومناخ الانفتاح الثقافي . والمهم مع الوقوف بحدة الى جانب الاصالة أو المعاصرة الاعتراف الواقعي بوجود المشكلة وبوجوب ايجاد حـل لها لان اتخـاذ المواقف المتشنجة في هذا المجال لا يوصل اصحابها الى حقوقهم وانمـا يزيد الآخرين حدة في مواقفهم ويعقد المسألة الثقافية ولا سيما بالنسبة للجيل الناشيء . ومن هنا كان البحث الحالي يجب ان يضع هذه المشكلة في عبارة من مثل :

« معاناة إقامة التوازن بين الاصالة والمعاصرة » .

(١) بالطبع ليست هذه كلمات ابن قتيبة حرفيا ، ولكننا نعطيها طابعا معاصرا أو نعصّرها تمشيا مع روح البحث الحالي .

وذلك انطلاقا من التاكيد على أن الميل الشديد باتجاه الهوية أو الاصالة التاريخية يحمل في ذاته خطر الانقطاع عن العالم المعاصر وبالتالي عن امكان تحقق الاصالة ذاتها التي يحارب المحاربون في سبيلها .

وفي الوقت نفسه نجد ان الجنوح الشديد باتجاه المعاصرة والزي الشائع (الموضة) والبدع المتجددة والادهاش يحمل في ذاته خطر انقطاع الانسان أو المجتمع عن تاريخه وعن هويته وبالتالي يجعله معرضا للغزو وبضعف حماسته التمييزية وقد يصل به الى الاندثار .

وفي حالتي التمسك الشديد بطرفي المعادلة لن ينفع الانسان تمسكه لان المسالة ليست مسالة أهواء ، أو حتى تفسيرات معتقدية . ان المسالة مسالة وجود واستمرار ــ وهذا هو الجانب الحيوي في الثقافة ــ اذ لا ينفع المجتمع ان يكون شديد التمسك بقيمه مقابل انقطاعه عن الوجود . وكذلك انقطاعه عن قيمه يعرضه لخطر الانقطاع عن الوجود . ان المسألة هي مدى ما يمكن أن يساعد الموقف الثقافي على وجود المجتمع واستمراره ، لانه بغير الوجود ــ والمقصود الوجود القوي طبعا ــ لا تنفع اصالة ولا معاصرة(١) .

ولكن ما ورود هذا الموضوع بالنسبة للغزو الثقافي المضاد ؟ في الظاهر تبدو المسالة صراعا فكريا او معتقديا او ايديولوجيا داخليا في المجتمع . ولكن المسالة في باطنها شديدة الاتصال برياح الغزو المضاد سواء اكان ثقافيا أم غير ثقافي .

ولو اخذنا بأقوال كل طرف لوجدنا ان انصار الاصالة يتهمون كل جديد بانه دسيسة اجنبية وافكار مستوردة وبدع مسقطة من الخارج بل يشيعون أن كل جديد في طراز الثقافة انما يستهدف شيئا واحدا

---

(١) سنعود الى هذه النقطة في باب التصورات العامة لحل المشكلة الثقافية .

هو القضاء على ثقافتنا وأصالتنا . وفي مقابلة حديثة جدا مثلا مع العالم الدكتور عمر فروخ نجده يذهب الى أبعد من ذلك بكثير فينسب ذوق مرحلة بأكملها في الشعر والفنون وعلى مستوى العالم كله الى مؤامرة يهودية مدبرة :

« الشعر الحديث والفن الحديث اختراع يهودي أراد به اليهود ان يشوهوا عقول الشعوب . ان اليهود قلة في العالم (هم يدعون انهم ستة عشر مليونا ــ ويبدو انهم اكثر : ضعف هذا العدد) وهم يطمعون الى السيطرة على العالم . ولكنهم لا يستطيعون ذلك اذا كان الناس يفكرون تفكيرا سليما . فلجا اليهود الى اختراع هذه الاصول المشوّهة حتى يفقد الآخرون بها القدرة على المقاومة(١) . »

وبالمقابل لا يكتفي انصار المعاصرة بدمغ التقليديين بالتحجر الفكري والانقطاع عن روح العصر وعبادة الماضي وغير ذلك من الاوصاف ، ولكنهم ايضا يشيرون باصبع الاتهام الى منابع هذا التفكير ، ويربطون بين النفوذ الاستعماري وبين التمسك المتحجر بالقديم بحيث يصبح اذكاء روح الاصالة عملية الهاء مدبرة من قبل عملاء الثقافة المادية لصرف أنظار الناس عن الثقافة العصرية التي توظف لخدمة المجتمع . وهم يلاحظون أن التمسك بالقديم يستخدم في أحيان كثيرة حاجزا ضد الافكار العصرية والتقدمية والثورية وبعض هؤلاء يدعو الى ثورة شاملة في المجال الثقافي ــ الى تمرد على انماط التفكير واشكال التعبير المعروفة والى تجاوز العصور القديمة باتجاه التعبير المعافى من القصر ، ويعتبرون هذه الثورة مقدمة لتغيير الوضع العربي اي يربطون بالثورة الثقافية الشاملة الجذرية مستقبل الوجود العربي كما هو واضح في كتابات أدونيس المختلفة وربما كان النص التالي من أكثرها وضوحا :

(١) فروخ ، عمر : « عمر فروخ يرد على منتقديه » ، الحوادث ، العدد ١٣٠٥ في ١٩٨١/١١/٦ ، ص ٧٦ ، ولم افهم لماذا استعمل عبارة (الاصول المشوهة) في هذا السياق .

« هنا يبدو معنى التشديد على أهمية الممارسة الكتابية من حيث هي فعل ثوري يغير البنية الثقافية القديمة . هنا كذلك يتجلى بشكل خاص دور الكاتب العربي في المرحلة الثورية الراهنة . وعمله المباشر هو ان يمارس تفجير مواهبه في هدم القديم وبناء الجديد .

ان المجتمع لا يمكن أن يكون اقطاعيا او اشتراكيا في آن ، كذلك لا يمكن أن يكون ثوريا وتقليديا في آن ، بل ان المجتمع لا يستطيع أن يثور أي شيء ، في اي مجال ، لحظة يحرص على التمسك بتقاليد ومفهومات وعقائد صاغها وطورها أشخاص عاشوا في عصر غير عصرنا ؛ وبخاصة حينما تكون متناقضة مع الثورة . فمن المستحيل أن يكون الانسان ماضويا ومستقبليا في آن . »[1]

ويصعب الجزم هنا بطبيعة الدوافع التي تزكي الصراع . وان نسبتها كلها الى عوامل الغزو الثقافي تلغي حقيقة المرحلة التاريخية من التطور التي يخوضها الوطن العربي اليوم . ومن الطبيعي في مثل هذه المرحلة أن تظهر اتجاهات متباينة ولكن حدة الصراع والاسراف في الاتهام واللجوء الى التعميمات غير المتبصرة وكذلك التشبث بالتهم الجاهزة ، وعوامل كثيرة مثل ذلك تخلق مناخا مواتيا لتسرب الدسائس الثقافية المعادية ، وفي أفضل حالاتها تسمم الجو الثقافي وتنفر الجيل منه فيشيح عنه ويتجه الى الثقافات الوافدة ليروي ظمأه ويغذي حاجته الروحية .

ويظل صحيحا أن توصل الثقافة العربية الى صيغة فعالة لاقامة توازن خلاق بين الاصالة وبين المعاصرة هو الكفيل بخلق جو طبيعي من التفكير والابداع .

(1) ادونيس : زمن الشعر ، دار العودة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٧٨ ص ٨٩ .

٢ ـ معاناة التوفيق بين المستوى النوعي والاتصال الجماهيري :

ان كل انسان معني بحيوية الثقافة العربية وبمقاومة الغزو المضاد لابد له من أن يتناول بجدية كافية مسألة الاتصال الجماهيري .

ويبدو الحديث عن الثقافة في الوطن العربي حديثا عن ظاهرة معزولة عن الناس وعن الحياة . ومن أسف انه لا توجد لدينا ارقام واحصائيات على نحو ما يوجد في كثير من البلدان حول انتشار التعليم والثقافة والاقبال على القراءة ولكن مع ذلك يمكننا ان نتذكر بعض الامثلة الصارخة :

١ ـ ان نسبة الامية في الوطن العربي تزيد على ٥٠٪ حسب افضل التقديرات للعام ١٩٨٠ .

٢ ـ ان نسبة القراء بين المتعلمين ، لا تذكر ويبدو أن هناك عوامل عديدة منها طبيعة الثقافة ونظام التعليم ، تجعل القراءة هواية لا اثر لها .

واذا أخذنا بلدا عربيا عريقا في الثقافة والادب مثل سورية فاننا سنفاجأ أن معدل النسخ المطبوعة من كتاب بحثي يتراوح بين ١٥٠٠ ـ ٢٥٠٠ نسخة وان كثيرا من الدواوين تطبع بمعدل ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ نسخة ، وان نظام كل من المؤسستين الرسميتين الرئيسيتين لا يسمح باعادة طباعة الكتاب النافد الا في حالات نادرة جدا .

من المعلومات ما يسمح بالاعتقاد أن الحال ليس على غير هذا المنوال في الاقطار العربية الاخرى ، واذا كانت هناك بلاد عربية مثل لبنان والكويت تصل اعلى من سورية في طباعة الكتب فمرد ذلك الى انها تتجاوز في توزيعها السوق المحلية الى أسواق البلاد العربية كلها. وان هذه الارقام تبدو هزيلة جدا اذا ما قيست بأرقام طباعة الكتب في البلدان المتقدمة التي تصل الى مئات الالوف واحيانا الى الملايين .

كذلك نجد فيما يتعلق بانتاج الكتب ان الاختيار امام القارىء العربي محدود جـدا ، وباستثناء الدواوين الشعرية الكاسدة فاننا يمكن ان نطمئن الى أن القارىء العربي لا يتعب كثيرا في اختيار الكتاب المؤلف ان في الاقتصاد وان في الفكر وان في النقد وان في الدراسة الاجتماعية .

هناك فقط بضعة كتب مقرؤة في كل ميدان من ميادين المعرفة (١) . وهذا مايفسر الشهرة السريعة التي نالها كثير من المؤلفين خلال العقود الاولى من هذا القرن ، اذ كان ما يؤلفونه هو المرجع الوحيد في بابه باللغة العربية من المحيط الى الخليج .

تلك هي حال القراءة من الناحية الكمية ، اما حال الفروع الاخرى للثقافة ولاسيما الفنون الجميلة (كالرسم والنحت والموسيقى) وارتياد المسرح ، والمشاركة في الندوات العامة والمناقشات ومشاهدة المتاحف التاريخية والعلمية ، وغير ذلك من النشاطات فانها تكاد لاتصمد لدى بحث بسبب هزالها الشديد .

وما يريد المرء ان يخلص اليه هو ان العملية الثقافية تجري بمعزل عن المشاركة الجماهيرية وانها تظل محصورة بفئة متعلمة او نخبة ذات قانون واضح جدا وهو الابتعاد عن الهموم الجماهيرية بما يتناسب طردا

(١) تقول المجموعة الاحصائية لليونسكو (عام ٧٨ ـ ٧٩) ان الاوربي يختار ما يرغب في قراءته من بين ٦٠٠ كتاب ، اما الافريقي فليس هناك مايتعبه اذ يجد ٢٨ كتابا فقط لكل مليون من السكان . ولدينا ما يسمح بالاعتقاد ان الوطن العربي يقف في مرتبة وسط بين الاسيوي والافريقي اي انه يمكن ان يكون لدينا خمسون كتابا لكل مليون من السكان ، وتحمل احصائيات اليونسكو ارقاما مخيفة حول التفاوت بين العالم المتقدم والعالم النامي في مجال انتاج الكتب . فمثلا يمثل سكان اوربا ١٥٪ فقط من سكان العالم في حين تنتج نصف الكتب المنشورة في العالم . وبوجه عام يبلغ انتاج البلدان المتطورة ٨٤٪ من انتاج الكتب في العالم ويبقى للبلدان النامية ١٦٪ . وهناك احصائيات كثيرة غريبة تجعل الجانب الكمي من الغزو الثقافي شديد الاهمية.

مع ارتفاع المكانة الثقافية ، اللهم الا باستثناءات قليلة معظمها في صفوف الشعراء .

وان المرء ليتساءل : من هو الكاتب العربي الذي يعلق مصيره على استجابة جمهرة القراء له ؟ واين حلقة الاتصال بين القارىء وبين الكاتب؟ وفي اية مجلة عربية نجد بابا خاصا لمناقشة الكتب على يد القراء .

ويكاد الانسان يجرؤ على القول ان مكانة العدد الاكبر من الكتاب العرب ــ ربما الشعراء بدرجة اقل ــ نابعة اما من موقف النخبة منهم او من علاقاتهم العامة او السياسية او من مركزهم الاجتماعي (١) .

وصحيح ان الثقافة العربية لاتحمل التبعة كلها في مثل هذه الظواهر فهناك عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية وتعليمية تفعل فعلها في مرحلة انتشار الثقافة .

ولكن علمتنا التجربة في مختلف البلدان ان الثقافة الحية لها اغواؤها واغراؤها وانها حين تمس مصلحة الجماهير وهمومها المشتركة بجراة وشجاعة فانها يمكن ان تلقى الاقبال المنتظر ، وان ابتعادها عن هموم الناس ومصالحهم هي الداء القاتل لها .

ان الشعبية الفائقة التي يتمتع بها شاعران معينان على مدى الوطن العربي كله ، واقصد نزار قباني ومحمود درويش ، لهي اكبر دليل على ان القارىء موجود والمستمع موجود .

وهذا الكلام بالطبع يقود الى مضمون الثقافة واساليب تعبيرها . ولهذا الموضوع الخطير مجال من البحث غير هذا المجال ولكن يمكن للمرء ان يقول ان المضمون المتاخر (زمنيا) والمتدني (من حيث المستوى)

---

(١) اتمنى من صميم قلبي ان اكون مخطئا او مبالغا في هذه الاحكام .

لايسمح للثقافة العربية بمنافسة الثقافة الوافدة سواء من الشرق او من الغرب . ونحن الذين نلاحظ ان الكتب المترجمة مازالت تحظى حتى الان بوافر الاحترام عند القراء في حين ان الكتب الموضوعة تقابل بالاعراض غالبا .

لانستطيع ان نفسر الامر بانه مجرد « مركب نقص ثقافي » كما يقول بعضهم . **وستظل الثقافة العربية اسيرة عبادة الماضي من جهة وهوس الاغتراب من جهة ثانية مالم تتجه بجدية الى الهموم اليومية التي يطرحها الواقع الاجتماعي المتغير ومالم تضع في حسابها الدخول اليومي الى محراب الثقافة لفئات جديدة من الناس لها مشكلاتها وهمومها وتطلعاتها الجديدة .**

وهنا ارجو ان اشير الى ان الشهرة الموقوتة التي يكتسبها بعض الشعراء والادباء نتيجة ركوبهم الموجات السياسية او النفسية التي تكتسح المجتمع العربي في كل بضع سنوات ليست بالضبط ما نعنيه بمصطلح حيوية الثقافة من خلال جماهيريتها .

ان هذه الموجات الدافقة من ادب المناسبات تتسلق المناسبة نفسها وتضع شعاراتها في كلمات متملقة لعواطف الجماهير وتذوب سريعا مع ذوبان المناسبة . وبالتالي لايمكن ان تكون مستندا لثقافة حية . بل على العكس من ذلك يجرؤ المرء على القول انها سبب من اسباب العكوف التدريجي للجماهير عن المشاركة الثقافية وذلك بسبب ما تخلفه من استجابة سلبية لدى الجماهير بعد ان تكتشف ان الثقافة تسمح لنفسها بالمشاركة في لعبة الديماغوجية السياسية و (فبركة) العواطف العابرة .

وليس في هذا الكلام تعريض بمبدأ التفاعل بين الادب وبين النضال السياسي والاجتماعي ، ولكنه تنبيه الى مخاطر المشاركة الزائفة غير المسؤولة .

ان الادب المسؤول ، والفن المسؤول ، والفكر المسؤول هو الوجدان الحي للناس وحين يسمح لنفسه بأن يكون تشويشا طفيليا على حاستهم الوجدانية فانه لايكون ثقافة ولا يكون مسؤولية وقد آن لنا ان نرسم الخط الفاصل بين الاعلام والثقافة .

فوظيفة الاعلامي غير وظيفة الكاتب والفنان في مجال الكفاح والتبشير .

وهكذا يتضح ان الهوة قائمة وخطيرة بين النخبة المثقفة وبين الجمهور الذي (١) بدونه لاتعيش ثقافة ، وبسبب من خطورة هذه الهوة فانالمثقف العربي يلقى عنتا كبيرا في اقامة التوازن المنشود بين العمق والجدية والابتكار وبين متطلبات التفاعل مع الجمهور والتواصل معه ليس منخلال استلهام معاناته وكفاحه ومشاعره فحسب ولكن ايضا من خلال اشراكه في التفكير والتعبير والتذوق .

٣ ـ معاناة تحقيق التجاوب بين اللون الفطري المحلي واللون القوميالعربي:

ان حالة التجزئة التي تعاني منها الامة العربية تعكس نفسها بقوةعلى الوضع الثقافي . وحين يتحدث المرء عن الثقافة السوفياتية (مع تعدد القوميات) وعن الثقافة الصينية (مع اتساع الرقعة ووصول عددالسكان الى مايقرب المليار) وعن الثقافة الفرنسية (مع امتداداتها الخاصة خارج حدود فرنسا) وعن الثقافة الهندية (في شبه قارة متعددة اللغات والآداب) حين يتحدث المرء عن هذه الثقافات وامثالها فانه يضع في ذهنه الصعوبات النوعية التي تعترض فاعلية كل من هذه الثقافات في سعيها لتأكيدهويتها وتأدية وظيفتها لمجتمعاتها . ولكن حين يتحدث الانسان عن الثقافةالعربية المعاصرة فانه يضطر احيانا للبدء بالتأكيد على ان هذه الثقافة واحدة الشخصية موحدة الاهداف وانها ثقافة مجتمع انقسمت دوله الى اثنتين وعشرين ولكنه ساع الى تحقيق وحدته او تماسكه على الاقل .

(١) ساعود الى معالجة هذه النقطة من خلال (التصور العام لاسس المواجهة الثقافية).

وليس هذا كلاما يمكن ان يقوله الانسان ويمضي مغمضا عينيه عن الواقع الثقافي القطري الذي بدأ يتشكل في كل قطر من الاقطار العربية على حدة .

ان النزعة الاقليمية ولدت مع ولادة الثقافة العربية الحديثة في عصر النهضة . وهي مظهر واضح جدا من مظاهر الغزو الثقافي ، فكما انه — على المستوى السياسي — كرست اتفاقية سايكس بيكو تقسيم منطقة المشرق العربي الى دول تتبع كل واحدة منها السلطة البريطانية او الفرنسية فان التخطيط الاستعماري كان قد عمل منذ البدء على الالحاق الثقافي لكل قطر من الاقطار المحتلة بالدولة الاستعمارية . ولعلنا نتذكر انه منذ ان قرع جرس النهضة الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر كانت قد سبقت ذلك بسنوات حملة نابليون بونابرت على مصر عام (١٧٩٨) التي كانت تهدف الى تحويل مصر الى دولة عصرية على الطراز الفرنسي مما يساعد على ابقائها موالية لفرنسا الى الابد . وبعد ذلك بثلث قرن تماما عملت فرنسا (١٨٣٠) على احتلال المغرب العربي وعلى محو هويته والحاقه ثقافيا بفرنسا والحاق الجزء الاكبر منه سياسيا بها كذلك وفي الوقت نفسه كانت الارساليات تتنافس في لبنان على كسب ود الطوائف المختلفة وصبغها ثقافيا بصبغة الدولة صاحبة الرعاية .

ولو نظرنا الى الخارطة الثقافية العربية اليوم لوجدنا ان النتوءات الاقليمية البارزة منها هي هذه المناطق الثلاث وليس يعني ذلك ابدا ان اللون الغالب على ثقافة هذه المناطق هو اللون الاقليمي ، وليس يعني ذلك أي مساس بالانتماء الثقافي والقومي لهذه الاقطار ، انما يعني من الناحية الواقعية انه ، بسبب من الظروف التاريخية للعلاقة الاستعمارية ، خلق في هذه المناطق مناخ مشجع على بروز النزعة الاقليمية في الثقافة ، مع تفاوت شديد في هذه النزعة بين السعي لتحقيق اللون الخاص لكل منطقة وبين الايغال في ذلك الى درجة الانعزالية والتحلل من الثقافة العربية ، وفي احيان كثيرة الجهر بالتفاعل مع الثقافة المعادية .

ولكن النزعة الاقليمية لاتقتصر على هذه المناطق فحسب وانما هناك نتوءات واضحة هنا وهناك في الخارطة الثقافية. والقاعدة العامة بهذا الصدد تقول ان كل صوت مهما كان غبيا او خافتا او جاهلا يجد تشجيعا فوريا لدى كثير من وسائل النشر الثقافي ولاسيما اذا كان يضرب على وتر الانسلاخ عن الثقافة العربية او المسروق من اللغة العربية ، وسرعان ماتتجاوب له اصداء في صحافة الغرب واوساطه الثقافية .

وهنا يجب ان نفرق تفريقا دقيقا بين النزعات الاقليمية الانعزالية الساعية الى الانسلاخ عن الثقافة العربية وتسميمها .

وبين الواقع الثقافي المحلي الذي اخذ يترسب في كل قطر عربي على حدة : :

أولا : بسبب التباعد التاريخي في القرون الماضية .

ثانيا : بسبب ما يسود علاقات الاقطار العربية من تنافر وتنافس وتذبذب وغير ذلك من أنواع العلاقات السياسية السلبية التي تنعكس ــ بشكل لاتعرفه اي منطقة اخرى في العالم ــ على العلاقات التجارية والاجتماعية والثقافية والتعليمية (بما في ذلك المناهج ويا للعجب) والاعلامية .

ان هذا الواقع السياسي المتصف بالحدة والتشنج وعدم التمييز في اشكال العلاقات يؤدي بالضرورة الى نمو بيئات ثقافية ذات تلوين محلي يكثر او يقل .

وبالطبع تساعد على هذا الامر عوامل تعليمية كالمناهج وعوامل تاريخية ثقافية كعامل اللغة الاجنبية السائدة وعوامل اخرى كثيرة تخرج عن نطاق البحث الحالي .

يضاف الى ذلك وجود تاريخ ثقافي حضاري في كثير من المناطق سابق لتاريخ الثقافة العربية كما تحددها المصادر المتشددة ، فهناك الفرعونية

والفينيقية والحضارات السورية القديمة والثقافات القديمة في العراق وفي الشمال الافريقي . وقد عبرت فترة من الزمن كان فيها مجرد الاشارة الى هذه الحضارات يعد هرطقة ومـروقا من الثقافة العربية ، وولـد هذا التشدد ـ الذي كان له مايسوغه سياسيا ـ ردود فعل متشنجة تمثلت احيانا في المفاضلة بين الحضارات القديمة والحضارة العربية على الطريقة الشعوبية السابقة .

ولكن يبدو للمراقب اليوم ان هناك تفهما عاما بدأ يسود الجو الثقافي العربي لاهمية هذا التاريخ الثقافي القديم المتنوع وعلاقته الايجابية (لا السلبية ولا التنافسية) بالثقافة العربية . ومن اوضح ماسمعته بهذا الصدد كلمة للاستاذ احمد عباس صالح خلال مناقشات مؤتمر الادباء العرب الثاني عشر بدمشق جاء فيها :

« وانا عندما اتكلم عن الفرعونية لا اريد ان يتجاهل الناس التاريخ القديم ، انما مسألة استغلال الفرعونية استغلالا سياسيا شيء واحترامنا لتاريخنا القديم سواء اكان اشوريا او بابليا او فرعونيا او فينيقيا شيء آخر .... » (١) .

الا انه يبقى صحيحا ان الثقافة العربية بعد كل هذه التطورات تعاني من صعوبة تحقيق توازن فعال بين الثقافة القومية الشاملة وبين التلوين المحلي للثقافة العربية في مراكزها القطرية المختلفة ، وهو تلوين مستند الى عوامل تاريخية اخذت تغذيها مجددا خصوبة الاكتشافات الاثرية من جهة ورداءة المناخ السياسي ـ الثقافي بين الاقطار العربية من جهة اخرى ـ على ان المؤشرات الراهنة لهذه المشكلة لا تعطي صورة قائمة الا من ناحية المحاولات الاستعمارية المستمرة لاستغلال هذا الواقع من اجل دفع نزعات

(١) وقائع المؤتمر العام الثاني عشر للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب ومهرجان الشعر الرابع عشر ، دمشق ، ج٢ ، ص ١١٠ .

اقليمية معينة باتجاه الانسلاخ والانعزالية ، وقد اثبتت الثقافة العربية حتى الان انها متينة ومتماسكة وقادرة على الصمود في وجه مختلف الهزات والاتجاهات .

٤ ــ معاناة المواجهة الفعالة للغزو الثقافي المباشر (لبنان ومصر وفلسطين المحتلة)

اذا كانت المظاهر السابقة التي حاول الغزو الثقافي النفاذ من خلالها مظاهر طبيعية اي ناجمة عن عوامل تاريخية اجتماعية موضوعية ، فان هناك مظاهر معينة في الثقافة العربية يمكن ان تكون نتيجة مباشرة للغزوة الثقافية المدبرة ، وتتمركز هذه المظاهر في ثلاثة مجالات :

الاول : تيار الثقافة الانعزالية ولاسيما في لبنان ومصر .

الثاني : الاتجاهات الانمزالية والغزو الثقافي الصهيوني لمصر .

الثالث : الغزو الصهيوني المنظم للثقافة العربية الفلسطينية .

ولكل واحد من هذه المجالات جوانب متعددة يمكن ان يذهب فيها القول مذاهب . وسوف نحاول فيما يلي ان نقصر الحديث على ماهو مهم واساسي ومفيد في اعطاء فكرة واضحة عن مخطط الغزو المبيت .

أ ــ تيار الثقافة الانعزالية في لبنان :

ماأكثر مايقال عن انتشار الادب الانعزالي في أوساط معينة في مصر ولبنان والمغرب العربي .

ولقد اوضحت سابقا وجود التباس كبير بين اللون المحلي القطري في الادب الذي يمكن ان يكون واقعا مشروعا في الاطار الاشمل للثقافة القومية وبين الادب الانعزالي الذي يقرب ان يكون نوعا من (الشعوبية

الجديدة) هادفا الى الخروج عن اطار الثقافة العربية بل الى النيل منها وتحقيرها لصالح ادعاءات التفوق الثقافي والحضاري لطائفة معينة او اقليم او طبقة ، على ان الامر يختلف اختلافا شديدا بين تيار انعزالي وآخر حسب الظروف السياسية والاجتماعية السائدة بل ان هذه الظروف نفسها تبدل وتغير من اولويات المعتقدات الانعزالية ومن التركيز على بعضها دون بعض وفقا لما تراه زعامات الطبقة الحاكمة من مصلحة آنية لها في هذه المرحلة او تلك ووفقا للتاثيرات الاستعمارية ايضا بحيث يصح القول ان التيارات الانعزالية في الوطن العربي ليست قائمة بذاتها وانما هي حالة كامنة يمكن للتطورات السياسية والاجتماعية ان تتيح لها فرصة البروز كما يمكن للخطط الاستعمارية المباشرة ان تعطيها ابدا ودفقا وتسلط عليها الاضواء المصطنعة .

وفيما يتعلق بلبنان يحسن التنبيه بقوة الى ان الفكر الانعزالي الذي يشجع الثقافة الانعزالية ليس من صنع المسيحيين اجمالا فعلى العكس من ذلك كان الكتاب المسيحيون الكبار في مطلع هذا القرن مثل امين الريحاني وميخائيل نعيمة ومارون عبود ورئيف خوري ، وجبران ، والياس ابو شبكة ، وشفيق المعلوف وغيرهم ، كانوا دعاة نهضة وتحرر وديمقراطية مع غلبة كاسحة للاتجاه العلماني الداعي الى قيام مجتمع يبنى على قاعدة المواطنية لا الطائفية ، على قاعدة القومية العلمانية الجامعة لشتات الامة(١)

واذن يجب ان نبحث عن الفكر الانعزالي في مصلحة الفئة المتسلطة على قطاع من المسيحيين في لبنان يتمثل بوجه خاص في الموارنة ، ويقوم

---

(١) ينسب جورج ناصيف هذا الحكم ، الذي هو صحيح حتما ، الى جواد بولس في كتابه تاريخ لبنان ، دار النهار للنشر ١٩٧٢ ، ص ٢٥٢ . وسوف تعتمد مناقشة الانعزالية في لبنان هنا على البحث المنهجي القيم الذي قدمه لمؤتمر الادباء العرب الثاني عشر السيد جورج ناصيف بعنوان « الايديولوجية الانعزالية مفاهيمها ، سماتها ، وسجال اولي معها »، بالاضافة الى المناقشات التي دارت حول هذا البحث.

هذا الفكر على انكار انتماء لبنان العربي واحياء الرابطة الفينيقية حضاريا والنظر الى لبنان فينيقيا على المستوى الحضاري وملاذا ديمقراطيا على المستوى السياسي . ويترتب على هذا الاعتقاد تصور سياسي لواقع لبنان الحالي يتمثل فيما يلي :

- لبنان نتاج ماروني ، من حيث الواقع التاريخي .
- المسيحية اللبنانية تنتمي الى الحضارة الغربية .
- لبنان جزء من العالم الغربي .

ويلاحظ الاستاذ جورج ناصيف ان الفكر الانعزالي لم يستطع انتاج ادب انعزالي ذي شأن حتى خلال انكشاف الوجه الحقيقي لهذا الفكر عند اندلاع الحرب الاهلية .

(اما النتاج الادبي الذي جاءت به الحرب الاهلية ، باقلام كتاب انعزاليين فهو من الضآلة والابتذال والفجاجة السياسية الصارخة بحيث امتنع كافة المشتغلين في النقد الادبي عن اعتباره ادبا يستحق الدراسة او يستأهل وقفة تقييم جدية ، ويجعلنا نتعاطى معه بوصفه لونا من الوان المناشير السياسية الرخيصة ، والمفتقرة الى الحد الادنى من الابداع الادبي[1]) .

وهناك مسائل كثيرة متعلقة بخطر الانعزالية في لبنان ، سواء على المستوى القومي او على المستوى الثقافي ، ليس في مقدورنا ان نتوقف عندها في المجال الحالي ، ولكن من زاوية الغزو الثقافي المضاد بالذات يمكن التأكيد على الملاحظتين التاليتين :

---

(١) من البحث المشار اليه سابقا لجورج ناصيف ، وهو منشور في وقائع : « المؤتمر العام الثاني عشر .... » ، ج١ ، ص ١٢١ - ١٦٦ ، والمقطع المستشهد بمثبت في ص ١٢٧ .

١ ــ الفكر الانعزالي في لبنان لم يرق بعد الى مستوى الايديولوجية(١) اي التفسير المنظم المترابط لموقف من الحياة فكري وسياسي واجتماعي واقتصادي ، ولكن هذا الحكم لايعفينا من التوجس من تطور النزعة الانعزالية الحالية الى مشروع ايديولوجية منسلخة عن القومية العربية ومناهضة لها ، وجميع البوادر تشير الى هذا الاتجاه . وهو اتجاه يجب ان يؤخذ بجدية كافية لان هذه الايديولوجية حين تكتمل ــ . ولاسيما من خلال تطورات الحرب الاهلية اللبنانية والتدخل الاسرائيلي السافر الى جانب الانعزاليين ــ لابد ان تأخذ موقفا معاديا للامة العربية ربما على نسق الصهيونية ، مما ينفي امكانية معالجتها بوصفها ظاهرة انشقاق داخلي وانما تصبح ظاهرة من خارج اطار الامة العربية فكرا وسياسة ، وههنا الكارثة . وبالطبع يؤمن المرء انه يوجد في لبنان من الرصيد القومي والنضالي والتقدمي والثقافي والعربي ماظل حتى الان قادرا على التصدي لهذه النزعة ، ولكن مشكلة التدخل الصهيوني السافر تعطي المعركة ابعادا اشد خطورة مما كانت تبدو عليه من قبل .

٢ ــ على الرغم من صحة ماقاله جورج ناصيف عن تهافت الادب الانعزالي ، فانه يبقى مهما الاشارة الى ان الثقافة الانعزالية غير مقصورة على الادب ، وقد ظهر خلال السنوات القليلة الفائتة مؤلفات تاريخية وفكرية حول لبنان والمنطقة تعد تثبيتا منهجيا للمفهومات الانعزالية ، وساعد على ذلك فتح الفروع الثانية للجامعة اللبنانية في المناطق الانعزالية اذ بدات تتكون هنا بيئة تعليم عال وبحث علمي . يضاف الى ذلك انه في مجال الادب واللغة ظهرت قبل الحرب الاهلية نزعات خطيرة الى الاستخفاف بالادب العربي والى انشاء تيار شعري باللغة الفرنسية والى الاستعاضة عن اللغة العربية باللهجة اللبنانية المحلية والى كتابة هذه اللهجة بالاحرف اللاتينية . وقد درج الان نسبيا مصطلح اللغة اللبنانية

---

(١) مع العلم ان جورج ناصيف تبنى هذا المصطلح باضطراد لوصف الفكر الانعزالي .

ولاسيما على يد شاعر اكرمته العروبة كل اكرام وهو سعيد عقل .
والمعروف ان الجدار اللغوي هو عامل اساسي جدا في حفظ الثقافة(١) .

ومن الضروري أن نتذكر اخيرا أن التيار الانعزالي في لبنان لم يستطع ان يعزل لبنان الثقافي عن جذوره العربية ، وعلى الرغم من ان ظروف الحرب الاهلية هي المناخ الاكثر مواتاة للثقافة الانعزالية فان هذه الثقافة ظلت معزولة ، وظل لبنان موكز اشعاع للثقافة القوميةالعربية ، ولثقافة المقاومة الفلسطينية ، وذلك بفضل مافيه من مراكز ابحاث حديثة ودور نشر ناشطة وصحافة متطورة وغير ذلك من وسائط الثقافة الفعالة .

ب ـ الاتجاهات الانعزالية والغزو الثقافي الصهيوني لمصر :

عرفت مصر في السابق تيارات انعزالية قادها بعض المثقفين الليبراليين في عهد السيطرة الاقطاعية والبورجوازية الذين اعتقدوا أن التمسك بالثقافة العربية هو التأخر وان الانسلاخ منها يتيح مجال التقدم ، وكان النمط الاوربي الليبرالي هو المثل الاعلى لهم ، وحين اعوزتهم ركيزة تاريخية بديلة عن التراث العربي لجأوا الى الفرعونية وجعلوها مستندا لهم ، وقد كان للمكتشفات الاثرية الفرعونية صدى كبير بينهم تماما مثلما كان للمكتشفات الاثرية الفينيقية صداه الكبير في لبنان . على انه من الصعب القول ان هناك تيارا سياسيا اقليميا انعزاليا متبلورا في مصر مشابها لما هو موجود في لبنان ، وانما هناك نزعات فردية على الاغلب وذات طابع ثقافي كانت تظهر بين حين وآخر ولاسيما في فترات النكسات والانهزامات التي عانت منها مصر منذ القرن التاسع عشر مثل هزيمة محمد علي ، وهزيمة ابراهيم باشا ، ونكسة الثورة العرابية ، وغيرها...

(١) انظر مناقشات اخرى حول الادب الانعزالي في لبنان لكاتب هذه السطور ولعدد من الزملاء في الجزء الثالث من وقائع : المؤتمر الثاني عشر ، المشار اليه سابقا ولا سيما ص ٢٠ ـ ٢٤ .

والقاعدة انه حيثما وجدت ضرورة للبحث عن ايديولوجية بديلة كان الكتاب المتأثرون بالمناخ الليبرالي البورجوازي المتاورب يرفعون رؤوسهم منادين بالامور التالية على تفاوت شديد بينهم في التركيز على عنصر دون آخر(١) .

١ ــ تراث مصر الحضاري يتألف من الفرعونية ، وليست الصبغة العربية الاسلامية سوى مرحلة عابرة .

٢ ــ مستقبل مصر كامن في انتهاج الطراز الاوربي من الحياة والمدنية، والمنقذ الاساسي لها الاوربة الكاملة .

٣ ــ الاطار السياسي الاقتصادي لمصر ليس الوطن العربي ولكنه البحر الابيض المتوسط .

ويصاحب هذه النزعات عادة تفاوت شديد في الموقف الثقافي من الماضي العربي فبعض الكتاب لم ينظروا باحترام الى هذا الماضي مثل حسين فوزي ، ولكن معظمهم لم يستطيعوا انكاره ، وفي حالات القوة السياسية نهلوا منه وحاولوا احياءه وتحقيقه وتفسيره ، وبعضهم كان متعلقا به تعلقا واضحا على الرغم من دعوات الفرعونية والاوربة ، وابرز هؤلاء طه حسين ومحمد حسين هيكل .

ولقد لعبت الظروف السياسية التي مرت بها مصر دورا كبيرا في تلوين المناخ الثقافي بحيث يصعب اعطاء حكم تصنيفي حول ادباء مصر من ذوي الاسماء اللامعة ولكن من بين هؤلاء جميعا يبرز أسم حسين

---

(١) من أجل التوسع انظر :

صالح ، احمد عباس : الادب الانعزالي في مصر ، في وقائع (المؤتمر الثاني عشر ...) ص ٩٥ ــ ١١٧ .

فوزي وتوفيق لحكيم(١) ولويس عوض بوصفهم الاقل اتصالا بالثقافة العربية والاكثر استعدادا للتعامل مع الافكار الهجينة والمدسوسة .

وليس هذا المجال مجال تصنيف الكتاب ونبش ماضيهم ، ذلك ان هذا الموضوع يثير شجونا كثيرة لان عددا كبيرا من كتاب مصر اسهموا ولاسيما في الخمسينات وبعد ثورة ٢٣ يوليو في خلق ارضية واسعة للمفهومات الثقافية العربية وكانوا المجلين في مختلف ميادين القول .

وكثيرا من أولئك الذين يلهثون اليوم وراء التطبيع ليسوا انعزاليين أو تطبيعيين بالمفهوم الثابت لهذه الكلمة وانما هم انتهازيون بالدرجة الاولى ومستعدون لركوب اية موجة راجحة ، وبالطبع هذا لا يعفيهم من المسئولية ولكنه يعفينا من الاعتقاد بوجود تيار انعزالي متماسك في مصر .

وهكذا بعد زيارة السادات المشؤومة الى القدس وبدء العلاقات مع مصر كا نالكتاب الاكثر انتهازية أو الاكثر بعدا عن الوطن العربي وقضاياه مثل حسين فوزي هم أول المتهافتين على زيارة العدو الاسرائيلي ،ويجب التأكيد ، تصحيحا لما هو شائع ان هؤلاء ليسوا ضد الثقافة العربية فحسب بل هم ضد مصر وثقافتها وسيادتها ايا كان لون هذه الثقافة والسيادة ، وقد افرزت عملية التطبيع مع مصر اسماء جديدة ربما كان انيس منصور (اسواها سمعة واقلها حياء) .

---

(١) للدكتور غالي شكري رأي مختلف في توفيق الحكيم ، وقد اعلنه في كتابه عن الحكيم وايده في ندوة مجلة المعرفة حول : (الغزو الثقافي الامبريالي للوطن العربي) . انظر المعرفة ، س ١٩ ، ع ٢٢٧ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٨١ ، ص ٩٤ — ١٢٣ . الا انني اعتقد ان توفيق الحكيم كان من صناعة اجهزة الغزو الثقافي منذ ايام عودة الروح) ، اما في (عودة الوعي) فكان قد بدأ ياخذ دوره للتمهيد للغزو الصهيوني ، وعلاقته بحسين فوزي مشبوهة جدا . كما يذكر احمد عباس صالح .

وعلى الرغم من ان الكتاب الذين انزلقوا في عملية الممالاة للعدو هم قلة في العدد فانهم خلقوا مشكلة ادبية تربوية ، لا على مستوى مصر وحدها ولكن على المستوى العربي بوجه عام ، ذلك لان مصر كانت وما زالت وستبقى مركز اشعاع للثقافة العربية ، وقد نشأ جيل عربي كامل على التعلق بكوكبة من الكتاب المصريين وكتب عنهم الكثير في الادب العربي والثقافة العربية ، والآن تخلق علاقات بعضهم مع الثقافة المعادية مشكلة حادة تستدعي اعادة النظر في تقييمهم ، ومن هؤلاء على سبيل المثال بالاضافة لمن سبق ذكرهم : دكتور زكي نجيب محمود ، دكتور نجيب محفوظ(١) صلاح عبد الصبور ، يوسف ادريس .

وهناك اسماء اخرى أقل اهمية مثل صلاح جاهين رسام الكاريكاتير، وفي وهمنا انه يمكن التفريق بين من كانت لديه في الاصل افكار انعزالية وبين من انساق وراء التيار دون خلفيات فكرية سلبية ، وفي جميع الاحوال يحسن التروي في هذا الموضوع وبحثه من جميع جوانبه على يد هيئات مختصة ، وبالطبع هذا الكلام يتعلق باعادة تقييم آثارهم الماضية اما يقدمونه حاليا فيسري عليه حتما حكم المقاطعة والادانة .

وان المعلومات عن عملية التطبيع متوفرة في كل مكان ، وتعنى الاجهزة الرسمية العربية والمنظمات الوطنية المصرية بتقصيها ، وقد أصبح ملف (التطبيع) ضخما الآن لأن العدو الصهيوني ألح على الاسراع في هذه الناحية من جهة، ولان سلطات النظام الخائن سهلت الامر عليه وازالت كل عقبة

(١) مما كتبه نجيب محفوظ عن الحرب :

« ماذا يريد هؤلاء الناس ؟ هل يريدون استمرار الحرب الى ما لا نهاية ؟ ... الا يعلمون ان الحرب ضد الحضارة والمستقبل ؟ ... ان على العرب ان يدركوا هذه الحقيقة ، وان يخرسوا اصوات المزايدين التي ترتفع مطالبة بالمواقف المتطرفة واستمرار الصراع . انني أريد السلام واقبله حتى لو اقتضانا التنازل عن جزء من الارض فالارض لا قيمة لها بحد ذاتها ... ورد النص في وقائع « المؤتمر الاستثنائي للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية لمواجهة الغزو الثقافي الصهيوني لمصر ، وزارة الثقافة ، دمشق ، تموز (يوليو) ١٩٨٠ ، ص ١١٥ .

ممكنة من وجهه ، وليس من الممكن هنا الدخول في تفصيلات هذا الملف بل يجد المرء صعوبة في تنسيق الافكار المتعلقة بالتطبيع في مصر ، ولايمكن فصله عن النواحي الاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، انه بكلمة واحدة حملة شاملة لنفي الهوية المصرية والعربية ، انه نفي مصر ونفي وجودها .

ويتم كل ذلك بتخطيط منظم من العدو الصهيوني لغزو مصر ثقافيا وسلخها عن ماضيها العربي وعن هويتها الخاصة واضاعة مقودها الثقافي الداخلي بحيث تصبح (سائبة) ثقافيا وفي اسوأ الاحوال بقعة هزيلة من بقاع الثقافة الغربية . ومن هنا حرص العدو الصهيوني منذ البدء على تنمية الجانب الثقافي من العلاقات المصرية والاسرائيلية واولاها أهتماما كبيرا . وكذلك أصر على اعطاء اولوية فيما سمي بمعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية (٢٦ آذار ١٩٧٩) لمسائل التطبيع الثقافي ، فكانت تنص على ما يلي :

١ — يتفق الطرفان على اقامة علاقات ثقافية عادية بعد اتمام الانسحاب المبدئي .

٢ — يتفق الطرفان على ان التبادل الثقافي في جميع الميادين امر مرغوب فيه ، وعلى أن يدخلا في مفاوضات في أقرب وقت ممكن ، وفي موعد لا يتجاوز ستة اشهر بعد اتمام الانسحاب المبدئي بغية عقد اتفاق ثقافي .

ومن يقرأ هذا المعاهدة التي يلاحظ الالحاح الشديد فيها على سرعة عقد الاتفاق الثقافي ولكن اين هذا الاتفاق الثقافي ؟

ووفقا لما اذيع في حينه قام الفريق اول كمال حسن علي في شهر ايار (مايو) ١٩٨٠ . بالتوقيع على تسعة اتفاقات من ضمنها الاتفاق الثقافي وصرح بعدذلك انثلاثة من هذه الاتفاقات يجب ان تعرض على مجلس الشعب وهي اتفاقات الثقافة والنقل البحري والتجارة .

الا ان الاتفاق الثقافي لم يعرض على مجلس الشعب بل فرضت على نصوصه سرية مطلقة على الرغم من وجود شواهد كثيرة على أن العمل جار على قدم وساق لتنفيذ هذا الاتفاق ؛ وعلى الرغم من أن مجلس الشعب المصري كان قد وافق أصلا على مشروع بالغاء المقاطعة الثقافية لاسرائيل . وبالطبع يستنتج المنطق السليم من هذا الموقف ان الاتفاق الثقافي يضم بنودا مثيرة من جهة وأن عنف مقاومة الاوساط الثقافية والشعبية المصرية لمسائل التطبيع الثقافي تدفع الحكومة الى التريث باعلانه .

ولكن الغزو الثقافي الصهيوني لمصر لايقف عند حد الاتفاق السري الذي تناول كما تشير الدلائل مسائل خطيرة مثل تعديل المناهج وتعديل المواقف الاعلامية وتبادل البرامج الاذاعية والتلفزيونية والمطبوعات والتجارب المسرحية ووقف روح العداء للصهيونية في الكتابات المصرية ، بل وصل هذا الغزو الى مجالات أخرى أبرزها تكون « مجلس السلام » الذي أعلن عنه اسحق نافون ، رئيس الدولة الصهيونية ، خلال زيارته لمصر ، والذي يتكون من كتاب ورجال دولة وعلماء نفس وعلماء اجتماع ، ويهدف الى الحلول محل (مجلس الحرب) والى محو آثاره طبعا .

وتتم هذه الحملة بتنسيق واضح مع الاجهزة الثقافية الاميركية والغربية المتغلغلة في مصر التي كانت قد بدات حتى قبل الزيارة المشؤومة بالتمهيد للغزوة الثقافية الصهيونية ، ذلك لان أهداف المسخ الثقافي لمصر مشتركة بين جميع هذه الاجهزة .

كما تقوم هذه الاجهزة نفسها بتسهيل عملية الغزو الثقافي الصهيوني عن طريق خلق منتديات خارج مصر يلتقي فيها المثقفون المصريون مع الصهيونيين والاستعماريين ويكون هذا اللقاء بداءة لاشكال التعاون الاخرى ، ولاسيما بالنسبة لاولئك المثقفين الذين يترددون في البدء مراعاة للجو الوطني السائد في المستوى غير الرسمي .

ويمر الغزو الصهيوني الثقافي لمصر من خلال بلبلة الافكار الوطنية وتشويه المعتقدات القومية والدينية وخلق جو مسموم ضد الثقافة العربية واعتبارها مسؤولة عن تخلف مصر . كما يعمل على قلب المفهومات السائدة رأسا على عقب وتصوير الفكر العربي المناضل في مصر على انه ناجم عن المرض النفسي والاحباط والعجز ، وبذلك يبقى اختيار ثقافي واحد أمام الجمهور المصري،وهو الاستسلام الكامل للثقافة الغربية، ولكن هذه المرة بشكل مختلف تماما عن عصر النهضة ، هذه المرة بدون حركة احياء قومية من جهة ، وعن طريق أجهزة الثقافة الصهيونية ومن خلال مفهوماتها وتكويناتها الخاصة من جهة أخرى .

ويلوح الغزو الصهيوني بالمفهومات البراقة مثل التحضر والديمقراطية والحرية الليبرالية والانفتاح الفكري والبعد عن التعصب والعالمية والتعاون الدولي وتعطي هذه المفهومات مضامين خاصة تجعل منها عنوانات لمحاربة الثقافة العربية والوطنية والافكار التقدمية ، ولقطع الطريق على الجماهير الشعبية في المشاركة بثقافة النخبة وكذلك لدمغ كل موقف وطني تقدمي وحدوي بالتعصب وضيق الافق .

وتسخر الامكانات المتطورة الصهيونية والغربية لتنفيذ هذا المخطط وهي امكانات الترجمة والنشر والاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح والاجور السخية بحيث تشكل كلها جوا من الاغراء المادي والنفسي تأمل الاجهزة المعادية ان تضعف بالتدريج المقدرة على مقاومته .

ان الغزو الثقافي الصهيوني لمصر شديد الخطورة بسبب اتصاله بالغزو الثقافي الامبريالي ، وبسبب قرب مصر من اسرائيل ، وبسبب وفرة الدراسات الاسرائيلية المتعلقة بمصر بالذات ، لان مايجري اليوم ليس ابن ساعته بل هو نتيجة تخطيط قصدي قديم ، على أنه يجب الا يتصور الانسان أن النجاح السطحي الذي أحرزه هذا الغزو في السنوات الاولى، ولاسيما لدى فئة من المثقفين الانتهازيين ، هو الجولة الاولى والاخيرة .

ذلك ان المقاومة الوطنية الشعبية للغزو استطاعت ان تحصره في الاطار الرسمي وفي اطار المجموعة الانتهازية وان تدفعه ولاسيما في اطار الجامعات حيث تنتصب معاقل المقاومة شامخة صلبة ،مما دفع السادات قبل مقتله بأيام الى طرد عدد من أساتذة الجامعات بالاضافة الى اعتقال عدد من الطلبة .

وتشير دراسة احصائية قدمها الدكتور سعد الدين ابراهيم الى انه ظهر في مصر خلال السنوات الاخيرة من حكم السادات وحتى عام ١٩٨٠ مئة وعشرون عملا ادبيا معارضا لنظام السادات ؛ كما يشير الدكتور غالي شكري في ندوة له في مجلة المعرفة الى وجود ١٧ مجلة سرية ثقافية متخصصة ، ويشير الى وجود مواد لديه تستحق ان تطبع لتعطي صورة عن الكفاح العربي في مصر ضد الغزوة الثقافية المضادة(١) وهناك ايضا النشاط الدائب (للجنة الدفاع عن الثقافة القومية) التي تصدر نشرة (المواجهة) . وهناك معظم النقابات والاتحادات الشعبية التي تسهم في المواجهة والمقاومة بما يسمح للمرء ان يؤكد على ان الغزو الثقافي الصهيوني ظل على السطح ، على الا تدعو هذه الحقيقة الى الاستكانة والتراخي في مواجهة الخطر . وربما كان التصريح التالي للسفير الصهيوني السابق في القاهرة دلالة واضحة على عدم اطمئنان العدو الصهيوني لكل ما يجري:

« ان المثقفين المصريين لم يغفروا لنا مجيئنا وكوننا في مصر ، وهم لا يعارضون السلام بل ينشدونه ، ولكنهم يفضلون ان يكون السلام مع اي كيان غير محدد كالقطب الشمالي مثلا ، ومن الصعب عليهم ان يسلموا بأن السلام تم توقيعه مع اسرائيل ... ان المثقفين المصريين لم يغفروا لنا

(١) غالي شكري وآخرون : « الغزو الثقافي الامبريالي للوطن العربي » ، مجلة المعرفة ، س ١٩ ، ع ٢٢٧ ، كانون الثاني ١٩٨١ . والرقم المنسوب الى الدكتور ابراهيم ماخوذ من كلام الدكتور غالي .

وجودنا وكياننا ، وهم عندما يرون علما اسرائيليا . فانهم يشعرون بأن هذا العلم يأكلهم »(١) .

وما ينبغي أن نكون متأكدين منه ان الصهيونية ليس عندها ما تقدمه من ثقافة ، فثقافتها اصلا مريضة عرجاء واقعة في مشكلة الطريق المسدود لان متنفسها الوحيد هو الثقافة اليهودية القديمة التي يصعب تكييفها مع مفهومات العالم المعاصر . وهكذا نجد ان فاعلية الغزو الثقافي الصهيوني لابد لها من أن تصب ــ كما تشير الشواهد العملية لا النظريات فقط ــ في بحر الغزو الامبريالي ، واذا كان لها من دور خاص في هذا المجال فلن يكون سوى دور التخريب والبلبلة والتشكيك وهو دور خطير لانه ينمو في حالات الهزائم وانخفاض الروح المعنوية ، ولكنه يظل على أي حال دورا محدود العمق مختلفا عن التأثير الصاعق لثقافة كالثقافة الغربيــة .

ج ــ الارض المحتلة في خضم المواجهة :

تشكل المعركة الثقافية الدائرة في الارض المحتلة نموذجا مــزدوج المعنى ، فهي من جهة تحمل دلالة واضحة على ضراوة الغزو الصهيوني وهي من جهة ثانية تحمل تأكيدا جديدا على عجز الثقافة الصهيونية عن مزاحمة الثقافة العربية العريقة المتجددة .

ان كل ظروف الارض المحتلة تشير الى ان العدو هو في احسن وضع يمكن ان يتمناه أي غالب من اجل نشر ثقافته وتحطيم ثقافة الاخر ، فهنــاك :

(١) انظر : « رسالة القاهرة » في جريدة البعث ، رقم ع ٥٧٠٠ تاريخ ١٩٨١/١٠/٤ وفي هذه الصفحة الاسبوعية ترد عادة معلومات جيدة عن تطورات المقاومة في مصر العربية.

(٢) من اجل متابعة بعض جوانب هذا الغزو وبعض المقترحات لمقاومته يمكن مراجعة وقائع « المؤتمر الاستثنائي للوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية ... » مذكور سابقا .

١ ــ حالة احتلال مباشرة عمرها بالنسبة لارض النكبة الاولى ثلث قرن تماما (١٩٤٨ ــ ١٩٨١) وعمرها بالنسبة لارض النكبة الثانية اكثر من سدس قرن (١٩٦٧ ــ ١٩٨١) ، وفي الحالتين استولى العدو على الارض والحالة الثقافية فيها غير مزدهرة ولا ناضجة ولا متمكنــة .

٢ ــ حالة احتلال شامل لان الطرف الغازي ملاصق للطرف المغلــوب ومتداخل فيه ، فالاحتلال لا يتم عن طريق جيش بعيد عن قواعده ولكن عن طريق جيش وسكان واستيطان وتداخل بشري اجتماعي اقتصادي اداري يجعل الارض المحتلة منطقة مفتوحة بكل ما في هذه الكلمة مــن معنى .

٣ ــ يصاحب الغزو الثقافي باشكال اخرى من الغزو المنظم : غزو بشري عن طريق الاستيطان . وغزو اقتصادي عن طريق الحاق اقتصاد الضفة والقطاع بالاقتصاد الاسرائيلي . وغزو عسكري مطلــق الصلاحيــة .

٤ ــ يصاحب الغزو الثقافي غزو نفسي منظم عن طريق اختصاصيين غير غرباء عن ثقافة المنطقة وعقلية اهلها

٥ ــ يصاحب الغزو الثقافي للارض المحتلة تدهور مستمر في الوضــع العربي من حولها لا يسمح باعطاء الصمود الفلسطيني في الداخل اية بارقة امل . بل انه يفاجيء المناضلين بموجات من الخلافات والتحزبات تصاحبها ضغوط تشتت نضالهم وتبدده . ولعل اوضح شاهد في هذا المجال محاولات النظام المصري بالتعاون الكامــل مع العدو الغازي خلق مناخ من اليأس يدفع الناس الى القبول بالحكــم الذاتــي .

٦ ــ يصاحب الغزو تقصير عربي نسبي في دعم الثقافة العربية بأهــم ما تحتاجه وهو استمرار التعليم العربي ولا سيما التعليم العالي لابناء الارض المحتلة في الجامعات العربية . وباستثناء قطريــن

عربيين يتحملان الان العبء الاكبر نجد ان باقي الجامعات العربية بما فيها جامعات مجاورة جدا للارض المحتلة ، تغلق ابوابها في وجه الطلبة الفلسطينيين . ويدل الخط البياني لقبول الطلاب الفلسطينيين في الجامعات العربية بوجه عام على تدهور شديد خلال السنتين الماضيتين مما ينذر بأوخم العواقب .

هذه هي صورة الوضع العام في الارض المحتلة من خلال المنظور الثقافي .

واذا اتينا الى الوضع الخاص نجد ان العدو الصهيوني لا يوفر اية وسيلة قمعية ضد الثقافة الفلسطينية العربية ، فهناك سياسة ابعاد المثقفين ، واعتقالهم ، ومنع نشر العديد من الكتب ، وحجب رخص الاصدار عن المجلات الوطنية ، وتشجيع المجلات المشبوهة وهناك قوائم الكتب العربية الممنوع تداولها ، وهذه القوائم تتضخم تدريجيا حتى وصل عددها الى ثلاثين الف كتاب ممنوع بعد ان اتخذ الحاكم العسكري سياسة منع اي كتاب له علاقة بالقومية العربية او بالنضال العربي او بالصراع ضد الغزو الصهيوني ، ويقوم جنود العدو باقتحام المكتبات العامة ودور بيع الكتب وكذلك المكتبات الخاصة في محاولة لتطهيرها من كل ما له صلة بالثقافة القومية .

يضاف الى ذلك مداهمة الفرق المسرحية ، وسرقة التراث الشعبي ، وطمس الاثار ، وغير ذلك من وسائل تغيير الهوية الثقافية العربية . وفي مقررات اليونسكو وهيئة الامم المتحدة والمنظمات واللجان الدولية الاخرى وثائق كافية حول هذه الموضوعات(١) .

(١) من أجل التفصيل يمكن مراجعة :

منظمة التحرير الفلسطينية ـ دائرة الاعلام والثقافة :

الثقافة الفلسطينية في مواجهة القمع الاسرائيلي ومحاولات الطمس والانتحال . حزيران ١٩٨٠ .

وهذه الدراسة القيمة قدمت اصلا الى مؤتمر وزراء الثقافة العرب الاستثنائي (دمشق ١٩٨٠) ونشرت في وقائع المؤتمر ، سبق ذكره .

وبما ان العلاقة وطيدة بين الثقافة والتربية فلا بأس بأن نشـير الى الاجراءات القمعية الاسرائيلية في هذا المجال مثل تغيير المناهج وتطهير الكتب المقررة واخيرا الىطرد الاساتذة والطلابواغلاق الجامعات والتحكم برخص افتتاح المدارس بمختلف مستوياتها. وقد اعطى القانونالاسرائيلي رقم ٨٥٤ لعام ١٩٨٠ كل هذه الصلاحيات للحاكم العسكري ، وبناء على ذلك جرى اغلاق جامعة بير زيت خلال الاسبوع الثاني من شهر تشرين الثاني عام ١٩٨١ لاجل غير مسمى ، وبعد مراجعات كثيرة ونتيجةالضجة المحلية ولتفجير الوضع في الارض المحتلة عدّل القرار بحيث يستمـر الاغلاق لمدة شهرين . وفي الوقت نفسه وجّه الحاكم العسكري انذارا شديد اللهجة باغلاق جامعة بيت لحم اذا استمرت موجة الاحتجاج فيها .

وهكذا يتبين ان العدو الصهيوني جاد في سياسة القمع الثقافي ، لانه يخطط لتجريد الارض المحتلة من هويتها القومية ، ولكن ماذا كانت النتيجـة :

١ ــ يزداد التمسك الفلسطيني بالثقافة العربية يوما بعد يوم ويتصيد الناس ما يصلهم من قطرات الثقافة العربية بشوق وظمأ .

٢ ــ مع بزوغ الثورة الفلسطينية وعودة الروح الى الشعب المشرد عادت الروح الثقافية الى اهل النكبة الاولى ، وبرز عـرب عام ١٩٤٨ يقدّمون للوطن العربي وللعالم أدبا جديدا مؤثرا يشـكو ويتألـم ويناضل ولكنه لا يكشف عن عقد مرضية ولا يسقط في قوالـب الاسلوبية ولا يبدد طاقته من خلال الخطابية . انه الادب الرائـد في مرحلتنا العربية المعاصرة . ويكفي ان يذكر المرء محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد واميل حبيبي وكثيرين غيرهـم . وصحيح ان هناك مجموعة من عرب الارض المحتلة ابتعدت بسبب محنة الحياة هناك ، عن ثقافتها ولغتها ولكن موجة الوعي الوطني تبدو الان اقوى من أي تخاذل .

٣ ــ استطاعت الثقافة الفلسطينية في الضفة الغربية والقطاع ان تتطور رغم حرا بالاحتلال ، باتجاه العمق والاصالة الوطنية ، وان تعوّض عما كان ينبغي ان تفعله في مراحل سابقة ، وهكذا خرجت عن نطاق الشعر والنثر ، مع الاعتراف بما حققه الادب من تطور ، وتفتحت فيها نشاطات مسرحية وتشكيلية وفولكلورية ، وتم تركيز الاضواء على الثقافة الشعبية والتراث الشعبي .

٤ ــ لا تظهر في الانتاج الثقافي الفلسطيني المعاصر اية تأثيرات صهيونية او هجينة . بل على العكس من ذلك تتجه الثقافة الفلسطينية لمقاومة الثقافة الصهيونية وتسخر من مرضيتها وانغلاقيتها ولا انسانيتها ، واذا كان صحيحا ان الوطن العربي بثقافتيه القديمة والمعاصرة هو المعين الذي تنهل منه الثقافة العربية الفلسطينية في الارض المحتلة ، فانه يبقى صحيحا ان الثقافة الفلسطينية ، ولا سيما في جانبيها الادبي والفلكلوري ، ترد الجميل مضاعفا وتغني الثقافة الابداعية (لا التأليفية) باصوات وطنية وانسانية رائعة ، فيها من الاحساس الصادق والكشف الثاقب والجمال الانيس غير المصطنع ما كان يحتاجه الادب العربي الحديث منذ زمن .

وهكذا تفيد الحالة الخاصة للثقافة العربية في الارض المحتلة ان الصهيونية ليس عندها ما تقدمه سوى التخريب والتشويش والقمع والانغلاقية والمرضية ، وانها لا يمكن ان تنهض باية حال في وجه الثقافة العربية بوجهيها التراثي والمعاصر . ولكن هذا الحكم بالطبع لا يسري الى الابد والصراع الثقافي قائم ومستمر ، وليس من الحكمة ان نبدد اوراقنا واحتياطينا مثلما فعلنا في مجالات اخرى كثيرة .

ولنتذكر في هذا الصدد ان ما قالته الكاتبة التشيلية فولوديا تايتليوم بشأن الامبريالية ينطبق تماما على الصهيونية :

« كل ما تفعله الامبريالية متوحش ، ولكنها دائما قادرة على ان تكون اكثر وحشية »(١) .

٥ ـ تصور عام لاسس المواجهة الثقافيـة

هناك حقيقة ثابتة مفادها ان الشكوى من عدم كفاية المستوى الثقافي او من قصور الثقافة او تدهورها تكرر نفسها على مر العصور والازمان ، بحيث يخيل لدارس تاريخ الانتقادات الموجهة للثقافة عند الامم والشعوب ان الثقافة ظملا ينطفيء او ان الثقافة مثل اعلى بعيد بعيد يصعب الاقتراب من صورته . وهناك دائما من يعتقد ان الاقدمين كانوا اكثر عمقا واكثر اصالة وامتن وجدانا واكثر جدية في التقرب من مسائل الثقافة . وهذا ما اكده في الماضي بمنتهى الجدية الشاعر اللاتيني اوفيد في قصيدتـه الطويلة « تغيرات » وما اشار اليه في زماننا بسخرية لطيفـة الكاتـب البريطاني سمرست موم في سيرته الذاتية « عصارة الايام » . وليـس يعنينا هنا ان نفصل القول في هذا الباب ، وحسبنا ان تظل هذه الحقيقة ماثلة في خلفية الذهن لدى التعرض لما يسمى لدى الكثيرين (ازمة الثقافة العربية) ، ولما يفضل البحث الحالي ان يسميه (معاناة ومناضلة) لاازمة ولا محنـة .

ان الاخطار تشتد اليوم على الثقافة العربية ، وتتكاثر عليها من كل صوب وحدب ، مما افسح المجال للمتشككين ومرضى النفوس وضعاف الايمان ان يتساءلوا مع المتامرين والدساسين وبنغمـة مـن الشـك ملحوظة او ملفوظة :

ـ ما هي الثقافة العربية واين هي ؟

ـ وهل لها دور في حياتنا المعاصرة ؟

(١) من كلمة تايتليوم في (اجتماع المثقفين من اجل سيادة شعوب اميركا) هافانا : ٥ ـ ١٩٨١/٩/٧ .

وبدلا من الدخول في مماحكات الجدل حول الماهية والكينونة والدور حسبنا ان نذكر من سوّلت له نفسه النسيان ، ان هذه المعاناة التي تعانيها الثقافة العربية اليوم ليست بنت هذا اليوم ولا امس الذي مر ، ولا أول من أمس . فلقد مرّت الثقافة في ازمات ومحن وتجارب صعبة ، لا يعود تاريخها فحسب الى منتصف القرن الماضي الذي نـسلت فيه ثقافة العرب من اجداث الخمول والنسيان الى وهج الشمس وتحدي الاحياء ، بل يعود الى عصور الانحطاط ، بل يعود الى عهود مواجهة الشعوبية ، بل يعود الى اول اصطدام هذه الثقافة الصحراوية البكر في عصر الفتوحات ببهرج ثقافة الفرس المغناج ، ووهج ثقافة اليونان المعتدة بنفسها الى درجة الغرور والتفريط .

هذه الثقافة العربية ، التي هي منا ونحن منها ، كتب لها أن تكون ابدا مناضلة مكافحة معانية لانها صورة صادقة لامة تتجدد خلاياها الاجتماعية باستمرار وتحمل بذلك دائما تفسيرات جديدة لمثلها القومية والانسانية تضعها ابدا في صدام مع نفسها ، مع واقعها القائم ، ومع الظروف من حولها ، مع الطامعين بها والمتربصين والمتآمرين .

واذن ينبغي الا يخيفنا ما يحيق بثقافتنا اليوم من اخطار وما ينتصب امامها من تحديات . وصحيح انها تواجه في المرحلة الحالية تحديات نوعية لم يسبق لها مثل في رأي بعضهم ، ولكن يبقى صحيحا ايضا ان الثقافية العربية اليوم تمتلك من الغنى والدربة والمرونة ومتانة الجذور ما يجعلها ثابتة مواقع الاقدام ، قادرة على لدفاع عن ذتها ووجودها ، غنية عن نواح النائحين ونحيب المشفقين ، ونحن العرب بعد كل تلك الهزائم وبعد كل ذلك الشقاق والتحزب والانقسام والتفتت لم يبق لنا من جانب قومي مشترك يضيء مثل ثقافتنا الواحدة الصامدة .

وليس يعني هذا الحكم بالضرورة ان الثقافة العربية قد استوت على قدميها ونضجت واصبحت تقدم لمجتمعها من توعية وتحريض وتربية

قومية وانسانية ما ينبغي ان تقدمه في مرحلة معطاة من الزمن ، او على الاقل ما ينبغي ان تعطيه لقاء ما تأخذه . فالمثقف العربي اليوم — وهو سادن هذه الثقافة وحامل مشعلها — يجد نفسه اسير صعوبة كبرى ناجمة عن ازدواجية المهام الموكولة اليه ، وهو حائر مضيّع بين ما يمكن ان يسمى مهمة ثقافية وما يمكن ان يسمى مهمة فوق ثقافية ، ذلك انه لكي يستطيع المثقف ان يوظف الثقافة لخدمة المهمات فوق الثقافية . اي لخدمة الاهداف القومية والاجتماعية والشعبية لابد من ان يعتمد اسلحة ثقافية صالحة ، للاستعمال ، ولن يفيده ابدا ان يستعمل الاسلحةالصدئة الخربة ويعيش على وهم الاعتقاد بانه يخدم ويترجم الاعمال الى اقوال ويرضي وجدانه ، ان الرفض بمعناه السلبي لا يقود الى اي مكان ، وان التقوقع بمعناه الانطوائي لايقود الى اي شاطىء امان . ان المثقف العربي شأنه شأن كل مثقف في العالم الثالث ، في عالم المناضلين ، مطالب بمهمات مزدوجة ، عليه ان يفكر ويقول ويفعل ايضا ، عليه ان يحارب بالاقوال والافعال وعليه ان يكون في صف الطليعة السياسية ، وعليه ان يتحلق مع رفاقه حول النار — كما يفعل الهنود الحمر ويسأل نفسه :

ما الذي ينبغي فعله من خلال الافكار التي تشعها النار ؟(١)

ان المثقف العربي ، شأن كل المثقفين المناضلين ، يحمل صليب مسؤولية متعددة الجوانب ، انها مسؤولية الحياة والوطن والمجتمع والثقافة ذاتها ، وبغير ذلك يصعب ان يكون للثقافة تأثير في المجتمعات الثائرة او النامية ، بل بغير ذلك يصعب ان يكون للثقافة تأثيرا في المجتمعات الثائرة او النامية ، بل بغير ذلك يصعب ان يكون للثقافةوجود. وما أجمل ما اوضح فرانز فانون هذه المسؤولية متعددة الجوانب :

(١) التشبيه مقتبس بتصرف من الكلمة الرائعة التي القاها الشاعر ارنستو كاردينال ، وزير الثقافة في نيكاراغوا ، في حفل اختتام اجتماع المثقفين من اجل سيادة شعوب اميركا (هافانا ٥ — ١٩٨١/٩/٧) .

« أن مسؤولية المثقف ليست مسؤولية عن الثقافة القومية ، بل مسؤولية كلية شاملة عن الامة باسرها ، التي ليست الثقافة الا جانبامن جوانبها . فالكفاح في سبيل الثقافة القومية انما هو كفاح في سبيل الحرية القومية » .

ويستطيع المرء ان يفسر جانبا من الصمود الثقافي للارض المحتلة بوجود مثل هذه الروح من المسؤولية القومية الشاملة التي لا تفصل الاقوال عن الاعمال .

ومن هنا كان واضحا ان العلاج النوعي للغزو الثقافي المضاد لا يكمن في وصفات محددة يمكن ان يتناولها المثقف على شكل حبوب او ملاعق طبية معيرة . كما انه لا يكفي في مواجهة الغزو الثقافي ان نحشر الوسائل التقنية لنشر الثقافة ، وان كانت هذه شديدة الاهمية ، بل هناك المشكلة الاساسية وهي مضمون الثقافة وطبيعتها وهويتها . وهي مشكلة لا تحل أيضا بجرة قلم ولا بقرار مجمع علمي ولا مسكوني ، ولكنها تحل عن طريق التفكير المخلص والنقاش في جو حر ديمقراطي ، وقبول الافكار الجماعية ، والتخلي عن عقلية الغاء الاخرين (السائدة في الجو الثقافي العربي) ، والتقرب من المشكلة الثقافية على انها عمل عام (والكلمتان مقصودتان لذاتهما) ، والتخلي عن النزعة الذاتية المفرطة ، بما لايتعارض مع شروط الابداع .

ولنترك المقاومة الرسمية والتقنية للغزو المضاد لمن هم اهل لها ، واعني وزراء الثقافة العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية ، ولنذكرهم بلجنة المتابعة التي شكلوها في خلال اجتماعهم الاول بدمشق في شهر تموز عام ١٩٨٠ والتي فطنوا لوجودها بعد مضي اكثر من عام على سباتها وقرروا ، خلال مؤتمرهم الثاني الذي عقدوه في بغداد في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٨١ ، احياءها واعادة العمل بها . ولنقل ان المثقف

العربي يضم جهده الى كل جهد بناء منظم يتصدى لمواجهة الغزو المضاد، ولكنه يحاول في الوقت نفسه ان يتلمس واقرانه طبيعة السلاح الذي يستخدمه في المعركة وفاعليته وافضل الطرق لصيانته وتطويره .

١ ـ وان اول ما يتبادر الى الذهن في هذا المجال انه في الثقافة كما في الصحة تظل الوقاية خيراً من اي علاج . وليس المقصود التحريم او المنع او الحمية ، ان المقصود هنا **وجود اساس متين للثقافة يحصنها ضد المخاطر والهجمات والتسربات** . ولسنا لنضع هذا الاساس اليوم او غداً ، فالاساس موجود والثقافة العربية تستند الى تراث عظيم سلسلة متواصلة من التجارب الثقافية في مجال تثبيت الذات ومقارعة الغزوات ، ولكننا نخشى عليها ان يؤتى الحذر من مأمنه ، وان تجد الثقافة المضادة ، والغربية على وجه التحديد ، طريقها الينا من خلال شدة تمسكنا بما نعتقد انه خاص بنا وتأكيد لهويتنا .

ولكي نتجنب هذا المزلق يجب ان نحافظ دائما على ما هو معاصر وحي وفاعل في الثقافة العربية . ونحن ، بوجود الغزوة الصهيونية وبدون وجودها ، مضطرون بحكم التطور لمواجهة تجربة المعاصرة . وها نحن اولاء في الثمانينات ، فكرنا العربي يتطور ، ومجتمعنا العربي يتغير بسرعة ربما عجز الفكر عن مواكبتها . والحقيقة الاساسية التي نحس بها هي ان انتماءنا للعالم المعاصر اصبح وطيداً مؤكداً ولا مهرب لنا منه لانه عنوان استمرارنا في الحياة . ان انتماءنا الى العالم المعاصر وثقافته هو بحد ذاته الخطوة الاساسية في مقاومة الغزو الثقافي ، لا يواجه بمجرد الرفض او بمجرد التحليل او ببناء سور مثل سور الصين . نحن نعيش في منطقة عربية كانت ومازالت مفتوحة للتأثيرات ولن يكون في مقدورنا ان نواجه الخطر من خلال سياسة اغلاق النوافذ . علينا ان نواجه باقامة البديل المعاصر ، البديل الفكري والفني والحضاري بوجه

عام . وبالطبع تعترضنا هنا قضية مضمون الثقافة التي نسميها عربية ، وقضية الحفاظ على الهوية والاصالة . وفي وهمي انه ليس من الصعب ان نقيم المعادلة المنشودة بين ثلاثة محاور تفعل فعلها اليوم في تكوين ثقافتنا المعاصرة سواء شئنا ام ابينا :

آ ـ الثقافة العربية الموروثة .

ب ـ المتطلبات الثقافية لمجتمع عربي متطور باستمرار .

جـ ـ المناخ الثقافي المعاصر في العالم .

ومن بين جميع شعوب العالم الثالث التي تخشى الانسحاق الثقافي ، نحن الذين يجب الا نخاف لان ما لدينا من الزاد هو دسم وغني وغير قابل للعطب ومحكك من خلال التجارب . وهكذا يحسن ان نتكلم قليلا عن الغزو وعن بنية الثقافة العربية المنشودة .

ولكن يجب ان يعرف المرء ـ كما اوضحنا من خلال تشخيص الوضع الحالي للثقافة العربية في اول هذا البحث ـ ان وضع المعادلة المنشودة ليس مسألة سهلة ولا سيما تحت وطأة الصراع الايديولوجي القائم في الوطن العربي . ان هذا الصراع ، بفعل عنفه وحدته ، وربما بفعل التجزئة ايضا ، لم يترك لنا الاالقليل مما هو مشترك ، ولاسيما عند التصدي للامور التفصيلية والمواقف الملموسة . ونحن نكاد نفتقد ذلك المقياس العام المشترك الثقافي الايديولوجي الذي يوحد بين المثقفين والفلاسفة والسياسيين والعمال والفلاحين فيما يبدو انه اجماع على خطوط كبرى في التوجه الثقافي عند كثير من الامم .

كأننا نحن نعيش بلا مسلمات وبلا منطلقات اساسية ، وما ان يبدأ أي واحد منا حديثه حتى يخطر للاخر ان هذه النقطة خاطئة وتلك غامضة والثالثة هجينة . ولذلك غالبا لا نصل الى اية نتائج ولا يتطور حوارنا

لاننا نبقى أسرى الخلاف حول كثير من المنطلقات والنقاط الاساسية ، وان دل هذا على شيء فانه لا يدل على ان ثقافتنا مضطربة وهويتنا ضائعة ، وهذا ما يود المرء ان يؤكد عليه باستمرار في وجه تفسيرات سلبية كثيرة ان هذه الظاهرة تدل على اننا غارقون الى الاذقان ـ بما في ذلك اولئك الذين يظنون انهم بعيدون عن الامر ـ في عملية تكوين الايديولوجيا الثقافية العربية المعاصرة . ذلك لان الايديولوجيا ليست شكلا مسقطا اسقاطا متعمدا لا من الماضي التراثي ولا من التجارب الاخرى لمجتمعات معاصرة ، وكل اسقاط ايديولوجي يحمل في ذاته خطر اضطرابه . ومانظن الا ان الصراع في الوطن العربي يتجه باتجاه تكوين الايديولوجيا (الثقافية على الاقل) من خلال العناصر التي اشرنا اليها سابقا والتي يمكن لها ـ عندما تتبلور في شكل معادلة واضحة ـ ان تكون دافعا قويا للمثقف العربي والمواطن العربي نحو الابداع ، وحاجزا واقيا من التشتت والبلبلة وتذبذب المعايير والمواقف .

٢ ـ والامر الثاني الذي يخيل للمرء ان التمسك به هو الطريق الطبيعي للتوصل الى القياس المشترك والمعاصرة ووضوح الرؤية ، وكذلك الى احباط الغزو الثقافي هو **الالتزام بالفكر العلمي وبالمنهجية في البحث ، وبما يتبع ذلك من موضوعية وشجاعة في مواجهة الذات** . وهنا ينبغي ان نفرق بشدة بين ماهو استعماري او خاص او ذو قيمة تاريخية في الحضارة الغربية وبين ماهو انساني وعلمي وتقدمي وجوهري . ان العلمية في هذا العصر هي هادي الحياة وضمانتها باتجاه التطور وكذلك اتجاه الصمود في وجه التحديات . ومن الملاحظ أن الحديث يدور حول العلمية بوصفها منهجا للتقرب من الحياة لا عن العلم بوصفه تطبيقا لهذا المنهج . وقد خيل لبعض المنظرين انه من الممكن أخذ العلم دون الروح العلمية وذلك تجنبا لما قد تجر اليه الروح العلمية من اشكال بالنسبة للتقاليد والمعتقدات والعادات السائدة . وجوابا على ذلك لابد لنا من

التذكير بأن العنصر المشترك بين جميع الامم المتقدمة في عصرنا الحاضر على اختلاف ايديولوجياتها ومصالحها ونزعاتها السياسية هو **الروح العلمية** . وهذه الروح هي محرك الحياة الحديثة ، وهي ليست ملكا لفرنسا او لبريطانيا او للاتحاد السوفياتي او لاميركا ، انما ملك حضارة العالم المعاصر .

وبالطبع يترتب على الروح العلمية التزام الشجاعة والموضوعية فيما يتعلق بدراسة انفسنا ومجتمعنا وتراثنا ولغتنا ، وليس غير الروح العلمية شيء يفيدنا في فهم انفسنا وجوانب ضعفنا وقوتنا . وهناك جوانب سلبية في حياتنا علينا ان نجابهها بجراة بدلا من ان نرش السكر على الموت كما يقول المثل الشعبي . وعلينا كذلك ان نكف عن الانسياق وراء التعميمات الكبيرة وراء بعض المسلمات التي تتضمن القاء اللوم على الآخرين ؛ علينا ان نكف عن مضغ كلمتي الاستعمار والتخلف كانما هما الحجران السحريان لتسويغ كل عجز وكل تقصير وكل كبيرة وكل صغيرة .. ولقد استطاع الاستعمار في فترة ما ان يطيح بكثير من قيمنا وان يفسد خط تطورنا ، ولكننا الآن امام تحدي العمل باتجاه بناء قيم جديدة والمفروض اننا اصبحنا اكثر قدرة على احباط مآربه .

ومن اسف ان الانسان يجد نفسه الآن ، بعد مضي حوالي قرن من الزمان على بدء عصر النهضة العربية ، مضطرا لان يكرر الكلام حول اهمية الروح العلمية بما يكاد يذكر بمواعظ المصلحين الاوائل ومحمد عبده على وجه التحديد . وبالطبع نحن نفرق هنا بين العلم وبين ما نسميه الروح العلمية ، ونؤكد ان هناك اتجاهات في الوطن العربي ، اخذت مجددا تقوى بفعل عوامل مصطنعة ، تحاول ان تصرف الانظار عن الاتجاه العلمي لمصلحة الخرافة والغيبية لان ذلك يلائم بساطة مصلحة الطبقة المسيطرة ، وتحاول هذه الاتجاهات أن تختبيء تحت مظلة الاصالة

والنقاوة والخصوصية الثقافية(١) ، وصد الغزوة الثقافية وقد أثبتت التجربة ان اكثر القطاعات الثقافية تعرضا للتضليل والدسيسة الثقافية هي الفئات غير المسلحة بالروح العلمية ومايتبعها من موضوعية وتحليل وجراة في **المواجهة** .

٣ ــ والاتجاه الثالث الذي لابد ان تمضي فيه الثقافة العربية عمقا هو **الاتجاه الشعبي** اتجاه التجاوب مع الاحتياجات الثقافية والفكرية لجمهرة الناس في المجتمع العربي المعاصر والخروج من دائرة ثقافة النخبة التي تنظر الى الجمهور بنوع من التعالي الشديد . ومالم يشترك القارىء العادي والمشاهد والمستمع في تذوق ماتقدمه الثقافة العربية في نقدها وفي الاسهام بها فانالثقافة لن يكون لهادورها المحرض أو العلمي وستبقى تاجا من الزينة على راس المثقف المعزول السادر في دفء برجه العاجي .

(١) من اطرف ما اتفق لي بهذا الصدد ان احد الطلبة الجامعيين اعترض عليّ لانني طلبت الا يقاطعني في الكلام وقلت له « الاصل في ادب المناقشة ان استكمل كلامي ثم بعد ذلك لك عليّ ان تردّ بما شئت وسامنحك الوقت الكافي » . واجابني الطالب بحدة : « انك غارق الى اذنيك في العقل الغربي ، فالعقل الغربي هو الذي وضع هذه الاسس للنقاش » واذكر انني سالته :، هل العقل الشرقي يجيز المقاطعة في اثناء النقاش ؟ ... كما اذكر ان احد اساتذتنا الاجلاء كان يتحدث في مجلس جامعي في شهر تشرين الاول من عام ١٩٨١ ، وكان يقول ما فائدة هذه النقط والفواصل التي امتلات بها الكتب المدرسية ولا أدري ما الفرق بين النقطة والفاصلة . ولما ناقشته محاولا ان أبين الفوائد الدينامية للتنقيط في الكتابة الحديثة استشهد بكتب الجاحظ التي يمكن ان تقرأ دون علامات تنقيط . ولما بينت له ان الذين يستطيعون قراءة كتب الجاحظ محدودون جدا في العدد وان طبعات الجاحظ المنقطة افضل بكثير أفاد انه في حالة اضطرارنا لاستعمال التنقيط فلماذا لا نحيي أساليب التنقيط العربية القديمة واهمها الدائرة ... وهذا الاستاذ الكريم بعد كل ذلك ليس من المتحجرين بل هو معروف بالمرونة وسعة الافق .

ولقد أوردت في القسم الاول من هذا البحث احصاءات عن عزلة الكتاب العربي . واود أن أضيف الى ذلك أن جماهيرية الثقافة كفيلة بأن تحررنا من النظرة التقليدية التي مازالت سائدة حتى الآن والتي تتركز على الكتاب والقصيدة بوصفهما المظهرين الاساسيين للثقافة الرفيعة . ان الاتجاه الشعبي سوف يمنح الحياة للممارسات الثقافية الاخرى المهمة وفي مقدمتها المسرح العربي الذي لم يوضع بعدفي خدمة الجماهير . وهناك الرسم والموسيقى والنحت . وهناك السينما ايضا التي قطعت شوطا لاباس به في بعض البلاد العربية ولكنها تعاني من تهافت افلام القطاع الخاص على التجاوب مع النزعات الدونية لدى الجمهور . وقد ذكرت سينما القطاع الخاص عمدا لاشير الى أن المقصود بالثقافة الشعبية هو ابعد مايكون عن تملق الجوع الجنسي أو استعارة موجة الاجرام في السينما الامريكية. ان المقصود هو معالجة مشكلات الناس الحارة بروح من البساطة والاتجاه العلمي مع حرص على اشاعة جو التعاطف الانساني والتواد والعمل المشترك . ويقدم لنا الادب السوفياتي والادب الاميركي الواقعي في الثلاثينات وادب اميركا اللاتينية اليوم نماذج ممتازة لهذا النوع من الادب المتصل بحياة الجمهور . على أن المطلوب ليس التقليد الحرفي للنموذج . بل الانطلاق من روح التجارب المختلفة والاستفادة منها في طريقة التجاوب مع المجتمع العربي المعاصر .

وتتصل بهذا الموضوع أشد الاتصال قضية **اللغة العربية** . وان المرء يتحدث عن هذا الموضوع بخشية وفرق ، لان لغتنا العربية تعرضت منذ مطلع القرن ، بل منذ زمن التتريك في العهد العثماني ، الى سلسلة من حملات التشكيك والمحاربة ، وحتى اليوم هناك حملات مستمرة يقوم بها عملاء الثقافة المعادية والانعزاليون . وهذه الحملات المسمومة انتجت لدى معظم المثقفين انكماشا وتشددا بدعوى الحفاظ على اللغة العربية . ولكن من يحصي عدد الكتب المطبوعة بالعربية من المحيط الى

الخليج ، ومن يستمع الى الاذاعات ومحطات التلفزيون ، ومن يتابع المجلات الخاصة والنشرات الرسمية ، ومن يستمع الى الدروس العلمية في بعض الجامعات العربية ، يخرج باستنتاج واضح هو ان اللغة العربية اجتازت امتحان المحافظة على الذات ولم تعد مهددة مثلما كانت في مطلع عصر النهضة . وهي الآن تخوض مرحلة جديدة ، مرحلة ان تكون لغة مجتمع بأسره لا لغة فئة نخبوية . وهذا يستدعي من المختصين ان يقوموا على خدمة هذه اللغة المقدسة الجميلة في ضوء معطيات اللغويات الحديثة والدراسات النفسية والاجتماعية لكي يصلوا بها الى أن تصبح المعبرة عن روح الجمهور . ان مقاومة الهجمة على اللغة لاتكون بالتجمد ولا بالتصلب ولا بالرجعة الى الوراء ، وانما تكون بوضع اللغة العربية أمام الامتحان الجماهيري ، مما سيوفر لها ان تظل حية ومتجددة ومرنة ومتجاوبة مع روح العصر .

٤ ــ وبالطبع كل ماذكر حول تصورات الثقافة العربية ينبثق من مفهوم النضال والالتزام . ذلك أن الحديث عن مقاومة الغزو الثقافي وعن شعبية الثقافة وعن قوميتها انما يندرج تحت اطار أوسع هو اطار **الالتزام النضالي** . وبما ان الالتزام فهم في البلاد العربية بأشكال مختلفة وكانت له احيانا نتائج سلبية على مستوى الانتاج الثقافي لانه استخدم مظلة للتغطية على ضعف الموهبة او الديماغوجية او الغوغائية فان المرء يجد من الضروري التشديد على ان الالتزام المنشود هو التزام نضالي ثقافي ، اي انه نابع من متطلبات النضال ومنبثق من وجدان المثقف المناضل . وبذلك يكون مبرأ من الخطابية والشعارية والحماسة الوقتية و (التفكير الموجي) الذي هو آفة واقعنا السياسي الحالي . وبذلك يختلف المثقف عن الاعلامي ، عن المعلق الصحفي والاذاعي ، على الرغم من وجود ارضية مشتركة بين المهمتين . ان دور المثقف هو أن يفهم ما هي مصلحة الامة ومصلحة الجماهير وأن يتجاوب مع أهداف نضالها ، ولكن بشرط ان

تكون له رؤيته الخاصة وحيطته وحذره من دفع الناس الى المزالق ، الى الحماسة المفرطة او الياس او الخيبة . ان العمل لصالح الاهداف الوطنية ـ كما اوضحنا في مطلع البحث ـ هو من صميم المهمات النضالية للثقافة ، ولكن العمل ايضا لصالح عقلنة التحرك باتجاه هذه الاهداف يجب ان يكون في صميم مهمتها . وذلك لكي يوفر المثقف على نفسه وعلى شعبه الخيبات العامة التي تنجم عن عدم الاهتداء الى شكل النضال الأفضل أو الى الارتماء في مزلق العاطفية او المغالطة في مثل المناخ السياسي العربي الراهن الذي اصبح من مصلحة فئات كثيرة حاكمة فيه خلط الحابل بالنابل واضاعة القضية الاساسية .

وهذا لا يعني أن نعرقل الاهداف أو نثبط حماسة الناس او نضع العصي في العجلات، وانما يعني ان من واجبنا توجيه الاسئلة والاستفهامات ونقد ما نعتقد انه منحرف عن جادة النضال العام . ويجب ان نقترح وأن نتفاعل مع الطليعة السياسية في مجال التصورات العامة ويجب ان يكون كل ما ندعو اليه نابعا من قناعتنا . وماذاك فحسب لاننا يجب الا نسهم في عمليات خداع ، وما ذاك فحسب لاننا يجب ان نحفظ خط الرجعة ولا ندفع الجماهير الى ما نعتقد انه سيقودها الى الخيبة والفجيعة ، ولكن كذلك لان ثقافتنا نفسها تكون زائفة اذا لم تكن بنت القناعة الوجدانية ، وليس من الحق ولا من المجدي ان نحرك الناس بثقافة زائفة . ثم اننا مطالبون بنوعية في المواقف وملموسية ، مطالبون بصياغة النموذج ، مطالبون بتقديم ثقافة معافاة وابداع أصيل يكون ممتعا ومفيد وجذابا ولا يكون عبئا او ضريبة على الناس كما هو الحال في مواضيع عديدة .

ومن أجل هذا يجب أن يكون التزامنا مرتبطا بالمناداة المستمرة بحرية المثقف وبدوره الطليعي، وبديمقراطية الثقافة وبالحفاظ على خصوصيتها .

وجديته اوجماليتها واتقانها ، ذلك انه حتى تكون الثقافة مؤثرة يجب أن تكون ثقافة اولا وأخيرا . وكذلك لكي تكون الثقافـة مؤثرة يجب الا تتعارض اية تصورات لها مع الشرط الاساسي الذي بغيره لا تكون ثقافة ، وهو **الابداع الحر المتوهج .**

* * *

واخيرا يأمل المرء ان يكون البحث الحالي قد توصل الى اقناع القارىء بخط مطرد خلاصته ان الغزو الثقافي يهدف الى تحقيق لا عروبة الثقافة وأن التصدي لهذا الغزو يجب ان يهدف الى خلق ثقافة عربية متصفة بالحيوية والمعاصرة . وهناك من الدلائل ما يشير الى أن الطريق ليس غير سالك ولكنه غير مفروش بالورود .

* * *

الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطورها في مواجهة أشكال الغزو الثقافي

مفيد نحلة
(الأردن)

مدخل :

اين تقف ثقافتنا العربية في ظل متغيرات هذا العصر ؟

سؤال يطرح نفسه دائما ، وللاجابة على هذا السؤال ، لابد ان نؤكد على مجموعة حقائق منها :

- ان ثقافتنا العربية تؤمن بضرورة التطور ، ذلك لانها منفتحة على الثقافات المختلفة تأخذ منها وتعطي .
- كما ان الثقافة العربية لا تعيش بمزاج عصر سابق ولا تتقبل مزاجا اجنبيا تنصهر فيــه ، ولكنها تجعل من جذورها مرآة لاندفاعها نحو الكمال .
- وتؤمن كذلك بأن التوقف ضد طبيعة الحياة ، ذلك لانهــا تملك القدرة على الانطلاق والتجدد دون أن تفقد عامل الوحدة والارتباط بالماضي ، وهكذا ستظل قادرة على تشكيل نفسها حسب حاجات العصــر واختلاف البيئات دون أن تتخلى عن قيمتها ومقوماتها الاساسية .

هل استطاعت ثقافتنا العربية الوقوف أمام تيارات الفكر المتشعبة؟.

واذا صحّ ذلك فالى أي مدى تحقق لنا هذا الحد من الانجراف وراء تلك التيارات الفكرية ؟

اننا اذا اردنا ان نتحدث عن آفـاق التطور الثقافي في عالمنا العربي سنرى ان هذا التطور يتزامن مع التطورات الاخرى في تنظيم المجتمع العربي والفكر العربي ..

واذا كانت الثقافة وتطورها وثيقة الصلة بكل ما في المجتمـع من جوانب حضارية ، فان تأثيراتها الايجابية تظهر واضحة في التكامل البنائي لهذا المجتمع ، وينعكس هذا التكامل سلبا وايجابا حسب مراحل التطور الفكري والثقافي .

ومن هنا يأتي دور تأصل الثقافة ، وتظهر هذه الاهمية حين يتعمق التأصل الثقافي في الانسـان نفسه .. (فبقدر تعلقنا بقيم التراث ينبغي دوما محاولة تجاوز ذلك الى قيم أوسع تحولا وأعلى منالا ، وهي القيم الانسانية الخالدة في جوهرها ، والمتغيرة في مظاهرها حسب العصور والمجتمعات ، ولكن ليس لثقافة من الثقافات الحيّة أن تسعى اليها ، الا عن طريق الانغماس في التربة القومية ، فاذ ذاك تكون نفحات الانسانية عابقة فيها من حيث لم يقصد اليها ..

وهنا يطرح سؤال نفسه مجددا ، اين مكانة الفرد من الثقافة ؟ .

لابد ان نشير الى حقيقة ازلية ، اذ ان مكانة الفرد في الثقافة العربية كانت وما زالت حتى يومنا هذا محورا للعمل الجماعي ، وظلّ الاتجـاه الى الجماهير الشعبية منذ القدم لتسيير الثقافة والانطلاق بها الى الامتداد الارضي هو الهدف .. وهكذا تشكلت المعادلة الجادة والتي تقول : (بأن الثقافة لا تكون صادقة الا اذا كانت وترا مشـدودا بين ما ينزع اليه الفرد من طموح وابداع وبين ما تحتاج اليه الجماهير من وعي) .

وإذا كانت هـذه هي المعادلة التي نتجت عنهـا ، فان كثيرا من الاشارات التاريخية والزمنية تتوقف عند زحف الاستعمار على منطقتنا العربية بكل أشكاله .. وثبت من خلال الدراسة والمعاناة والمعايشة ان الاستعمار الثقافي كان يسعى دائما الى بتر المثقفين العرب عن ثقافتهم الاصلية وربطهم بقيم الحضارة الغربية ، واقناعهم بأن هذه القيم هي حقائق انسانية مطلقة ؟ .

وظهر من يتساءل :

اذا كانت ثقافتنا قد تخلفت عن ركب الحضارة ، فهذا يعني أن هذه الثقافة لا تستطيع مسايرة التطور والتقدم.. وهكذا بدات معادلة اخرى ترتسم في اذهان الاجيال .. (الثقافة القديمة لا تصلح للحياة المعاصرة المنطلقة نحو آفاق التقدم ، ومن ثم فالبديل غزو ثقافي للانتقال من هامش التاريخ الى الحياة المعاصرة) .

واقترابا من هذه المعادلة يصبح المجتمع غير قادر على التحرك باتجاه فكري اصيل .. وعليه اذن ان يتقوقع وان يتشقق من الداقل ..

وتبقى المسألة خطيرة حينئذ .. ذلك ان الانحلال التدريجي سوف يأكل المجتمعات الصغيرة ولا يبقي عليها ، وبذلك تنعكس آثار هـذه المعادلة بشكل سالب لا يصدق ..

ثمة شيء خطير ايضـا ، هو ان هـذه التقطعات الفكرية ناجمة عن تناقضات عديدة في المجتمع الواحد .. ولعل اهم مصدر لهذه التقطعات في المجال الثقافي هذه الثنائية بين انماط ثقافية تقليدية ونماذج ثقافيـة دخيلة مستوردة ..

وهنا لا بد أن تقف ثقافتنا الواعية حيث تصبح قادرة على تشكيل المجتمعات وتكوينها من خلال معيار ملتزم بأسس ثقافيـة متطورة .. لعلها تساير ما يجري ، ولعلها تلتزم بأصالة التراث الحضاري .

ذلك أمر صعب ..

ولكنه ومع ادراكنا لنمو ثقافتنا تصبح الامور الثقافية ميسورة من خلال منظور تاريخي ، ومن خلال معيار فكري متقدم ..

ذلك مطلب ، ومن اجل هذا المطلب الشعبي يصبح لزاما على كل المثقفين العـرب أن يتمحوروا حول اسباب التقدم الفكري و الثقافي ، وهذا يعني أن جماهير الشعب الواعية تظل قادرة على امتصاص كـل الافكار الوافدة وبلورتها بالطريقة التي تخدم اهداف الامـة ، وتدفع الأجيال لأن تركز من خلال انتقائها مع ما يتلاءم واصالة هذه الامة لكي تكون انطلاقاتنا الحضارية قوية ومتقدمة ..

وعلينا والحال هذه أن نسعى جادين الى وضع ثقافتنا الوطنية على المحك ، بمعنى اننا يجب ان لا نغفل أن من اسباب نجاحنا في الماضي هو قدرتنا على التحكم بكل قنوات الفكر المفتوحة على ثقافتنا ، وهـذا يلزمنا الآن : أن نفتح المجال وبشتى الطرق لان يكون احتكاك بين ثقافتنا وثقافات العالم المتطورة .. ومتى تحقق ذلك يصبح من الضروري ان يكون هناك التزام ، لئلا تحدث مفاجآت أو فراغ .. وكثيرا ما تحدث تلك المفاجآت في ثقافة احدى البلدان النامية حين تتعرض لغزو ثقافي متطور . فلا تلبث أن تنهار تلك الثقافة الوطنية لذلك البلد امام ذلك التيار الثقافي القوي ..

ان ثقافتنا العربية وعلى مر العصور اثبتت انهـا قادرة على ملء الفراغ حتى في حالات الانحطاط والسقوط .. وظلت كذلك تنير الدروب المعتمة أمام اولئك الباحثين والدارسين والمستشرقين ، واثبتت لهم بأن هذه الثقافة هي الوسيلة والركيزة لإعادة لملمة الوطن العربي ، وتجديد نشاطه في الوحدة والانبعاث والتقدم ..

وقبل البدء بالبحث عن مفهوم التنمية الثقافية وابعاد التطور الثقافي لا بد من وقفة قصيرة حول معنى الثقافة .

❊ ❊ ❊

الثقافـة :

تعريف ومفهوم :

الثقافة كلمة عريقة في لغتنا ، بمعنى صقل النفس والمنطق والفطانة، ثـم استعملت للدلالة على الرقي الفكري والادبي والاجتماعي للافراد والجماعات(١) .

وكما أن كلمة ثقافة عند استعمالها في لغتنا العربية هي كلمة مجازية ماخوذة من تثقيف الرمح أو تسويته فهي في اللغة الانجليزية ايضا مجازية، واذا تجاوزنا المعنى اللغوي لكلمة الثقافة واخذنا المعنى الاصطلاحي الذي اصبحت تأخذه الكلمـة في مجالات الادب والتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع العام وعلم الاجناس فاننا نجد لها العديد من المعاني والتعريفات والتفسيرات التي تختلف في اتساع أو ضيق معناها من تعريف الى آخر.

ومن هذه التعريفات الشاملة والعامة ما فسّرها به الدكتور عبد الله عبد الدايم في بعض ابحاثه ـ من انها انماط السلوك المعنوي والمادي العائدة لدى شعب من الشعوب ، وتدخل في ذلك انماط السلوك الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس وسواها من مظاهر الحياة المادية كما تدخل فيه انماط النتاج الفكري والادبي والفني والعلمي .

وجوهر هذا التعريف يثبت بالدلالة على أن ثقافة اية أمة هي التي تحدد اصـالتها وتميزها عن اي امة فوق هذه الارض ، ومن هنا كان الشرط الاول للثقافـة واصالتها او خصوصيتها اي تعبيرها عما يميز شعبـا عن آخر . وتصويرها للهوية الخاصة بكل امة ، ونقلها للعطـاء المتفرّد الفذ الذي تود أمة من الامم ان تضيفه الى تراث الانسـانية ، ومن هنا حق ان نقول ان لا ثقافة لمن لا اصالة عنده اي لمن لا يملك من التجارب الفكرية والادبية والفنية والذاتية الفريدة ما يقدم بـه رافدا جديدا للجهد الانسـاني الشـامل(٢) .

وهكـذا يتحدد لنا الآن ان الثقافة بمعناها الواسع تشمل مكانة انماط السلوك الانساني ماديا ومعنويا .. كما تشمل العادات والتقاليد والاعراف والقيم والخبرات والاتجاهات والنظم السائدة في المجتمع والمؤسسات الموجودة فيه ، فهي تشمل كل ما صنعه الانسان بيده أو انتجه بعقله وفكره من علم وفنون وتقنيات ومصنوعات ليحصل على أمنه واستقراره وليحقق حاجاته الجسمية والنفسية والاجتماعية انها تشمل الاهداف التي حددها المجتمع لنفسه والقيم التي يدين بها ، والوسائل التي يستعملها الناس ، واللغة التي يتحدثون بها ، والقوانين والتشريعات التي يتعاملون من خلالهـا في مجتمعاتها المحلية والادوات الي يبتكرها الانسان ويستخدمها في انتاج السلع والخدمات التي يحتاجها لاشباع حاجياته الصناعية التي انتجها والمنشآت التي طورها ..

ومن خلال هذه المجهودات الحياتية تتوزع أسباب الحياة ، لتصل الى كل يد عاملة ، ولتصل الى كل عقل يفكر ، وهكذا تترابط الحيـاة البشرية ، وتتوثق من خلال ثقافة حرصت على بلورة هـذه الاهداف ورفعتها درجة فوق درجة في بناء متكامل مرحليا وتكنولوجيا ، ووسعت الطرق المفتوحة من حوله ليبدأ حياته العملية قويا راسخا .

ومعنى هذا ان الثقافة تشمل اللغة والعادات والتقاليد والمؤسسات الاجتماعية والمستويات والمفاهيم والافكار الى غير ذلك مما نجـده في البيئة الاجتماعية من صنع الانسان .. والثقافة في التراث الاجتماعي الذي اخذه الجيل الحاضر من الاجيال السابقة والذي لا يستطيع الجنس البشري بدونه أن يصبح بشرا .. لان هذا التراث الاجتماعي هو الذي يميزه عن الحيوان ، ويتميز هذا التراث الثقافي عن التراث البيولوجي في أن هذا الاخير يولد الانسان به ولا ذنب له فيه ولا يستطيع تغييره ، أما التراث الاجتماعي فهو الذي يعيش فيه .

وفي اطار المعنى الواسع المتقدم للثقافة (يذكر عبد المنعم الصاوي) في أحد كتبه التي تعرض فيها لتعريف الثقافة ان الثقافة ليست هي

التعليم ، وان كان التعليم احد اسسها ووسائلها ، كذلك ليست الثقافة هي التربية وان كانت التربية ذات تأثير عليها .. كذلك الثقافة ليست هي العلم ، وان كان العلم كالتعليم والتربية له اثره على الثقافة ؛ كذلك الثقافة ليست هذه العادات والتقاليد .. وان كانت هذه .. العادات والتقاليد ذات اثر كبير على الثقافة ، كذلك الثقافة ليست هي الدين ولا العقيدة والمذهب ، وان كان للدين والعقيدة والمذهب اكبر الاثر على الثقافة « ان المعارف وحدها لا تكون الثقافة ، كذلك لا تكونها الانطباعات الوجدانية وحدها ولا العادات والتقاليد وحدها ولا القيم الاخلاقية وحدها وانما تتكون الثقافة من كل ذلك .. » .

وبعد هذه المجالة فاننا نتوصل الى التفسير التالي للثقافة :

ـ انها حصيلة ما يتجمع في العقل من معارف وما يكمن في الوجدان من انطباعات ، وما يستقر في الضمير من عقائد ، وما يرسب في النفس من عادات وتقاليد .

واذا كانت الحضارة هي المظهر المادي للثقافة فان الثقافة هي المظهر العقلي للحضارة .

والحضارة تترجم الثقافة الى تصوير ونحت ونقش وبناء وآثار فنية أخرى فتدل على الثقافة دلالة مادية تبقى على مرّ الزمن .

كذلك فالثقافة تترجم هذه الحضارة المادية الى مذهب عام في السلوك ، يعكس القيم المختلفة في الحياة العقلية والوجدانية والمادية والاخلاقية جميعا ، فالحضارة والثقافة اذن متقابلتان .

وهذه التعريفات تقودنا للتوقف قليلا عند بعض الحواجز الاجتماعية والتداخلات المتزامنة مع بناء تلك المجتمعات ذلك ان الثقافة بمعناها العلمي الواسع تتضمن كل ما يمكن أن يعلم عن طريق العلاقات الانسانية المتداخلة ، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية جميعا .

ومن خلال هذه الملاحظة الدقيقة ، يتراءى لنا قدرة الثقافة على خلق المجتمعات البشرية ، اذ عن طريقها يتم انتقال عمليات التعليم والتعلم سواء كانت هذه العمليات منتظمة أو غير منتظمة ، وهنا يأتي دور ثقافة المجتمع لبلورة النماذج المتصلة بـه اتصالا وثيقا عن طريق التقاليد والعادات للجماعة البشرية .

* * *

المسائل الثقافية بين التصنيف والمحتوى ..

ما هو دور الثقافة على المستوى الفردي .. ؟

وهل ثقافة الافراد في اي مجتمع تخضع لمزاجية اولئك المتعلمين ..

واذا كان الامر كذلك فكيف نفسر ارتباط الثقافة بالعلم ذاته .. ؟

وللاجابة على هذه الاسئلة لا بد ان نتوقف قليلا عند حركة الافراد في المجتمع ، فعلى المستوى الفردي تصبح الثقافة عامة ، فليس هناك من هو مثقف في التاريخ مثلا ، بل هناك عالم في التاريخ ، هناك مدرس في التاريخ .

وهي أن الثقافة عند الافراد صفة عقلية ، في تكوين اولئك واتساع أفقهم ..

وبما أننا نعيش في عصر العلم فانه من الطبيعي ان يستخدم الفرد بعض ثقافته من العلم بعد أن يدرسه ويتمثله تمثلا جيدا يحيله الى جزء من كيانه العقلي والنفسي وكل علم لا يتم تمثله على هذه الطريقة يصبح قليل الجدوى لا فائدة منه(٢) .

وعلينا ان نذكر ، ونحن نعتبر العلم اهم مصادر الثقافة ان العلم آلات وتقنيات بل هذه كلها آثار للعلم ، والعلم في حقيقته طريقة ونظرة معينة الى المسائل او اسلوب للحياة وايمان بالذكاء الانساني .

وحتى يصبح الفرد مثقفا ، عليه أن يكون متخصصا ومتعمقا في علمه، كما عليه أن يكون ملما بالقضايا الكبرى للعلوم وما احدثته هذه القضايا من تغييرات عصرية وتأثيرات فكرية في الحياة الانسانية .. وعليه والحال هذه أن يكون على مستوى حياة العصر الذي يعيش فيه ، كما عليه أن يتابع تلك القيم الجادة ، والتي ترفع من مجتمعه الى مصاف المجتمعات المتطورة والمناضلة ، وهنا يستطيع الفرد المثقف ان يبذل قصارى جهده في سبيل التغيير الواعي .. لا ان يضرب عرض الحائط ما جاء به الآخرون من ثقافة وتقدمية ويهملها او يتغاضى عنها لانها لا ترقى بمجتمعه أو لانها لا تستطيع رفعه بين المجتمعات الاخرى .. وهذا يتطلب من كل المثقفين النظرة الشمولية للمواقف الحياتية والانسانية كما يتطلب التمسك بعنصر الاختصاص وما يرتبط به من امانة وتشبع بروح الخدمة الاجتماعية والمشاركة الجماهيرية الصادقة والمثابرة .

ومن هنا تبرز مسالة ثقافية من طراز رفيع ، وهي ان المثقف بما يحمله من وجدان يرتبط بآمال الجماهير وآلامهم وأحزانهم ، وهو الذي تقع عليه مسؤولية تجاوز التخلف الذي يشوه المجتمعات المحلية والتي ارتبطت الى حد كبير بالقيم الجديدة الوافدة عليها من الثقافات الهزيلة ، واذا كان هذا هو دور الانسان المثقف ، فلأن دوره طليعي ومن كان طليعيا فهو ملتزم وعليه فلا بد ان تظل حركته واسعة ولها قدرة على احداث التغيير الشامل ونمو الفعاليات المتقدمة واتساع آفاقها ..

وما دمنا بهذا الصدد.. فلا بد ان نلقي نظرة موضوعية علىتقسيمات الثقافة وخصائصها العامة ..

* اورد الدكتور عمر الشيباني في احدىمقالاته بعض تقسيماتالثقافة ونمو اشكال مجتمعاتنا المحلية العربية معتمدا في ذلك على شرح متكامل لهذه التصنيفات الجديدة .

* الثقافة المادية ..

وهي الثقافة التي تتمثل في انماط المأكل والمشرب وانواع الادوات المستخدمة .

* الثقافة المعنوية . .

وتتمثل في المعارف والافكـار والمشاعر والعلوم والآداب والفنون وهذه التقسيمات صورية . انها متداخلة العناصر .

واذا جاز لنا أن نقسم الثقافة حسب المحتوى والانتشـار وتوزعها في المجتمعات الصغيرة والكبيرة فان الامر يصبح مختلفا تماما . .

فهي في محتواها تتوزع على مستوى فردي وجماعي ، وتكون عند الافراد ذات صفة عقلية ، في حين انها عند الجماعات تكون شمولية لانها تنسحب على اللغة والعادات والقيم والتقاليد .

اما اذا انتشرت الثقافة فيكون انتشارها على الشكل التالي :

ـ ثقافة محلية ـ ثقافة وطنية ـ ثقافة اقليمية ـ ثقافة عالمية .

* أما علماء الاجتماع فان لهم رايا آخر ، ذلك انهم ينظرون الى الثقافة من زوايا متغيرة الحركة والسرعة لانهم يربطون حركة المجتمع بحركة الثقافة ، وهكذا تختلف نظرة علماء الاجتماع عن غيرهم من المتخصصين في الامور التطبيقية والتجريبية ، لذا فقد جاءت الثقافة حسب رأيهم على نوعيها :

ـ ديناميكية . . متغيرة ـ وجامدة . .

ومن خلال نظرتنا للواقع وخاصة مجتمعاتنا العربية المتطورة فان ثقافته الديناميكية ليست معزولة عن الاحداث وعن التطورات المرافقة لهذه الاحداث . . كما أن هذه الثقافة هي التي تمنح الافـراد حرية الحركة والتطور والانفلات كما أنها تفتح الكثير من النوافذ على الثقافات الاخرى لتتأثر بها او تؤثر فيها ، فتاخذ وتعطي .

أمـا الثقافة الجامدة فهي تركز اهتمامات الافراد والاجيال حول اوضاع معينة ينعدم فيهـا التجريب ويقل معها التجديد .. ويصبح الرجوع الى الماضي حنينا متزايدا كما يصبح جيل الكبار هو الآمـر الناهي .. وهكـذا تلتزم المجتمعات ذات الثقافات الراكـدة بالأماني والوعود المستقبلية ..

* * *

تطور الثقافة العربية :

يتساءل البعض حول اذا ما كان تراثنا وماضينا وفكرنا حصيلةتفاعل داخلي بحت .. ام ان هناك تداخلات مع ثقافات الامم المجاورة افرزت هذا التراث ؟ .

هذا السؤال يلح علينا ان نعود قليلا الى الوراء .. لنسبر اغوار ثقافتنا العربية ، وموازاة هذه الثقافة لثقافات الامم المجاورة ثم تفاعلها مع تلك الحضارات .

ونتيجة لديناميكية ثقافتنا العربية واصالتها فقـد استوعبت تلك الثقافات المجاورة ، وفتحت الابواب لادماج العناصر الجديدة في القوة الاصيلة لثقافتنا العربية ، ولكون طاقاتنا المتفتحة لازالت في عنفوانها ، فان مجموعة الافكار الجديـدة سرعان ماذابت ، وسرعان ماانتشرت وتوزعت في شرايين حضاراتنا المتجددة .. وذلك ما اعطاها دفعات من التقدم والارتياح ، وهذا ماأكسب مثقفينا النضج ومنحهم الثقة .

ترى كيف بدأ التعامل مع ثقافات الامم المجاورة ؟ .. هل حقا بني هذا التعامل على اسس حضارية مكتسبة .. ؟ .

وهنا لابد ان نتوقف مع الزمن قليلا للاجابة على هذا السؤال ..

نحن نذكر سنوات الفتح الاولى ، ونذكر كذلك كيف سقطت الدول المجاورة لدولتنا العربية في ذلك الزمن .. ومن هنا تفتحت عيون المثقفين على حضارات تلك الامم .. وبدأت الافكار الجديدة تلتحم بشتى الطرق العلمية مع ثقافتنا العربية .. ولقد استطاع المترجمون والكتاب العرب، ان يقتبسوا من الانظمة المجاورة مايناسب طموحاتهم ودولتهم الجديدة.. معتمدين في ذلك على معادلات بديهية ــ ذلك لو انهم حاربوا تلك الثقافات بنفس الضراوة التي حاربوا فيها الجيوش لما استطاعوا ان يحققوا قفزات نوعية خلال عشرات السنين .. ولما استطاعوا ان ينتقلوا من حياةالبداوة البسيطة الى حياة الترف والحضارة المزدهرة .. كذلك فان الكثيرين منهم وخاصة اولئك الملتزمين لم يستطيعوا تقبل الافكار المستوردة من الامم المجاورة ، وشنوا عليها حربا قاسية معلنين ان تلك الافكار تخالف تعليمات العرف والتقاليد العربية .. ولم يأخذ القادة الاوائل برأيهؤلاء ولو تم ذلك لظلت حضارتنا اسيرة بعض التقاليد الغريبة حتى يومنا هذا.

ولقد اعتمد هؤلاء القادة على حل وسط .. لارضاء اولئك المتزمتين ولمنح اولئك الاخذين بالافكار الجديدة حرية الحركة في الكشف عن حضارات الامم والانتقال باساليب حياتها ودمجها بنظم الحياة العربية الجديدة .

ولقد تمثل هذا الحل ، في أن يراعي المثقفون الجدد أصالة عروبتنا ، واقتباس الافكار الجديدة والتي تناسب طموحاتنا بعيدا عن الحساسية والتعقيد .. ومن هذا المنطلق الفكري المحدد .. بدات الافكار الجديدة تغزو واقعنا العربي وبدات الثقافة العربية تسير وفق برنامج زمنيدقيق وراحت هذه الثقافة تنتقل سريعة في شتى المسالك المفتوحة ، لتبدأ مسيرة حضارية ، جديدة .. واثبتت هذه المسيرة وعلى مدى قرون متواصلة استمرارية الحياة واتصال العطاء الثقافي رغم كل معوقات النمو والاصلاح .

* * *

المد الفكري والتوسع الثقافي :

اذا كانت ثقافتنا العربية في الازمنة الوسيطة قد تحققت من خلال اندماج العديد من الافكار الجديدة للدول المجاورة ، فكيف امتدت هذه الثقافة وتوسعت ..؟ وهل كان لها ملامح وسمات متميزة في تلك الازمنة؟ نظرة دقيقة على التركيب البيولوجي لمجتمعاتنا العربيـة في العصـور الوسيطة تجعلنا نؤمن بان اجناسا كثيرة شكلت هذه المجتمعات العربية، ولقد تلاحمت هذه الشعوب وانصهرت في بوتقة واحدة ؛ وراحت تفرز مجموعات من العلماء والمفكرين ، كلهم شقوا طريقهم بصعوبة ، وانتشروا لجمع التراجم واقتباس العلوم والمعارف ، وخاضوا من اجل ذلك تجارب عديدة ، اكسبتهم القدرة على تحقيق مايطمحون اليه ، وكان لتشجيع الحكام والقادة العرب اكبر الاثر في اثراء ثقافتنا العربية ووقوفها شامخة بين مجموعة الثقافات الجديدة .. ومن خلال هذا التشجيع للثقافـة والمثقفين .. بدأت الانطلاقة الجديدة للثقافة العربية تحدد مساراتهـا بين شعوب الارض ، وبدأت الخيوط تتكامل لتوزع ثراءها الفكري على مجموعات كبيرة من الشعوب الاوروبية والتي لازالت تتخبط في الظلام ..

وهنا لابد ان نتسـاءل .. ؟

ليس معقولا ان تستوعب حضارتنا وهي في بداياتها الاولى كل هذه الافكار الجديدة ؟ .

كيف حوصرت هذه الافكار وبرمجت ثم كيف اختير لها الطريـق الواسع لتنطلق من خلاله قوية ومعززة ؟ .

من خلال الدلالات الكثيرة الواضحة تبين لنا ان كل مبررات الخوف من طغيان الافكار الجديدة ، قد تلاشت ، ذلك ان اصالة الثقافة العربية، وقدرة لغتنا على تجاوز كل اسباب الخوف ، حاصرت هـذه الافكار

وبلورتها في مجموعة من المداخلات الحضارية والثقافية ، واضافت اليها من القيم مايناسب طموحات امة متنامية ، ومايناسب فكرا معززا بقدرات وحكم قوي وثابت .

(وبفضل هذه الشجاعة في قبول الافكار الجديدة ظهرت في دولتنا العربية مجموعة من الفلاسفة والعلماء والمؤرخين والمفكرين الاجتماعيين .. كانت منارة للعالم كله من خلال العصور الوسطى المظلمة ، وكانت هذه الاسماء اللامعة هي التي قدمت فيما بعد ، اشعاعها العلمي والفكري الى اوروبا ، واسهمت بدور يتزايد الاعتراف به في انهاض العلم والفكر الاوروبيين ونقلهما الى عصر جديد) (٥) .

لماذا الربط بين ثقافتنا العربية والزمن الماضي ؟.

لماذا لانعمل دائما على استنهاض ثقافتنا العربية ليعود اليها الابداع والتجديد ؟

وهنا لابد من تغيير كيفية التعامل مع الماضي .. ولايكون ذلك الا اذا انزلناه الى مستوى الحياة العادية ، لنستمد منه مايبدو لنا صالحا في وقت ما ، نتحاور معه ونتخذ منه مراجع ومنطلقات معا ، بدون عملية الهضم هذه يبقى الماضي كالعبء الذي يثقل كاهلنا ولايساهم في تطوير شؤوننا .

وهذا يعزز مفهوم ربط الثقافة بالزمن ذلك ان ماتحمله الثقافة من قيم واتجاهات ومواقف لايكون له مفعول في حياة الانسان الا اذااستطاعت تلك الثقافة على ضم اوصال الزمان ، اي ربط الحاضر بالماضي والمستقبل معا .. وسيطرق عليها في نظرة موحدة وجهد متناسق .. (٦) .

لكن كيف السبيل الى استنهاض ثقافتنا العربية مادمنا ننظر الى تراثنا الحضاري نظرة منسية ؟ .. اننا لن نستطيع ذلك الان .. لان كثرة مثقفينا يشكون من عيب النقص ازاءالثقافات العالمية المعاصرة .

وان هذه السمة التي ترتبت على تراجعات كثيرة من خلال الانهزام الثقافي على مر العصور هي التي جعلتنا نتوقف طويلا ازاء كل ماهو جديد وحضاري وجعلتنا كذلك نفقد سبل المقاومة الفعالة ازاء الغزو الثقافي الذي ملأ علينا حياتنا واعمى بصيرتنا .

وهذا كله هو الذي قاد بعض مفكرينا الى اتباع اساليب التقليد الفارغة وحين عممت هذه الاساليب وخضعت للتطبيق تبين انها ضارة وملفقة ، ولا تصلح لمجاراة طموحاتنا في النمو الفكري والازدهار الحضاري ورغم مقاومتنا لهذه الاساليب فان قدرة الغالبظلت هي الطاغية ،وتعالت صيحاتنا من جديد تطالب بشتى الوسائل رفض هذا اللون من الغزو لاساليب حياتنا العصرية ، وفي ظل تراكمات من التخلف عبر سنوات الجفاف الثقافي التي مرت على امتنا .. بقينا محاصرين حتى يومنا هذا .

* * *

اصالتنا الثقافية :

الاستيعاب والتحدي :

ان من اصعب الامور ان يقوم المرء بعملية تنفيذ او تصفية للتراث .. وذلك من اجل بلورة الاصالة صافية غير مختلطة .. لان الاتصال والتبادل والاخذ والعطاء قديم قدم الحياة الانسانية وهذا يعني ان ثقافتنا العربية امتدت عبر الزمن وعرفت من حضارات الامم المجاورة ، آخذة من تلك الحضارات ما يلائم انطلاقة الفتوحات العربية وما يناسب نظم الدولة العربية الجديدة .

ولابد ان نتوقف قليلا عند هذه المعادلة لان اصالتنا الثقافية في ذلك الوقت كانت في الاصل مجموعة من التيارات الحضارية امتزجت وتشكلت وتم استيعابها ثم عادت فتشكلت من جديد ، وراحت تنبعث من جديدفي كل البلدان التي تخضع للحكم العربي آنذاك .. ولم يتوقف الامر عند

هذا الحد بل تجاوزت ثقافتنا العربية الى أوروبا ودويلاتهاالمختلفة ،واخذ هؤلاء من الفكر العربي وشكلوه بطرق تخدم نهجهم الفكري ومستقبلهم العلمي .. وهذا كله يقودنا الى معادلة اكثر دقة .. ذلك ان مسألة وضع حد فاصل بين الاصيل والمستورد مسالة معقدة ، ومن ثم الوقوف فيوجه التفاعل الثقافي بحجة الحرص على اصالتنا هو موقف ينطوي على اغفال للعناصر العديدة وللمكونات الشديدة التباين ، والتي اسهمت كلها في تكوين ما نطلق عليه نحن اسم الاصالة .

ان تراثنا ــ هو رمز الاصالة في ثقافتنا العربية وهو الذي يمدنا دائما بالخامات المتجددة لنتخذ منها في هذا الزمن محورا مشعا لموقف عربي اصيل ازاء المواقف الانسانية الكبرى المطروحة في هذا العالم .. وهذا التراث .. هو الذي يدفعنا باستمرار لان نشكل ثقافتنا العربية وسط هذا الخليط العجيب من الثقافات الاجنبية والمتصارعة ولكننا على العكس نقف بين ناقل لفكر اجنبي او ناقل لفكر عربي قديم .. فلا النقل في الحالة الاولى ، ولا النشر في الحالة الثانية يصنع مفكرا عربيا معاصرا .. لاننا في الحالة الاولى سنفقد عنصر العروبة وفي الحالة الثانية سنفقد عنصر المعاصرة والمطلوب هو ان نستوحي لنخلق الجديد ، سواء عبرنا المكان لننقل عن الثقافات الاجنبية او عبرنا الزمان لننشر تراثنا القديم .

يقول الدكتور زكي نجيب محمود في كتابه (تجديد الفكر العربي) ــ انه اذا اوحت الينا الثقافات بخلق ثقافي جديد ، فيه النظرة العربية وفيه الوقفة العصرية كان من اهم مايميز هذا النتاج الجديد ــ فيما ارجح ــ خروجنا الى عالم الوقائع والاحداث .. بالمعايير نفسها التي كنا ننسجها لفظا ثم نكتفي منها بذلك ، ننظر الى ذلك العالم الخارجي النظرة التي تلتمس فيــه القوانين المطردة التي تنظمه ، والتــي على اساسها يمكن التخطيط لمسارات المستقبل تخطيطا يحقق الاهداف المرجوة بدل ان ننظر الى ذلك العالم النظرة التي تجعله ضاربا في تيه المصادفات لاندري بماذا يفاجئنا به الغد(٦) .

ان عبورنا للزمن الماضي .. يعني قدرتنا مع الاخذ من تراثنا بما يناسب مرحلتنا المعاصرة في الحياة والتطور وان ذلك الفنان الذي راح يغمس ريشته ليلون تلك المباني الهندسية الجميلة في زمن حضارتنا تلك ، كذلك فان شعراءنا الذين هندسوا تفصيلاتهم وقصائدهم ، كل هذه الوقفات اوحت بالمجرد الكلي وجسدت خبرات طويلة وشاملة .. لقد وجدنا ذلك كله في تراثنا وهذا مايدعونا الان للعودة الى هذا التراث لان العودة اليه تركز من نتاجنا الثقافي وتدفعنا الى ان نخطو خطوات كبيرة نحو تحقيق الثقافة العربية المعاصرة .

* * *

الثقافة العربية : في مواجهة الغزو الثقافي :

لمحة تاريخية :

واجهت ثقافتنا العربية في بدء حياتها ونموها كثيرا من التحديات المذهبية والدينية والفلسفية ، ملأت ثقافتنا العربية في بواكير عهدها حتى تفتحت على ثقافات الامم المجاورة الهلينية والهندية والفارسية ، وراحت تغرف منها مما يتلاءم مع تطورنا الحضاري والثقافي ، وان الباحث الدارس ليدرك حقيقة ان ثقافتنا العربية هي التي استوعبت كل هذه الثقافات وصهرتها في بوتقة واحدة واخرجت منها تيارا له وزنه الحضاري والمعرفي ، واستطاع هذا التيار ان يشكل ثورة في عالم الفكر والعقل آنذاك .. وظل هذا التيار قويا متفاعلا ، حتى بداية عصر الانحطاط ، والسقوط .. فجاء الغزو الثقافي مدعما بالنفوذ الاستعماري .. وبدأ يعمل على انتزاع ثقافتنا العربية من جذورها وفصلها عن الماضي والتراث .. كما عمد الى دعوى ان الثقافة القومية ليست هي الاساس وعليه فيجب ان يتبع المفكرون والمثقفون العرب نظرية الوحدة الفكرية العالمية ، وتلك من اخطر دعوات التغريب والغزو الثقافي .

ومع بدايات عصر النهضة ، تراجع الغزو العثماني وحلّ مكانه غزو فكري جديد ، ممثلا في رسل الاستعمار الحديث الذين حلّوا مبشرين بقيم جديدة وبأساليب جديدة .

وخضع عالمنا العربي في اتفاقيات سايكس بيكو ١٩١٦ الى غزو استعماري شديد توزعت من خلاله اقطارنا العربية الى مناطق نفوذ لدول تجهل ثقافتنا العربية ولا تعرف كيف تتعامل مع اصولها الحضارية .. ومن منظار فكري متعصب انطلق دعاة الغزو الثقافي الجديد للسيطرة على منابع ثقافتنا العربية وسد الطرق والمنافذ أمام مثقفينا ، لكي يظلوا قابعين وراء مجموعة من الامال والاماني فقط ، لكن ثقافتنا ذات الجذور بدأت تشع لاولئك المفكرين العرب ، وبدأت حركات الاستقلال تأخذ مجراها في الاقطار العربية وشهدت مساحات الوطن العربي على طول امتداده ثورات دامية من اجل الوقوف وباصرار في مواجهة اشكال الغزو الثقافي .

* * *

الغزو الثقافي تحد لثقافتنا العربية :

حين نهضت اوروبا من سباتها في بداية القرن السادس عشر ، كانت شمس العرب ، والثقافة العربية تغرب قليلا قليلا ، وزاد ذلك من عدائية السياسيين الاوروبيين لحضارتنا وثقافتنا .. والتي كان لاحتكاكهم بها فضل كبير في ازاحة تلك الغفوة الطويلة عن عيونهم (الحروب الصليبية) .

ان الانتصارات التي حققتها اوروبا في ميادين الاكتشافات والعلوم التطبيقية وحرية الراي دفعها الى بداية عصر جديد من عبودية واستغلال الآخرين .

واستمرت هذه الروح العدائية لتسود دول اوروبا وامريكا على حد سواء حتى يومنا هذا ، وكان واضحا منذ البدء ان الوسائل التي كانت

تعتمدها هذه الدول في السيطرة الاستعمارية لتحقيق اهدافها ، كانت تتقدم وتتطور هي ايضا مع تطور الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية .

غير ان ازدحام هذه الدول وتسابقها المحموم على مناطق النفوذ وتنافسها الدموي في بعض الفترات التاريخية المعروفة ، كل ذلك ادى الى نشوء وضع ثقافي جديد ـ هو التفكير السياسي على أوسع مدى ، فتحول الدين في اوروبا كالعلم نفسه الى وسيلة سياسية يستخدمها الناس كلهم في اغراضهم الشخصية والعامة كما تستخدمها الاحزاب في سعيها وراء الحكم(٧) .

وهنا تدخلت الفلسفة ، اذ افضى الصراع بين العلم والدين ـ وهذا لم تعرفه ثقافة العرب ـ الى نشوء حركة فلسفية ، وبعدها بدأ التفكير جادا للبحث عن الجوانب الاقتصادية .. وراحت الاحزاب السياسية تتكون وتتغلغل في صفوف الشعوب على اساس اقتصادي ونظرة اقتصادية، ولم يبق للتكتلات الدينية التي كانت سائدة من قبل اي تأثير في الحياة العامة في اوروبا .

وهكذا تغلبت الروح الاستعمارية على الامم الاوروبية كلها وساقها ذلك الى اعتماد العلم والتقنية والسياسة والفلسفة والاقتصاد في آخر مرحلة ، وبهذا وصلت اوروبا في القرن التاسع عشر الى نقطة تقف بها على طرف النقيض من الحضارة العربية والثقافية التي انبثقت عنها .

وانطلقت الروح العدائية الاوروبية نشطة على ارضنا العربية .. حيث وقفت علانية وراء الحركة الصهيونية واعطت هذه الحركة وعدا باقامة وطن قومي في فلسطين العربية وكان هذا الوعد اسوأ ما وصلت اليه العقلية الاوروبية في تحدي الثقافة العربية واصالة جذورها منذ ان كانت .. ولم يتوقف الامر عند ذلك الوعد ، بل استمرت هذه الدول الاستعمارية في الكشف عن خططها لاقامة الدولة الصهيونية على ارضنا العربية .. وارتفعت اصوات كثيرة تحارب هذه العدائية الجديدة ، لكن

الروح المنبثقة عن التوسع وامتداد النفوذ هي التي ظلت تسير الامور السياسية والثقافية في الوطن العربي .. وبدات ثقافتنا العربية مع ما يتزامن معها من ضعف تناضل من اجل رد الاعتبار لهذه الشعوب المغلوبة ، ضد من تنكروا لاشعاع هذه الثقافة في ازمان مضت . .وانتصرت ثقافتنا العربية عندما ترسخت جذورها فوق كل الارض العربية وبدات شعوبنا تحارب من اجل الاستقلال ، وتحقق لثقافتنا ما كانت تناضل من اجله وهكذا بدات تعود لها الحياة من جديد ، وبدات العقول المفكرة تزيح الستار والاتربة عن مخطوطات العصور الوسيطة وبدا المشتغلون بالتحقيق عن التراث يسهرون الليل لاعادة الحياة من جديد الى كل مخطوط تراكمت عليه العصور ، وبدات تظهر للعالم من جديد نهضة ثقافية عربية راحت تأخذ طريقها وسط التوهج الحضاري العالمي .

* * *

فلسفة الغزو الثقافي :

لعل اخطر مانجح فيه الاستعمار بتر معظم مثقفي العالم الثالث عن ثقافاتهم القومية .. وربطهم بقيم الحضارة الغربية ، واقناعهم بان هذه القيم الغربية حقائق انسانية مطلقة لا سبيل الى التقدم بغير الايمان بهـا والعمل بمقتضاها .. وما دام الغرب قد حقق كل هذا التقدم العلمي والتكنولوجي الذي غير مجرى التاريخ وطور حياة البشر فلا بد ان يكون نهجه الاجتماعي والثقافي ارقى واقدر من كل نهج اجتماعي وثقافي في هذا العالم الثالث المتخلف(٨) .

ذلك مانسمعه كل يوم ، وذلك مانقراه في الصحف المحلية والاجنبية التي تغزو سوقنا الثقافي اينما كان ، وهذا مايراه اطفالنا على الاجهزة المرئية ،اوما يسمعونه باذانهم عبر المذياع ، وحيث مايتوجه ابناؤنا يجدون على الارصفة الكتب المترجمة عن ثقافة الغرب فيأخذون ويتركون كل ما له علاقة بثقافتنا المحلية او العربية ، وهذا التوجه المشدود الى الثقافة

الغربية لم يأت بطريق عفوي ، وانما جاء عبر سنوات من الغلبة الفكرية والاستعمارية لدولنا الضعيفة والمهزومة ، وشكل بالتالي محصلة جديدة فيها انهزام ثقافي امام ثقافة الغرب حتى يومناهذا .

وقد رافق هذا التشكل الثقافي الجديد فلسفات تبرر الضعف لثقافتنا العربية ، وتؤيد الانسلاخ الثقافي عن اصالة تلك الثقافة والتوجه باندفاع قوي الى الثقافة الداخلية .. ولقد وجدت هذه الدعوة طريقها وسط المجتمعات العربية المتخلفة ، وراح الناس يدافعون عن هذه الفلسفة الجديدة من خلال منطلق حضاري وعصري ، وان العودة الى القديم شيء سخيف .

وقد تأثرت الاجيال في عالمنا العربي ، واصبحت تنظر لما يجري على الساحة الثقافية بمنظار الحذر والترقب ، ذلك لان كل التبريرات المعطاة ليست مقنعة . وسقط في ايدي الاجيال نظرية جديدة تدعم طموحاتهم المستقبلية ، وهي ان مجريات حياتنا الثقافية تمر الان في معركة قاسية اشد ضراوة من معارك التحرير السياسية .

وعليهم مادام الحال كذلك ان يتنبهوا لاخطار تلك الثقافات الوافدة لانها تبعدهم عن مواقعهم الحضارية ، وفي نفس الوقت تقتل فيهم القدرة على البحث والمتابعة .. ذلك لان ثقافتنا العربية ليست متخلفة كما يصورها الاستعمار ، لانها كانت ثقافة رائدة في زمن مضى .

* * *

الثقافة المضادة الى اين :

بدات الثقافة المضادة تظهر في عالمنا العربي حين بدات المؤسسات التربوية والتعليمية المرافقة للحملات الاستعمارية تغزو الارض العربية ..

ومن خلال تلك المؤسسات كان الحرص على صياغة عقولنا صياغة من شانها ان تجعلنا تابعين او مستعبدين ، وهكذا بدات تظهر على السطح

ثقافة جديدة يغلب عليها طابع الاحتواء والخداع والمغالطة والغموض ، وقد نجحت هذه الحملة الثقافية في اوائل القرن، لكنها بدأت تتراجع في اواخره.

وهكذا اثبتت ثقافتنا العربية وعلى مر سنوات الضعف والانحطاط انها لا تنمو ، الا من خلال جذورها ، وان الثقافات الغربية مهما بلغت من قوة فانها لاتستطيع ان تغير من مقومات الفكر العربي ومعرفته باصول هذه الحياة الثقافية .

وراحت قوى التبشير والتغريب الثقافي تعمل على تحريف المقومات العلمية والحضارية حين بدأ المضللون يكتبون عن التاريخ العربي والحضارة العربية صفحات زائفة ، وكان واضحا من ذلك اسقاط مرحلة هامة من مراحل تطورنا الثقافي والحضاري .

ولم تتوقف المؤسسات المعنية بل زادت في بلورة اهدافها التغريبية حين علمت ان المؤسسات التربوية لم تنجح ، فانتقلت الى طرف اكثر فعالية من تلك التي بدأت بالامس فبدأت الاقمار الصناعية والمحطات الارضية والشاشات المرئية والاجهزة السمعية تعمل على توريد كل ماله بثقافة الغرب وحضارته الى الدول الدائرة في فلك الغرب وثقافته .. وسرعان ماانتشرت الاشرطة ، كما انتشرت الموضات العصرية ، وراحت تغزو البيوت الثرية أولا ، ثم بدأت تتنقل تدريجيا عبر مراحل نفسية مهيأة لهذا الغزو الجديد .

ولم تتوقف الحملة عند هذه القشور ، بل تجاوزتها الى التاريخ ، وعند الوصول الى هذه النقاط الحساسة من مكونات الامم ، فان الامر يصبح خطرا ، وهكذا راحت الصهيونية العالمية بمؤسساتها المنتشرة في فلسطين المحتلة تنشر مزاعمها عن الارض العربية والانسان العربي في سلسلة من التشويهات الثقافية والتاريخية معتمدة في ذلك على مجموعة من الحملات النفسية التي نجمت عن الواقع المهزوم امام الهجمة الصهيونية العنصرية ، وقد وقفت امتنا امام هذه الحملات النفسية ضعيفة ، لكنها

معذلك بدات تقاوم من خلال بقائها او عدم بقائها على الارض العربية ، واصبحت تلك المعركة معركة مصيرية لامتنا العربية ولثقافتنا العربية المتزامنة مع وجودنا كله .

واذا كانت الصهيونية العالمية موجهة ومسيرة من الثقافة الغربية ، فان حملات اخرى بدات تنطلق من خلال اثارة قضايا كثيرة في مقدمتها حرية الفكر وقتل هذه الحرية في الثقافة العربية ، وعجز الفكر العربي عن مواصلة النمو والعطاء في عالم تسوده قيم الغرب الجديدة . وقد روجت لهذه الحملات مجلات عربية اشرف على تحريرها تابعون لسلطات الحكم الاستعماري في الاقطار العربية مع مطلع هذا القرن ، وتصدى لهذه الحملات التشويهية كتاب عرفوا بالتصاقهم الحاد بثقافتهم العربية وحضارتهم العريقة .

وجاء دور اللغة العربية ، حيث تعرضت هي الاخرى الى تحد شرس حين اعلنت الثقافة الغربية العمل على تجزئة اللغة العربية والقضاء على وحدتها ، وتغليب العاميات الاقليمية عليها ، وقد بدات الحملة من منطلق مقارنة لغتنا العربية باللغة اللاتينية التي دخلت المتاحف مخلية الطريق للغات اقليمية كثيرة حلت محلها .. وركزت الحملة هذه على تحجيم انتشار اللغة في افريقيا وآسيا .. حين فشلت في تجزئتها ولا زالت الحملات الاستعمارية توقف زحف لغتنا العربية في الدول الصديقة والمجاورة وذلك خوفا من تاثير الثقافة العربية على سكان تلك الدول وانبمائها قوية في تلك الاوساط المهيأة لها .

ولقد صمدت اللغة العربية اخيرا في وجه هذه الحملات القاسية، ذلك لان العربية سر خالد ، وهي قادرة على استيعاب كل المصطلحات والرموز الثقافية بلا ضعف .

ولقد جاء دور التشويهات التاريخية والفلسفية ، فلم تتوقف الغزوة الثقافية المضادة عند حد التشويه السياسي ، بل تجاوزته الى تحليل

المنهج التاريخي، مدعية ان هذا المنهج لا يخدم التطور الحضاري، واثبتت الوقائع العلمية بالمقارنة ان منهج البحث العربي هو الذي قصر تقصيرا بينا في التواصل الثقافي والحضاري ذلك لانه يقوم على التجزئة بينما يقوم المنهج التاريخي العربي على اساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساعها .

وقد انكرت الثقافة الغربية دور الفلسفة العربية في ظهور تلك الثقافة، وجاء هذا الانكار ضمن حيلة موتبة مرافقة للمدارس المعنية بالفلسفة في الشرق العربي .

لكن الرد جاء على السنة فلاسفة الغرب أمثال جوستاف لوبون ، وتوماس كارليل ، وعشرات غيرهم حين أعلنوا بصراحة ان ذلك الدور الضخم الذي قام به الفكر الاسلامي والعربي في بناء منهج المعرفة وانشاء المنهج التجريبي العلمي هو الذي مكن اوروبا من صياغة حضارتها وثقافتها المعاصرة .

وكان التعليم وكانت التربية من اخطر المناهج الثقافية التي تعرضت لخطر التخريب والغزو الثقافي ، وحين لم تتمكن المدارس الاجنبية في الوطن العربي من استيعاب المجموعات المثقفة وضمها الى صفوفها في معاداة الثقافة العربية ، بدأت الثقافة الغربية تتسلل عبر مؤسساتنا التربوية والثقافية من خلال النشرات والمجلات ومن خلال النظريات العلمية والمدرسية ، ولكنها لم تفلح في ثني المثقفين العرب عن الاشادة بثقافتهم القومية وتاريخهم الانساني في كل مراحل نموه وتطوره .

وحين شعرت الايدي المسيرة لهذه الحملات بالفشل ، ايقنت ان ثمة شيء يحرك احساس هؤلاء الناس باتجاه تراثهم الثقافي والحضاري ، وبدأت سلسلة من الضغوط الحضارية تمارس السيطرة على المنطقة العربية في ظلال الصراعات السياسية العالمية معتمدة على انظمة الحكم المسيرة لهذه التيارات الثقافية ، بحيث تكون قادرة على حجب تيار ثقافي

معين ؛ وفسح المجال أمام تيار مضاد للحلول محله ، وهكذا اغرقت الاسواق الثقافية في بعض اقطارنا العربية بما هو معاد لاهدافنا ومبادئنا وامتلأت ساحات المدن واسواقها التجارية بما هو قاتل لطموحات ابنائنا، وانتشرت الافكار الجديدة عبر سنوات الحواجز الاعلامية المسيطرة في الطريق الجديد التي ارادتها السياسات الاستعمارية الفوقية .

ورغم هذا فلم تنجح الحملات المضادة لثقافتنا العربية لان اجيالنا اصبحت قادرة على التفريق بوضوح بين ما هو صادق وما هو خادع .. وهكذا بدات الحملات تتخذ مسارات جديدة لعلها تستطيع ان تنال من ثقافتنا العربية ذات الاصالة والمتمكنة من العودة بالروح الى التراث والتاريخ .

* * *

تحرير الثقافة العربية

من الغزو الثقافي ...

في وطننا العربي احساس حاد بان ثقافتنا تواجه تحديا مضادا ،وهذا التحدي الفكري يتمثل في مجموعة من الافكار التي شكلت اطارا محاصرا لثقافتنا ترى الى اي حد يمكن ان يكون هذا الغزو الثقافي ممثلا في الفكر المضاد ضارا ؟.. وكيف نستطيع رد هذا الغزو وثقافتنا العربية لا زالت في طور النمو ؟.

ان الدعوة الى تحرير ثقافتنا من الغزو الثقافي تبرر دائما بالحرص على التراث الاصيل ومنع الافكار الآتية من الخارج ، لكي تتدرج ثقافتنا العربية مرحليا ضمن متطلبات العصر .. وهذه الدعوة سليمة اذا راعينا كثيرا من المسلمات الاساسية في هذا الموضوع ، وان من يحاول العمل على تحرير ثقافتنا من تيارات الثقافات المضادة انسان يتحلى بالوعي والحرص .. ولكن علينا والحال هذه ان نكون حذرين تجاه تلك التيارات المندفعة نحونا بلا توقف وبطريق ملتوية .

وقد تنبهت كثير مـن دولنا العربية الى اخطار وسائل الاتصـال الجماهيرية وبما تنقله من اعمال فنية جذابة ومشوهة كالافلام والمسلسلات هذه الاعمال الفنية ذات القشرة الهشـة تتغلغل في كل بيت وتركز على قيمة غربية غير مقبولة حتى بالنسبة الى كثير من المجتمعات الصناعية المتقدمة والتي يحذر من اخطارها المفكرون حتى في بلادها المنتجة ذاتيا . هي التي تشكل فكرا مضادا ينبغي ان نحاربه(٩) .

واذا كنا حريصين فعلا على تحرير ثقافتنا العربية ، فلا بد ان نسعى من الداخل الى تحريرها اولا ، ثم نعمل بالتالي على حماية مسيرتها ضمن معطيات العصر . .

وهنا يطرح السؤال التالي نفسه .

هل حضارة الغرب اليوم في دور العطاء ، حتى تبهر النفوس وتثير الاعجاب ؟ .

وهل اعطت ومازالت تعطي غير الظواهر المادية والاستهلاكية والترفيهية ولماذا بقي انسان تلك الحضارة تائها غريبا غير مطمئن الى حاله ؟ .

ان المفكرين هم الذين اجابوا على هذه الاسئلة . .

فقد قال مؤن باين . . نحن على حافة الهاوية . .

وقال ارنولد توينبي ـ نحن البشر بكل تقدمنا العقلي وقدراتنا الفنية نبدو وكاننا قد ورثنا نفس العناصر الحيوانية والالية التي كـان عليها اجدادنا البدائيون . وتقول الكاتبة الفرنسية (مدام سنت بوانت) اني اتهم المدنية الغربية بانها قصرت عن القيام بالمهمة التي تزعم انهـا القيت على عاتقها في الاجيال الاخيرة .

وهذا يكفي للدلالة على ان ثقافة الغرب لازالت قلقة ، وعلينا ان نتنبه الى ان ثقافتنا العربية لابد ان تقف بعيداً عن منحى الخطر . لان مـن اهداف الغزو الفكري المضاد هو مسخ ثقافتنا العربية وسـد منابع الاصالة والابداع من حولها حتى يتوقف نموها وتطورها .

ولقد عمدت التيارات الفكرية المضادة والتي راحت تغزو عالمنا العربي بلا استثناء ، راحت هذه التيارات تعمل على تحريف المقومات العلمية والحضارية ، وكان الهدف من ذلك كله ، اسقاط مرحلة هامة من مراحل تطورنا الثقافي والحضاري والذي كان له الاثر الاكبر في ميلاد النهضة الاوروبية الحديثة .

ثم مضى الهدف الى خلق التبعيات الثقافية في الاوساط العربية حتى ادى ذلك الى عملية تفتيت القوى الثقافية والوطنية واضعافها ، فاصبحت بعد ذلك مجتمعاتنا هزيلة ممزقة .

وحرص المثقفون العرب ، منذ البدء الى تحمل المسؤولية الثقافية تجاه مايجري ومن خلال نضالهم الطويل تشكل تيار واع لرد" ذلك الغزو في محاولات جادة الى تحرير الثقافة العربية من كل اشكال التسلط والقمع الفكري .. وساعد على ذلك تلك الروح القومية المتاصلة في اولئـك المثقفين الذين وضعوا اقدامهم على ارض قومية متينة ، وراحت هذه الارض تمدهم بالثراء اللغوي الخصب ، وتدعم خطاهم بسلسلة من الموروثات الحضارية والتاريخية والانسانية ، وهكذا وقفت ثقافتنا مرة اخرى في ظل متغيرات العصر ، تدافع عن مقومات حياتها لضمان استمرار نموها وتطورها من اجل ثقافة عربية متقدمة .

* * *

المصادر والمراجع :

١ : انور الجندي ، اصول الثقافة العربية ، القاهرة ، دار المعرفة ١٩٧١ ص : ٢١ .

٢ : عبد الله عبد الدايم ، ازمة الثقافة في الوطن العربي ، مجلة الفكر العربي العدد الثالث : السنة الاولى ، ١٩٧٨م ، ٩ ــ ص ٤ ــ ٩ .

٣ : د. عمر الشيباني ، التربية والتنمية الثقافية ، مجلة الفصول الاربعة ، العدد ٩ السنة الثالثة .١٩٨ ، ١٨.٩ .

٤ : د. فؤاد زكريا ، الافكار المستوردة ، مجلة العربي ، العدد ٢٣٩ ،١٩٧٨م ص:٦ .

٥ : الشاذلي القليبي ، الثقافة رهان حضاري ، الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨ ، ص : ٧٣ .

٦ : د. زكي نجيب محمود ، تجديد الفكر العربي ، بيروت ١٩٧١ ، دار الشرق .

٧ : عبد اللطيف شرارة ــ الجانب الثقافي من القومية العربية ، دار العلم بيروت ١٩٦١، ص : ١١٤ .

٨ : د. عوني الشريف قاسم ، مقاومة الانهزام الثقافي اولا ، مجلة العربي ، العدد ٢٦٥ ص : ٤٩ .

٩ : د. فؤاد زكريا ، الافكار المستوردة ، مقال ثقافي ــ مجلة العربي ، العدد ٢٣٩ . ١٩٧٨ ، ص : ١٠ .

١٠ : مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ، دار الفكر بيروت ١٩٧١م .

١١ : عبد المنعم الصاوي ، عن الثقافة ، القاهرة .

١٢ : سالم السديهدي ، حول الثقافة والثورة الثقافية .

١٣ : الثقافة والتكامل القومي ، عبد الحميد يونس .

١٤ : محمد منير موسى ، اصول التربية الثقافية والفلسفية .

المؤتمر العام الثالث عشر
للإتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
عدن - صنعاء
نوفمبر ١٩٨١

الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطورها في مواجهة أشكال الغزو الثقافي

فوزي البشتي
(ليبيا)

عرف الوطن العربي الظاهرة الاستعمارية بكافة اشكالها وصورهـا ومساراتها ولقد ظل النمط الاستعماري الفعال والمسيطر وسط هـذا التعدد ، هو النمط الاستعماري الذي يستهدف الثقافة العربية ،ويحاول جاهدا افراغها من كافة محتوياتها الايجابية وتثبيت الهيمنـة لجوانبهـا السلبية القاصرة ، وأنا اعني بذلك تلك الصور الغربية التي زرعت في قلب الثقافة العربية وفي عمق وجدان المواطن العربي .

وقد ادى تواجد هذه العوامل الثقافية الغربية الى وجود مجموعة من المداخلات الثقافية قادت في نهاية المطاف ومـع استمرار الزمن . وتكاتف الجهود الاستعمارية الى تثبيت مجموعة من البصمات الفكرية والسلوكية والحضارية في جسم الثقافة العربية ، بهدف احداث ترهل وسكون واحباطات متعددة تؤدي في نهاية المطاف الى هيمنة الجرائيم الغربية وسيطرتها ، وخلق فجرات وهوات ثقافية تشكلممرات ومناطق استقرار داخل نفسية المواطن العربي لكي يجد نفسه في النهاية قابـلا لوضعه الجديد ،مجرد انسان مستلب فقد ارتباطه بكل جذوره الحضارية والفكريـة ، حتى يكـون صالحا لاستخدامه كأداة لتنفيـذ المخططات الاستعمارية التي تترسخ على مهـل وفـق ماتمليه مصالح الاستعمار الاقتصادية والاجتماعية . ولكي لا نقع في خطا التعميم ، فلابد أن نلاحظ بان المقصود بالاشارة الى خطورة الثقافة الغازية لا يعني الاتصال الثقافي بين المجتمعات الانسانية ، فذلك ضرورة لا يستطيع اي مجتمع انساني ان يستغني عنها لان هذا الاتصال يهدف بالدرجة الاولى الى خلق عملية تلاقح وامتزاج واستفادة وتكامل بين الثقافات الانسانية المختلفة ..

اذن ، ما الذي نعنيه بالثقافة الغازية ، وما هي الدوافع التي تدفعنا الى مواجهتها ؟

بديهي ، ان الثقافة الغازية ، هي تلك الثقافة التي لاتهتم بمسألـة الاتصال الثقافي واهميته في نقل المعرفة الانسانية بين مجتمع وآخر ، وانما تهتم بالدرجة الاولى بعملية غزو ذلك المجتمع الآخـر واخضاعه لمفاهيمها واطرها مستغلة ما يسميه المفكر الجزائري « مالك بن نبي » بـ « ظروف القابلية للاستعمار » .

وبالتالي فان الهدف الاول للثقافة الغازية هو ايجاد القابلية لدى المواطن العربي للاستجابة الى رنين الاجراس الآتية من كل جهة او مكان تتواجد فيه الظاهرة الاستعمارية ، ذلك ان مخططاتها تقوم في الاساس على خلق الاستعداد لدى الانسان العربي ، للانسلاخ عن جذوره وتقبل

وضعه المستلب الجديد بعد مرحلة طويلة من غسيل المخ المتواصلة وفق برامج تسهم فيها كل اساليب الاستعمار الثقافية والسياسية .

* * *

ولكي نقيم الدليل على استمرار هذه المخططات والبرامج فاننا يمكن أن نبرز التجربة التي قام بها عالم النفس الامريكي « بـواز » بتكليف وتمويل من اجهزة المخابرات المركزية الامريكية ، حتى نكشف طرائق الغزو الثقافي ونكشف بالتالي تلك الاقنعة الزائفة التي تختبىء خلفهـا مقولات وقيم بعض السلطات السياسية الاستبدادية في الوطن العربي . والتي تهدف وتسعى جاهدة الى تثقيف المواطن العربي بطريقة يتلاءم فيها سلوكه اليومي مع الغايات القريبة والبعيـدة للاجهـزة السياسية الحاكمة في معظم الوطن العربي ، والمؤسسات الاستعمارية التي تصنع هذه الاجهزة الحاكمة وتمولها وتسعى بكل ماتملكه من امكانيات الـى تثبيتها وتأمين سبل بقائها واستمرارها من اجل تكريس اساليب هيمنتها وخلق ضمانات البقاء لطغيانها واستبدادها ، وحتى يبقى الوطن العربي في شراكها وتحت سطوتها الى الابد .

* * *

احضر « بواز » مجموعة من الفئران البيض الى مخبره النفسي ، وخلال فترة زمنيـة محددة مسبقا بدراسة السلوك اليومـي للفئران واتجاهاتها ودوافعها ونمط حياتها وسبل تعاملها مع حاجاتها ، وعرف ان الفئران البيض لا تأكل الطعام في وضح النهار !! وانما تلجأ الى المناطق المظلمة في دهاليزها ، وهناك تشرع في تناول ما تحتاج اليه من طعـام بهدوء ويقين نفسي تام .

كان سؤال « بواز » لنفسه : ما العمل لتغيير دوافع الفئران والزامها بتناول طعامها في وضح النهار ؟

وتوفرت القناعات لدى « بواز » بان عملية التخلي والاكتساب ، التخلي عن السلوك الفطري واكتساب السلوك الجديد المراد لتغيير حياة الفئران . باعتباره نمطا من انماط السيطرة والتوجيه . يحتاج الى اعادة النظر في عناصره ودراسته دراسة تتطلب الوقت والجهد والمشقة لكي تتحقق النتيجة المطلوبة ، وتتم من خلالها اعادة صياغة الافعال وردود الافعال عند الفأر موضع التجربة وتنشئته تنشئة جديدة . بحيث تتفق هذه التنشئة مع مايريده « بواز » في شخصية الفأر من اتجاهات ودوافع وسلوك .

وهكذا وجد « بواز » نفسه امام اختيارات جديدة ومحددة في مهمته الصعبة . فقد كان مطالبا بالوصول الى نتيجة حاسمة تتعلق بالنجاح في القيام بعملية غسيل دماغ للفأر الابيض ، ثم مده بمجموعة من العناصر ليعيد تكوين شخصيته بحيث يصبح الفأر مستعدا ولديه القابلية ودنما ارغام ، لتناول طعامه الموجود في المنطقة الضيئة .

وكان على « بواز » كلما تقدم الفأر لتناول طعامه الموجود في الغرفة المظلمة . ان يوجه اليه الصدمة . واذا استقر « الفأر » فترة من الزمن في المنطقة البيضاء . وجه اليه « بواز » صدمة كهربائية ، اخرى وهكذا دواليك .

ماذا كان يريد « بواز » من خلال توجيه هذه الصدمات الى « فاره » الابيض ؟.

لقد كان يريد تازيمه وبلبلة غرائزه وتفكيره ووضعه في حالة من الفوضى والضياع بحيث يصل « الفأر » الى قناعة حقيقية بانه لا يعرف ماذا يعمل .

ثمة خطوة مهمة تاتي في أعقاب حالة الضياع والتشتت هذه ، وهي دفع « الفأر » للتخلي عن ارادته وتسليمها لـ « بواز » عبر الصدمات الكهربائية والايحاءات القادمة اليه من « بواز » نفسه .

بعـد ذلك توجه « بـواز » الى فئرانه عـن طريق صدماته ومنبهاته وايماءاته الى قبول الامر الواقع بعد ان وفر القابلية العضوية لديهـا ودفعها الى اكتسـاب دوافع واتجاهات جديدة ، جعلتها تنسى طبعهـا الغريزي القديم وتقدم على الاكل في المنطقة المضيئة ، وقد تم للفئـران اكتسـاب هذا الطبع بعد ان وحَّدت بين غريزتها وحاجاتها للطعام واتجاهاتها لتناول الطعام في المنطقة المضيئة(١) .

وهكذا انتصر « بواز » بتجربته على الفئران ، حيث استطاع ان يدجِّنها لصالح اهدافه واوامره ومخططاته .

وثمة ادوات واسلاك كهربائية ومخابر لا تحصى تأتي من كل صوب، والمواطن العربي هو الصيد الثمين لهؤلاء العلماء الذين توظفهم اجهزة الاستخبارات العالمية ، لخدمة الوجه البشع للحضارة الاوربية .

وعلماء الاستخبارات هؤلاء هم بدون شك لايستهدفون سوى تحويل الانسان العربي الى مجرد ترس من التروس التي تلف دون كلل في آلتهم الاستعمارية البشعة وهـم يعرفون تماما ان ذلك لا يتحقـق بالدرجة المطلوبة الا اذ تحول المواطن العربي الى مجرد « فأر » من فئران « بواز » البيضاء ، عندما يتخلى طائعا عن بشرته وانتمائه وجذوره الحضارية ، وان يتوقف عن عملية اكتساب القسمات الحضارية الجديدة التي يحتاجها كأساس من اسس النهضة العربية ، وكمنطلق من منطلقات صياغة مستقبل الامة العربية وغدها .

ان مجاهداتهم تهدف الى خلق الانسـان العربي ، الفارغ المطواع الذي يصبح بقابليته الاجتماعية والنفسية جاهزا للاكتساب والتخلي بموجب فاعلية وظائف العناصر الثقافية الاتية عبر الصدمات الكهربائية التـي يوجهها «بواز» القابع في اكثر من مكان ووجهة وموقع من الوطن العربي(٢) .

والمطلوب من المواطن العربي ان يكون ماثلا وعلى الدوام للاوامر والنواهي والاتجاهات الصادرة اليه من اولئك الذين تولوا اعداده وصياغته للقيام بدوره الجديد ، ولان هذا النموذج « البوازي » الجديد سوف يكون مليئا بعقدة النقص والدونية ، فان المكافأة الوحيدة هي اعطاؤه وسام الرجل المتحضر لعصري ثمنا لاستسلامه ، والا فما معنى اعطاء جائزة « نوبل » للسادات وما معنى هذا الاهتمام الفجائي ، ظلوا سنين طويلة لم تنتبه لهم دور النشر العالمية ، وفجأة صارت تترجم اعمالهم ويشار الى مكامن العبقرية في هذه الاعمال الادبية ، بل ان جهودا بدأت تبذل من اجل تامين فوزهم بجائزة نوبل ايضا . لماذا تهتم مؤسسات « بواز » الثقافية بكاتب مثل توفيق الحكيم او نجيب محفوظ ، او حسين فوزي ويتم تقديمهم للعالم لاول مرة بمثل هذا الضجيج ؟

لاشك ان الاجابة على مثل هذه الاسئلة تكون صعبة ، لمثل هذه النوعيات من الكتاب ، استطاعت ان تستجيب لصدمات « بواز » وتعليماته . وعندما يتحول كاتب الى فار من فئران « بواز » فان طريقة جديدة ينبغي ان تتبع في الاهتمام به والاحتفاء بموهبته لان هذا الاحتفاء هو فرح بنجاح التجربة وبهجة بالوصول الى النتيجة التي تعب « بواز » كثيرا في الوصول اليها ، وهي ان يتحول الانسان الى فار تجارب فيمعامل ومختبرات اجهزة الاستخبارات العالمية .

* * *

لقد دابت مؤسسات « بواز » الثقافية على الاهتمام بمثل هذه التجارب وصياغتها على مهل ، ولو فكرنا ان نقرا تاريخ هذه المؤسسة واستعرضنا كيف نجحت في تطويع كثير من الاسماء البارزة في الثقافة العربية ، لاصابنا الذهول . لاننا لم ننتبه الى ذلك منذ امد بعيد ، بل ان هذا الركام الهائل من كتب النقد الادبي الحديث لم تستطيع ان تكشف بذور الظاهرة « البوازية » في مسرحيات وروايات « توفيق الحكيم » كما لم تستطع ان تنتبه اليها في قصص وروايات نجيب محفوظ

الذي لم ينل سوى التمجيد ، بل ان اغلب النقاد لم يعجزوا عن الحديث عن الوجه التقدمي في انتاج الحكيم او نجيب محفوظ ، او حتى طه حسين ، لان أحدا من هؤلاء النقاد لم يكلف نفسه عناء التوقف عند بعض المواقف التي سجلت هؤلاء والتي يمكن ان تضع مؤشرات واضحة لسقوط هذه الرموز الكبيرة في الادب والثقافة العربية في فخ التجارب البوازية .

ولاشك ان اسم « طه حسين » او « توفيق الحكيم » أو « نجيب محفوظ » يعني الكثير بالنسبة لتاريخنا الادبي ، لكننا قبل ان نعتبر « طه حسين » من المع الرموز في تاريخ الادب العربي الحديث ، على راي غالي شكري(٣) الذي يعتبر ان مجرد المناقشة في ما يمثله هذا الرجل لنا ولثقافتنا من قيم هو استدراج لنا الى الوراء ، فالحاضر والمستقبل ينتسبان الى طه حسين وغيره من النهوضيين العرب ، وان اي ملاحظة حول هذا الرمز هي اظلام لعصر منير في تراثنا الحديث وتحطيم القيم التي بناها ، وجرنا الى نقطة الصفر كما لو كنا نولد ثقافيا اليوم ، هكذا يتحدث غالي شكري عن طه حسين ، ونحن نقول اننا قبل ان نصبغ الاشياء بلون عواطفنا ، وقبل ان نتحدث عن طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزي وغيرهم كثيرون بمثل هذه اللهجة التي لا ينفرد بها غالي شكري ، بل هي غالبية من يشتغلون بالنقد الادبي مع الاسف الشديد .

قبل ذلك كله لابد ان نتوقف عند بعض الوقائع التاريخية التي شكلت مواقف بعض هؤلاء الكتاب الكبار . وفيما ظلوا هم صادقين مع انفسهم كتاب فراعنة ظل النقد العربي الحديث يقراهم بصورة مختلفة صورة فيها الكثير من التضليل والمبالغة .

لقد استطاعت الحركة الصهيونية ان تستقطب الدكتور « طه حسين » الذي كان ومايزال يلقب بعميد الادب(٤) العربي والذي تتلمذ عليه كثير

من الطلبة اليهود امثال « اسرائيل ولنفسون » الذي اعد رسالة دكتوراه أشرف عليها الدكتور « طه حسين » وقد ركزت الرسالة على اظهار فضل اليهود على العرب ، كما قام « طه حسين » بزيارة مدارس الطائفة الاسرائيلية في الاسكندرية ١٩٤٤ ، وكان على رأس مستقبليه « الحاخام الاكبر » ـ فنتورا ـ والقى « طه حسين »محاضرة ابرز فيها علاقة اليهود الايجابية بالادب العربي وقد استثمرت الصحف الصيونية هذه المحاضرة وأبرزت في صفحاتها الاولى . وجاءت الخطوة الكبيرة باسناد رئاسة تحرير مجلة « الكاتب المصري » الى طه حسين ، هذه المجلة صدرت في اكتوبر ١٩٤٥ بتمويل صهيوني من اسرة « هراري » واخذت الطابع الثقافي ، وقد لعبت هذه المجلة دورا خطيرا في الدعاية غيرالمباشرةللحركة الصهيونية وقد كان يكتب في المجلة ذاتها نفس الكتاب الذين جندوا انفسهم ليكونوا ابواقا لسياسة السادات وكان من ابرز كتاب هذه المجلة الصهيونية « توفيق الحكيم » والدكتور حسين فوزي ، هؤلاء الذين ما ان تمت زيارة القدس المحتلة حتى استيقظت نزعاتهم الفرعونية من رقاد طويل، واصبح من الممكن لمصر أن تكون (كسويسرا) محايدة بين العرب واسرائيل « توفيق الحكيم » وان تكون القومية العربية كالصهيونية كالنازية نظرية عرقية مدمرة للاقليات « لويس عوض » وان يصبح اغتصاب فلسطين نضالا ينبغي ان يحترم لان الصهاينة ظلوا (٢٠٠٠) سنة يناضلون من اجل العودة الى وطنهم » نجيب محفوظ .

« بل واصبح الاسلام نفسه ، ضد الامة العربية والقومية العربية » الشيخ الراحل عبد الحليم محمود والشيخ الحالي للازهر عبد المنعم النمر فالقومية العربية لدى هذا الفريق مؤامرة استعمارية ضد الوحدة الاسلامية . ولم يتكرم هؤلاء بالقول ما اذا كانت هناك مؤامرة صهيونية ضد العرب والمسلمين ام لا(ه) لقد ساروا الى آخر الشوط ، واستخدموا القرآن الكريم لتبرير خيانة السادات « استخدام شيخ الازهر للاية الكريمة .. « وان جنحوا للسلم فاجنح لها » لتبرير معاهدة الاستسلام .

* * *

قبل ذلك كان « طه حسين » وقد اصدر كتابه الذي مازال يحظى بتمجيد الكتاب العرب . وهو مستقبل الثقافة في مصر » . وفي هـذا الكتاب أعلن طه حسين بشكل واضح « ان مصر تنتمي الى حضارة البحر الابيض المتوسط . وان حضارتها اوربية في واقع الامر وكان الكتاب يقدم تصورا لنظم التعليم والثقافة يستهدف » ان نسير سيرةالاوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم اندادا ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يحب منها ويكره وما يحمد فيها وما يعاب » على حد ما جاء في النص الحرفي من كتابه المذكور .

ان طه حسين يقبل على الحضارة الغربية ، بخيرها وشرها بما يعاب فيها وبما لا يعاب ، مما يجعلنا نعتقد انه لم يسع الى تقليد شامل . لم يفكر حتى في عملية انتخاب ولـم يحاول الوصول الى صياغـة جديدة تستفيد من حضارة الغرب بما يوافـق الظروف الموضوعية للواقـع الاجتماعي المصري .

ونحن لن نستطيع فهم مثل هذه المواقف الا اذا قرانا ادبيات تلك الفترة ، ووجدنا ان « طه حسين » لم يكن صوتا منفردا ، بقدر ما كان نغمة في لحن عام مميز ، لقد كان استاذه « لطفي السيد » يقول ان الاستعمار البريطاني يستطيع أن ينقذ مصر وينقلها الى العصر الحديث. لقد كان ايضا يطالب بالاتجاه الى المصادر الاصلية التي اعتقد أن أوربا قد نهلت منها فترجم الى العربية بعض كتب أرسطو ، الامر الذي لابد ان يذكرنا بعد ذلك باهتمام طه حسين بترجمة بعض المسرحيات اليونانية القديمة والحديثة عن ذلك الادب في كتاب كامل ظـل مقررا على طلبة المدارس الثانوية لفترة طويلة ، فضلا عن عنايته الشديدة بتدريس اللغة اليونانية واللاتينية في كلية الاداب أثناء عمادته لها .

« والحقيقة انه عندما كانت السفارة البريطانية تحكم مصـر فاننا نكون من السذاجة حين لا نفكر قليلا او كثيرا في أنها كانت تجد وسائل

متعددة لتشجيع هذا الاتجاه الفكري أو ذاك ، وانها كانت تتدخل الى حد ما في صياغة اتجاهات الرأي العام »(٦) .

لكن ذلك لم يكن بطبيعة الحال أمرا وقتيا او مرحليا بقدر ما كان جهدا استعماريا متواصلا يستهدف الانسان العربي ، ثقافته وانتماءه ، الامر الذي يذكرنا بمؤتمر « التعايش العربي اليهودي » الذي اقيم في المانيا الغربية بعد فشل لقاء الاسماعيلية بين بيغن والسادات ، وقد دعي الى جانب بعض المدعويين من مفكري غرب اوربا والولايات المتحدة المعروفين دائما بالانحياز لاسرائيل وفي مقدمتهم « هنري كسينجر » بعض الاساتذة العرب في جامعات اسرائيل واوربا الغربية وامريكا وكذلك بعض الادباء والكتاب والباحثين العرب في الاقطار العربية .

ومن الطريف ان بطاقة الدعوة التي ارفقت بقائمة المدعويين ، قد حددت اسماءهم الثلاثية واحيانا الرباعية التي قد تختلف فعلا عن اسماء الشهرة وبجانبها نوع العمل والعنوان ، مع ملاحظة تقول ان برنامج الحوار « مفتوح » اي بعبارة اخرى ليس هناك جدول اعمال ، ولا بد من الملاحظة الدقيقة على هذه التفاصيل الهامشية ، لان دراستها بعمق توحي بالجهة الحقيقية الداعية للمؤتمر والهدف الحقيقي من انعقاده(٧).

« وعلينا حين يجب أن نتذكر التاريخ ، ان نتذكر مثلا مؤتمر روما للادب العربي الحديث عام ١٩٦٠ الذي جمع بين الوجوه اللامعة المتمردة في ادبنا جنبا الى جنب مع بعض الوجوه اليهودية والامريكية ، وكان المؤتمر برعاية ما سمي « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » . وسرعان ما كشفت المخابرات الامريكية اوراقها شبه الدورية ، واعلنت انها تمول هذه المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، ومجلاتها في اللغات المختلفة ومن بينها (انكاونتر) الانكليزية . وعلينا ان نذكر « مؤتمر الادب العربي الحديث » الذي عقد في واشنطن في صيف عام ١٩٧٦ وجائزة الرواية التي اسستها شركة « موبيل اويل » هكذا (مباشرة لاحدى الجامعات

الامريكية مثلا) علينا ان نتذكر كثيرا ونقرا تاريخنا الادبي بعمق لنكتشف أن عملية غزونا مستمرة ، تتخذ أشكالا متعددة وصيغا متباينة) .

لكن اخطر اشكال هذا الغزو هو احياء التيارات الانعزالية ومحاربة المد القومي ، ويخيل الي انه من المناسب ان نعطيها حيزا في هذا البحث .

التيار الانعزالي :

لاشك ان ظهور الاتجاهات والتيارات الانعزالية في الادب والفكر ، يشكل مظهرا من مظاهر الغزو الثقافي المضاد ، ذلك ان مثل هذه الاتجاهات حققت أوج ازدهارها عندما كان الاستعمار العسكري يبسط نفوذه بشكل كامل على الوطن العربي ، حيث استطاع هذا الاستعمار ان يمزق الوطن ويقسمه الى اجزاء تفصل بينها حدود وفواصل مرسومة ، كما حاول ان يزرع بذور الفتن والتناحر بين هذه الدويلات القزمية التي أوجدت الكثير من الشروخ في جسد الوطن الكبير ، لقد اخذ الاستعمار يغذي مفاهيم التجزئة وينمي كل الدعوات الانفصالية في حين راح يمزق الترابط القومي مستندا الى نظريات هشة تعتمد على احياء الاساطير القديمة غير العربية ، والكشف عن الاثار المدفونة في باطن الارض في المناطق العربية المختلفة ، ولم يكن ذلك بهدف الكشف عن تاريخ هذه المناطق الموغل في القدم كما لم يكن ذلك خدمة للعلم والمعرفة والبحث العلمي ، بقدر ما كان مخططا يهدف الى ترسيخ مبدأ التجزئة بين ابناء الامة الواحدة والوطن الواحد .. بالتأكيد على الانتماء الى شعوب قديمة بائدة .

وكذلك فعل في بلاد ما بين النهرين اذ جاء بالمعطيات العلمية والتاريخية ليوهم الشعب العربي في العراق على أنه من سلالة هذا الشعب البابلي او السومري الذين كانا يعيشان في بلاد الرافدين منذ ثلاثة آلاف سنة(٨) .

وفي ليبيا تزعم « عبد الحميد البكوش » في منتصف الستينات وعندما كان رئيسا للوزارة في العهد الملكي ، تزعم الدعوة الى ما سماه بالشخصية الليبية ، ومع الاسف فقد وجد كثيرا من المنظرين من اساتذة الجامعة الذين اخذوا يحيون الاساطير القديمة ويتحدثون عن أمجاد « جرمة » وعظمة « صبراتة » وعبقرية « سبتيموس سيفروس » اما في مصر فقد كانت الدعوة الى الانتماءات القديمة احدّ واخطر ، حيث برزت فكرة الدعوة للقومية الفرعونية بشكل مركز وخاصة حين راح يؤيدها ويعمل من اجلها كثير من مثقفي مصر في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

ولم تكن هذه الدعوة مفصولة عن المخطط العام للغزو الثقافي الاستعماري ، لقد كانت جزءا من توجه عام ، كانت القوى الاستعمارية تسعى اليه من اجل أن يتحقق لها الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعب العربي واقتصادياته . والتمكين من زرع العنصر الصهيوني واستيطانه، وترسيخ جذوره في فلسطين العربية ، وخلق الكيان الصهيوني الغاصب. ليكون السوط الذي يلهب الظهر العربي كلما بدت هناك بارقة نهوض وتكوين جديدة؛ ومما يدل على ذلك ما ذكره الدكتور محمد محمد حسين في كتابه : « الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر » من أن الثري الامريكي اليهودي الاصل « روكفلر » قد أعلن في عام ١٩٢٦ عن تبرعه بعشرة ملايين دولار امريكي لانشاء متحف للآثار الصهيونية في مصر يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن واشترط لمنح هذه الهبة أن يوضع المتحف والمعهد تحت اشراف لجنة مكونة من ثمانية اعضاء ليس فيها الا عضوان مصريان ؛ على أن تظل هذه اللجنة هي المسؤولة عن ادارة المتحف والمعهد لمدة ثلاث وثلاثين سنة . وقد كان واضحا من تحديد المليونير الصهيوني من الاشراف على هذا المعهد ، مدة ثلاث وثلاثين سنة. انه يهدف الى خلق جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيا وسياسيا ومصلحة الصهيونية في ذلك واضحة لانها اذا نجحت في سلخ الدول العربية عن عروبتها تجنب اليهود كل معارضة لاحتلالهم فلسطين(٩) .

وقد كانت مجلة « السياسة الاسبوعية » لسان حال هذا الاتجاه الانعزالي حين تبنت تلك الافكار صراحة وعملت من اجلهـا ، وذلك في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، وعلى صفحاتها نشر بعض الادباء بيانا بعنوان : « دعوة الى خلق الأدب القومي » يدعون فيه الى خلق ادب محلي يتميز بالطابع المصري ، وقد بسط « محمد زكي عبد القادر » احد اعضاء المجموعة اهداف هذه الدعوة في احد اعداد المجلة بتاريخ ١٢ تموز ١٩٣٠ قال فيه :

« الادب المصري الذي نعنيه انما هو ادب محلي يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدهما » .

اما عبد الله عنان فقد كتب في ملحق السياسة سنة ١٩٣٢ يوضح القومية المصرية بقوله :

« من الخطا البين ان تنظم مصر في سلك البلاد العربية اذا تعلق الأمر بالناحية القومية . فالقومية المصرية قومية اثيلة ، وقد وجدت القومية المصرية منذ اقدم عصور التاريخ ، واقترن اسمها بحضارة من اقـدم الحضارات ولم تفقد الامة خواص الوحدة والتجانس منذ ايام الفراعنة .

ويقول بعد ذلك :

« فهذه القومية المصرية الأثيلة هي التي تستظل مصر بلوائها اليوم ، وهذه المصرية هي في الواقع دعامة شخصيتنا القومية ، فلسنا نعرف كيف ينكرها علينا بعض اخواننا العرب » .

* * *

وهكذا اتجه الادب في مصر من خلال التيار الذي نتحدث عنه الى احياء الفرعونية باعتبارها الاصل المصري الصحيح ولم يكن غريبا ان يكون أول عمل أدبي يكتبه « نجيب محفوظ » هو ترجمة كتاب عن مصر

القديمة ، واول ثلاث روايات عن الفترة الفرعونية هي « رادوبيس ، كفاح طيبة ، عبث الاقدار » ولعل هـذا يفسر لنا الى حد كبير مواقف نجيب محفوظ الاخيرة من قضية العرب المصرية « فلسطين » . اذ اخذ يتحدث عن فلسطين كما لو كانت شيئا لا علاقة له به ، لسبب واحد وهو ان هذه القضية تطرح على اساس انها قضية عربية ، ومن اجـل ذلك فقد اختار ان يقف في صف الصهاينة ، عندما اكد في حديث له نشرته صحيفـة السياسـة الكويتيـة انـه يحتـرم شـعب « اسرائيـل » على حد تعبيره ، لأنه ظل يكافح (٢٠٠٠) سنة حتى استعاد ارضه ؟ !!.

ولم يكتف بذلك بل سمح لنفسه ان يفلسف للفلسطينيين مشروع الاستسلام والهزيمة الذي سعى اليه نظامه السياسي المهزوم . وكأن الشعب العربيالفلسطيني مجرد شعب من الاطفال القصر الذين يحتاجون لحكمة « نجيب محفوظ » واجتهاداته الصهيونية .

انه يدعو الفلسطينيين الى القبول باستقلال ذاتي في حدود الدولـة الاسرائيلية ــ على حد تعبيره ــ اي دولة لا مستقلة ولا تتبع الاردن ، وهو يبرر ذلك بانهم ــ اي الفلسطينيين ــ حين يكونون في نطاق دولـة اسرائيل فسيكونون دولة اخرى . اما الاسباب التي من اجلها ينصح بأن تكون هذه الدولة الفلسطينية تابعة « لاسرائيل » وغير تابعة للاردن فهي ان الاردن دولة رجعيـة ولذا فان نمو الدولـة الناشئة سيكون محدودا . اما الاسرائيليون فانهم متحضرون ؟ !! .

اليس هذا وجها صهيونيا مفضوحا ولا يحتاج الى اي جهد للتدليل عليه ؟ اليس هذا تثبيتا للكيان الصهيوني الغاصب باعتباره النموذج المتحضر في المنطقة ومن ثم فان عليه ان يستولي على جميـع الاراضي العربية ويضمها اليه ، باعتبارها انظمة رجعية ومتخلفة ومن واجب هذا الكيان المتحضر ان يندفع بها الى ركب الحضارة عندما تصبح تابعة له ؟.

وهل يأتي هذا الكاتب الصهيوني الجديد باكتشاف جديد ، عندما يردد هذه الآراء التي نسمعها من الصهاينة ومن الانظمة الاستعمارية التي زرعت ودعمت الكيان الصهيوني في قلب الامة العربية ؟ ! .

ان كل ذلك يؤكد لنا ان « كتيبة تطبيع العلاقات المصرية الصهيونية . التي بدأت حركتها على المستوى الثقافي والفكري يتقدمها توفيق الحكيم وحسين فوزي ونجيب محفوظ ، مستندة الى التيار الانعزالي القديم . آخذة معها اصحاب المواهب الهزيلة مثل ثروت اباظة ، واحسان عبد القدوس ، وانيس منصور ، وغيرهم ، هذه الكتيبة كانت بشكل واضح اداة من ادوات الغزو الثقافي المضاد للامة العربية ، لان هذا الغزو لم يكن يتم اعتباطيا وكيفما اتفق بل كان يتم وفق خط محدد ومرسوم بدقة ، بحيث يصل في النهاية الى تحقيق اهدافه التي تتجه الى تقزيم الامة العربية وتجزئتها وتشتيتها ، وتحقيق سيطرة الكيان الصهيوني الغاصب على كامل التراب الفلسطيني وتحقيق اطماعه التوسعية في الوطن العربي .

الا ان اكثر من ثلاثين عاما من الاحتلال الاستيطاني لفلسطين العربية لم تستطع ان تثبت اركان الكيان الغاصب رغم الدعم الاستعماري المستمر . فقد واجه الكيان الغاصب اربع حروب انهكت قواه وزلزلت اركانه ودعائمه .

ولملم الشعب العربي الفلسطيني جراحه لتولد الثورة الفلسطينية التي ما زالت صامدة رغم المؤامرات والخيانات تقدم الدليل على ان هذا الشعب سوف يستمر في الصمود ولن يعرف الانحناء طريقه الى قامته ولا الاستسلام سبيله الى اعماقه ، وازاء كل ذلك كان لابد للحركة الصهيونية ان تفكر في مخطط جديد ، ولم يكن هذا المخطط الجديد سوى مشروع الاستسلام الذي نفذه نظام السادات العميل بكل تفاصيله ، ولست محاولا التوسع في شرح معنى خيانة السادات ، واركان نظامه

فقد ادانه كل الشرفاء واتفقوا على أن ما قدمه لم يكن سوى تدشين لاستقرار الكيان الغاصب ودعم لاستمراره بتحويل الاحتلال الى امتلاك وذلك من خلال تحويل الكثافة السكانية العربيـة الى كثافة يهوديـة ــ هجرة ومستوطنات ــ .

ولكن ثمة حقيقة تقف بكل ثقلها في طريق المستعمرين الجدد وهي كيف يمكن ان تصبح كل مخططاتهم امرا واقعا مقبولا ومعترفا به ؟

ان ذلك لا يتحقق الا اذا نفـذ برنامج يستهدف غسل دماغ المواطن العربي . واستلاب الشخصية العربية وشل وعيها وافراغها من كل موروثاتها الحضارية والثقافية لتصبح اخيرا شخصية هزيلة خاوية مهياة لالتقاط كل ما يلقى اليها من افكار ومفاهيم مشوهة لا تبقي امامها غير خيار واحد هو قبول الوجود الصهيوني بارتياح واقتناع ، ومن ثم قبول الدور الموكل اليه من قبل الاستعمار في الوطن العربي . وبالتالي استكانة الجماهير العربية لقدرها المرسوم ، كعنصر استهلاكي متخلف لا دور له في هذه الحياة غير أن يرتدي من اللباس ما تنتجه معامل الصهيونيـة والاحتكارات الراسمالية الاستعمارية من الاجهزة والادوات اليومية ، بحيث يظل يستعمل ما تنتجه معامل العدو ومؤسساته الاقتصاديـة والثقافية حتى يموت او يسقط او يخون .

الا انه تظل هناك عقبة امام العدو لا يمكن اغفالها ، فطالما كان حملة الفكر الصهيوني ودعاته ، كتابا صهاينة ، أو كتابا غير اسرائيليين ولكنهم ليسوا عربا فانه من غير المؤمل ان تحقق الغزوة الثقافية الصهيونيـة نجاحا كبيرا وبالنتيجة يظل مصير المشروع الصهيوني الاستعماري مهما طال الزمن ، الفشل والانهيار .

وهكذا اخذت الصهيونية تخطط لتمرير المفاهيم والقناعات الصهيونية الى الانسان العربي عن طريق استقطاب بعض الكتاب العـرب الذين يؤثرون في قطاع واسع من القراء العرب .

واذا كانت القناعات الصهيونية قد وجدت طريقها الى التنفيذ عبر استقطاب الرئيس المصري المهزوم وتحويله الى ناطق رسمي باسم الاطماع الصهيونية في الوطن العربي . اذا كان الامر كذلك على المستوى السياسي فان هذه القناعة نفسها قد بدأت فيما يبدو تشق طريقها الى حيز التنفيذ على المستوى الفكري باستقطاب كتاب كبار وتحويلهم الى معبرين عن فكر الصهيونية او بمعنى آخر بدفعهم الى كتابة ادب صهيوني بأقلام عربية وهو ما انساق اليه كتاب من امثال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وغيرهما من جنود كتيبة تطبيع العلاقات المصرية الصهيونية .

* * *

هذا كله يضع الامة العربية بأسرها في مواجهة عدوها الحقيقي المتربص بها على مدى التاريخ ، تضعف قوة من قوى الاستعمار او يتزعزع ذيل من ذيوله ، وتنهار دعامة من دعاماته . لكنه لا يرعوي ولا يكف عن مواصلة غزواته التي تستهدف الانسان العربي ، فنفشل مخطط من المخططات لا يثنيه عن عزمه ، اذ سرعان ما يواصل تنفيذ مخططاته العدوانية بالادوات والدعائم الباقية ، لا يتوقف ولا يهدأ . انهارت بريطانيا فاصبحت مجرد دولة عجوز تعاني مشاكل شيخوختها واخذت فرنسا تبحث عن سبل اخرى للحفاظ على هيمنتها ونفوذها دون ان يستطيع احد كشف خوائها من الداخل وانهيار قواها ، واصبح الدور كله لزعيمة الامبريالية «امريكا» لؤسساتها وترسانتها العسكرية المهزومة في « فيتنام» واحقادها التاريخية على كل الشعوب ذات الاصالة الحضارية . واعتمادها في فرز سمومها على المرتزقة من كافة الاصقاع .

وهكذا فان مواجهة هذا الاخطبوط الاستعماري الذي تتزعمه «امريكا» هو قدر الامة العربية وهو معركتها الخالدة والمستمرة ؛ حتى يتم الانتصار الذي لابد ان يتحقق لانه سوف ينهي مرحلة كاملة بشعة كانت تجر ذيول الانحطاط . ويفتح الطريق امام طاقات الجماهير العربية من اجل ان

تؤدي رسالتها الخالدة على المستوى القومي والانساني . مبشرة بعصر جديد تنهار امامه كافة العلاقات الانسانية الظالمة وتتحقق من خلاله دولة الجماهير العربية وتنهارعند بزوغ فجره كل قلاع الطغيان والاستعباد ومن اجل ذلك فان هذه المعركة التي تواجه فيها الامة العربية عدوها مواجهة تحمل مقومات جديدة من يقظة الجماهير العربية وتفتح وعيها وادراكها لما يدور حولها ، ونضالها المستمر من اجل تحقيق وحدتها وجمع صفوفها واكتساح كافة العوائق التي وضعها الاستعمار في طريق زحفها العظيم .

ولعل هذا يفسر لنا لماذا فقدت قوى الاستعمار اعصابها حتى وصلت الى مرحلة استعراض ترساناتها المسلحة مهددة بالغزو المسلح بعد ان ايقنت ان اساليب الغزو الفكري قد انهارت امام صمود الانسان العربي وايمانه بامته وبدورها التاريخي في اثراء الحضارة الانسانية .

لقد ايقنت قوى الاستعمار انها بدات تواجه الجماهير العربية وقد تعودت ان تواجه حاكما او حكومة او مؤسسة سياسية من السهل عليها تغييرها ، اما ثورة الجماهير فامر جديد يجبرها على اعادة حساباتها.

من اجل ذلك كله فان هذه المعركة هي نداء للثقافة لكي تضع ثقلها في معركة الحق العربي الواضح ولكي تكشف كل الاقنعة حتى يتعرى الاعداء من العملاء والخونة امام الجماهير العربية امام صوت الحق والحقيقة .

وقد كانت هذه ومازال المهمة الاولى للثقافة العربية ودورها التاريخي في هذه المرحلة من حياة الامة العربية ، فالثقافة العربية التي تقدمت حركة النهضة العربية منذ نيف وقرن كانت تجد نفسها دوما امام قدر تاريخي بأن تكون خدين المعركة وفي كل معركة تخوضها الامةالعربية، كانت الثقافة الى جانبها تجتاز امتحانا قاسيا وتكتشف على ارض المعركة المقاييس الصحيحة للعديد من المفاهيم التي تشكل اسس النهضة .

واذا كان المثقف العربي قد تعثر في فترة من الفترات وتحول الى مجرد انسان هامشي بدون تأثير او فعالية لان الانظمة السياسية او الاطر الحاكمة قد جمدت فعالياته وقيدت انطلاقته وارهبته بزنازينها ومعتقلاتها تارة ، واغرته بكافة المغريات تارة اخرى ، اذا كان الامر كذلك في مرحلة من المراحل فان على المثقف العربي ان يستيقظ على زحف الجماهير العربية وان يتخلص من قيوده ليلتحق ويلتحم بالجماهير التي تناضل من اجل اكتساح كافة المظالم التي كانت تحد من انطلاقة الانسان العربي وتغتال طموحاته واحلامه .

لقد خاضت الامة العربية مجموعة من الحروب الطويلة والقاسية مع الكيان الصهيوني الحاقد ومع الامبريالية الامريكية ، التي تبنت هذا الكيان وغرسته في جسم الامة العربية ، ومع خطورة هذه الحروب ومآسيها وما تكبده المواطن العربي في سبيلها ، فان الادب العربي لم يستطع ان يصبح في السنوات الاخيرة ضمير هذه الجماهير المقاتلة ، وبصورة اكثر دقة لم يكن على مستوى الاحداث الجارية في الوطن العربي. اذ « كيف تخوض امة اربع حروب في ربع قرن ويطرد شعب باسره طردا جماعيا بالارهاب والدم لتحل محله شراذم مهلهلة جمعت على دفعات من اطراف العالم . كيف يحدث هذا لامة ما دون ان يزلزل ادبها وينتشله من رقدته الناعمة المتواكلة ؟ (١١) واذا كان الامر كذلك فمن الذي يستطيع ان يجيبنا على هذا السؤال المحدد :

كم كاتب من كتاب الحماسة المنبرية وهواة الشعارات ترك حياته الناعمة المطمئنة وأحاديث الصالونات والمقاهي والتحق بحياة المناضلين بالدم والنار وجرب الكتابة وسط المعارك ؟ .

ان اقصى ما فعله كتابنا هو الذهاب برحلات استعراضية سياحية لجبهات القتال في حالات توقف القتال بالطبع . او المرابطة في حجرات التسجيل بالاذاعة لصياغة الخطب الحماسية والقصائد العصماء .

وهكذا يمكن ان نخلص في نهاية المطاف الى اننا لا يمكن ان نحدد آفاق تطور الثقافة العربية الراهنة في مواجهة اشكال الغزو الثقافي المضاد الا اذا حددنا موقفنا من الثقافات الرجعية السائدة .

فكل ثقافة لا تعبر عن طموح الانسان العربي المناضل ضد الاستعمار والصهيونية وحليفتهما الرجعية ، كل ثقافة لا تقف ضد كل ألوان ودرجات واشكال التبعية والذيلية والاحتواء هي ثقافة معادية للثورة وللجماهير العربية المناضلة .

وكل ثقافة تحبذ او تبرر او تدعو للتجزئة الاقليمية ولا تتبنى بصيغة من الصيغ او بصورة من الصور استراتيجية الوحدة العربية الشاملة هي ثقافة معادية للثورة العربية وللأمة العربية .

وكل ثقافة تحبذ او تبرر او تدعو للجمود والسكون والثبات ، وتضع مصير المجتمع والانسان في يد الطغاة والمستغلين هي ثقافة معادية للثورة العربية وللأمة العربية .

وكل ثقافة تحبذ او تبرر او تدعو للتجهيل وللتخلف ولليأس والعدمية واللامبالاة والسلبية ، كل ثقافة لا تكون تحريضية تناضل من أجل حرية الانسان العربي وانتصاره ، هي ثقافة معادية للأمة العربية .

* * *

وبعد ذلك كله نستطيع ان نقول بأننا في أشد الحاجة الى استشراف آفاق جديدة للثقافة العربية ، وان نتجاوز هذه الابداعات السلبية الضحلة ، التي لا تصور حقيقة مجتمعنا ، ولا تعكس تطلعات امتنا ولا تعالج نواحي النقص فينا ، ولا تلهمنا فكرا جديدا يفجر طاقاتنا وابداعاتنا وامكانياتنا ، ولا تضع يدنا على حقائق جديدة ومثل جديدة ، ومعاني جديدة وقيم جديدة ، ولا ترتفع بأخلاقنا وكرامتنا وعزمنا وتصميمنا الى الذروة التي يجب ان تصل اليها ــ بحكم الظروف والاحداث ــ والمواجهة

السافرة بيننا وبين اعدائنا . ان اكثر هذا الادب لا يحلل ولا يقيم ولا يلم ، بل هـو مجرد استلاب يشع للهموم الفردية وردود الفعـل الذاتية ، والاستلاب المقيت الذي يجعل منه مجرد تكرار او خضوع لمفاهيم مـا ابعدها عن الالتصاق بواقعنا وما اشد عجزها عن التأثير في حياتنا .

لقد ترتب على هذا كله ، هذه الموجة العارمة ، ما يمكن ان نسميه بـ « ثقافة الردة » ان جاز لنا ان نسميها كذلك ، كما ترتب عليها هذه الدوامة من الاتجاه الى التجريب والتغريب . وهذه المراوحة بين الخطأ والصواب والبلبلة التي يقع فيها المثقف العربي وتقع فيها الثقافة العربية . الامر الذي لا يمكن ان ينتج عنه سوى السقوط والهزيمة والانحدار على « المستوى السياسي في البراغماتية اللامبدئية ، وعلى الصعيد الثقافي والحضاري . في الانتقائية التي تنطوي على « التناقض »(١٢) وفي غياب الثقافة التي تضع الجماهير في قلب تجربتها وتناضل من اجل قضاياها وترتبط بها مصيريا .

ان استشراف آفاق جديدة للثقافة العربية يتطلب اعادة بناء العقلية العربية ودراستها دراسة جادة وعميقة حتى نتعرف على مختلف نواحي القوة والضعف فيها .

ان عملية النقد وحدها لا تكفي ، والعالم المتحضر كله يدرس نفسه ، ويقوم شخصيته ، ويتعرف على دخيلة مجتمعه عن طـريق الدراسة العلمية ، نفسيا واجتماعيـا وفلسفيا وسياسيا وعسكريا وتاريخيا ، وربط ذلك كله بما هو واقع مشاهد ، ان هذه الدراسة سوف تعطينا الصورة متماثلة ـ لما ينقصنا ـ ولما يجب علينا في نفس الوقت ان نقوم به او نبتعد عنه او نعالجه . نعم يجب ان نتخلص عقولنا مما علق بها من عصور الاستعمار والتخلف الفكري والحضاري ، وان نكون صادقين مع انفسنا لنصدق بالتالي مع التزامنا بقضايا ومصير امتنا وان نعري واقعنا ـ لان الاديب ضمير شعبه ـ ولان تحرير الذات العربية يتطلب موقفا جادا من النقد البناء الذي يقوم على بناء المجتمع الافضل .

ان بناء المجتمع الافضل لا يقوم على الكلمات الرنانة الفارغة الجوفاء – التي تعودنا أن نقولها بمناسبة وبغير مناسبة – وانما يقوم على انفعال يتأثر به مجتمعنا العربي وتبدو فيه الحياة قد تغيرت في كل شيء .. كما يحدث اليوم عند مجموعة الشعوب المناضلة التي ضربت أعظم الامثال في التضحية والبطولة وحققت نصرا ساحقا على كل اعدائها في الداخل والخارج .

* * *

هوامش :

(١) عزيز ديب : المسرح العربي من التحريض الى التهريج ، مجلة قضايا عربية ديسمبر ١٩٨٠ ، ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠١ .

(٣) د. غالي شكري ، انهم يرقصون ليلة رأس السنة ، دار الآفاق الجديدة . الطبعة الاولى ١٩٨٠ ص ٥١٦ .

(٤) د. عواطف عبد الرحمن / الصحافة الصهيونية في مصر من سنة ١٨٩٧ حتى ١٩٥٤ / دار الثقافة الجديدة .

(٥) د. غالي شكري ، المرجع السابق ص ٥٢١ .

(٦) احمد عباس صالح / الادب الانعزالي في مصر / اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٧٩ ص ٦ .

(٧) د. غالي شكري ، المرجع السابق ص ٢٧٣ .

(٨) عبد الرحمن عمار : البعد القومي للادب العربي ، مجلة الآداب البيروتية العددان الثامن والتاسع ، اغسطس وسبتمبر ١٩٧٩ .

(٩) نفس المرجع السابق .

(١٠) صحيفة السياسة الكويتية ، لقاء مع نجيب محفوظ وبعض المثقفين المصريين .

(١١) احمد محمد عطية / الالتزام والثورة في الادب العربي الحديث / دار العودة ، بيروت دار الكتاب العربي ، طرابلس طبعة أولى ١٩٧٤ ص ٥ ، ٦ .

(١٢) أمير اسكندر ، صراع اليمين واليسار في الثقافة المصرية ، دار ابن خلدون الطبعة الاولى ١٩٧٨ ص ١٢ .

المؤتمر العام الثالث عشر
للإتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
عدن - صنعاء
نوفمبر ١٩٨١

الثقافة الوطنية الفلسطينية ودورها في مواجهة الاستعمار والصهيونية

نزيه أبو نضال
(فلسطين)

كان للظروف الخاصة التي عاشها المجتمع الفلسطيني منذ بدايات هذا القرن في مواجهة الاستعمار البريطاني والمشروع الصهيوني أن تحدد موقع ودور الثقافة الفلسطينية في الخنـدق الوطني المضاد للاحتـلال وللتهويد ، فلم تشهد هذه الثقافة بخطوطها الاساسية خلافا لمثيلاتها في الوطن العربي حالات التغريب الثقافي والتذبذب الطبقي ، ذلك ان المشروع الامبريالي ـ الصهيوني كان يستهدف الوطن الفلسطيني بكافـة فئاته واتجاهاته وطبقاته . ان طموح هذا البحث ان يتلمس المحاور الاساسية في الحركة الثقافية الفلسطينية من زاوية محددة وهي موقع هذه الثقافة ودورها في مواجهـة الاستعمار والصهيونيـة وما تمثله من غزو ثقافي لفلسطين وللوطن العربي .

قال دنلوب مستشار اللورد كرومر حاكم مصر في بداية هذا القرن : لا بد لأية حركة سياسية وطنية نامية من مجموعة كبيرة من المفكرين القادرين على إعمال عقولهم .. بحيث تتيح للحركة الوطنية ان تقوم بدعايتها واثارتها « وفي المقابل فان الاستعمار » بحاجة الى فئة من المثقفين لينفذوا اغراضه في مختلف مجالات الحياة .

كلمات مستشار كرومر تشخص بذكاء شديد موقع الثقافة ودورها : فهي من جهة سابقة على النضال الوطني وممهدة له ومؤثرة فيه . ولعل دنلوب هنا يستعيد في ذاكرته توم بين وروسو وفولتير ومونتسكيو ، والادوار التي لعبوها في الثورات الانكليزية والفرنسية والامريكية ، كما يستحضر عددا من المفكرين الذين اسهموا في التحضير ضد المستعمرين (جمال الدين الافغاني وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد عبده ورفاعة الطهطاوي) .. الخ ، من جهة ثانية فان دنلوب يحدد نوعا آخر من المثقفين المرتبطين بالاستعمار لينفذوا اغراضه في مختلف مجالات الحياة ، وفي مقدمتها نشر الحضارة والايديولوجية الاستعمارية الغربية والتصدي للمثقفين الوطنيين بتشويه افكارهم ، ولاضعاف تأثيرهم على الحركة السياسية الوطنية المناهضة للاستعمار .

أردنا من خلال هذا الاستشهاد أن نحصر مفهوم الثقافة الوطنية الفلسطينية في اطار محدد في هذا المجال .

وهذا التحديد اضافة الى انه يخدم بحثنا في موضوع موقع ودور الثقافة الوطنية الفلسطينية ، فانه لا يتنافى والمفهوم العام للثقافة كونها محصلة معرفية تاريخية اجتماعية شاملة تنتج سلوكا ومواقف من الآخرين ومن العالم .

ان حجم التحدي الوطني الذي واجهه الشعب الفلسطيني منذ بداية هذا القرن ممثلا بالاحتلال البريطاني وبمشروع « الوطن اليهودي » قد

رفع من وتيرة الصراع الوطني السياسي والمسلح .. وقبل ذلك وخلاله وبعده وضع الثقافة الوطنية الفلسطينية امام مسؤوليات كبيرة ، وادخلها في معترك النضال اليومي ، واسهم في عملية الفرز بين الثقافة المعادية بصورة حاسمة ، بحيث لم يترك اي هامش يذكر لعمليات الخلط والتشوه الثقافي والسياسي .

هذه الوضعية لم تمكن المحتلين من خلق فئة كبيرة من المثقفين القادرين على خدمة اغراض البريطانيين والصهاينة . فاندرجت الحركة الثقافية الفلسطينية بايقاعها العام في الاطار الوطني النضالي .

هناك بالطبع استثناءات وخاصة المرحلة التي سبقت تبلور الخطر الصهيوني حيث ظهرت بعض الاصوات التي ترى الانكليز اصدقاء ، وليس طرفا في المشروع الصهيوني الا ان هذه الاصوات كانت تخفت بالتدريج مع تنامي حدة الصراع المسلح ضد العدو المشترك . ومن بقي من هؤلاء في المراحل اللاحقة اخذ امام الناس صورة العميل للانكليز وليس صورة صاحب الموقف او وجهة النظر التي تستحق التأويل والاجتهاد .

على هذه الارضية نشأت وتنامت الحركة الثقافية الوطنية الفلسطينية ولكن هذه الحركة لم تتم بمعزل عن الحركة الثقافية العربية العامة ، لانها بالاساس جزء منها ، ولان القضية الفلسطينية مثلت هما مركزيا في الثقافة العربية نفسها فتلاحم الجزء بالكل في سياق حركة تاريخية واحدة ، وان لم يلغ ذلك بالتاكيد الخصوصية الفلسطينية بجانبها الثقافي بحكم موقعها ودورها في الصراع الحاد المباشر على ارض فلسطين .

وعروبة الثقافة الفلسطينية لم تكن بمعزل عن الثقافة الانسانية العالمية بمضامينها التحررية والتقدمية والوطنية المعادية للامبريالية والتخلف والاستغلال .

الجـذور :

ليس رغبة باستعادة ماض بعيد ان نتلمس المحاور الاساسية التي نهضت عليها الثقافـة الفلسطينية ، وشكلت طموحاتهـا على امتداد (الراهن التاريخي) الذي نعيشه منذ بدايات هذا القرن الى الآن .

ذلك ان هذا الماضي القريب يقدم لنا نموذجا واضحا عن وحدانية ثقافية قبل تشتت الشعب الفلسطيني في الداخل وفي المنفى بعد الاحتلال الصهيوني لفلسطين عامي ١٩٤٨ ثم ١٩٦٧ .

وهذه العودة الى الماضي القريب تكشف لنا من جهة ثانية العوامل التي شكلت الطبيعة الخاصة للثقافة الفلسطينية الراهنة ، وسر استمرار هذه الطبيعة الخاصة بخطواتها العامة والاساسية رغم ظروف التجزئة .

ان أول ما يلفت النظر في الحركة الثقافيـة الفلسطينية هو هـذا الالحاح الحار على اليومي والمباشر . فالخطر ملموس وداهم ، والمعارك اليومية دائرة ، والضرورة العملية تفوق ما عداها . من هنا فلم يكن غريبا في ظل التحديات القائمة والصراعات المصيرية التي تهدد بنسف وجود شعب بكامله ان ينصب الاهتمام الثقافي على اليومي والمباشر الذي يغلب عليـه طابع الانفعـال والحماس والتحريض ، فراحت النتاجات الثقافية التكتيكية كالشعر والقصة القصيرة والكتابة الصحفية اليومية والاسبوعية السياسية والادبية وتراجعت في المقابل الثقافة الاستراتيجية ذات الطابع التأسيسي كالمؤلفات الفكرية والفلسفية والتاريخية والروائية، وحالت الظروف العامة نفسها دون ولادة أنواع اخرى من الانتاج الثقافي كالمسرح والسينما والفنون التشكيلية والموسيقى ... الخ .

بعد نكبة ١٩٤٨ تغيرت الصورة نسبيا ، وان حافظ الشعر على مكانته الاولى ، فالهم متواصل ، وحرارة الانفعـال مستمرة ، وليس

كالشعر ما يعبر عن حنين المنفيين ومعاناة الصامدين . ظل الوطن هو المحور الاساسي الذي تجندت حوله الثقافة الفلسطينية دفاعا عنه وحنينا اليه ونضالا من اجل تحريره .

الوطن :

في الدراسة التي قام بها الدكتور توفيق فرج لـ ٤٣٠ طالبا في جامعة الكويت وينتمون لـ ١٥ بلدا عربيا حول اولوية انتماءاتهم وجد ان الطالب الفلسطيني اعتبر نفسه اولا فلسطينيا ثم حزبيا ثم عربيا .. وبعد ذلك يأتي انتماؤه للعائلة وللدين .

وفي المقابل وجد ان اولوية الانتماءات لدى الطلبة العرب الآخرين تبدأ بالدين ، ثم العائلة ثم الوطن فالعروبة أو الانتماء السياسي والحزبي .

ان اولوية الانتماء للوطن لدى الفلسطينيين ليست لمجرد التشرد وفقدان فلسطين ؛ ولكن هذه الاولوية تستمد وجودها من تراث قديم حيث الشعب يخوض معركته ضد الانتداب البريطاني والغزو الصهيوني دفاعا عن ارضه ووجوده المهددين بالاحتلال . وفي هذه المعركة جند الشعب الفلسطيني كل طاقاته وقدراته الثقافية والبشرية لمواجهة هذا التحدي المصيري ، وبهذا سقطت الطائفية في فلسطين كما تراجعت مختلف الانتماءات الاخرى لصلحة التناقض الرئيسي مع العدو الاجنبي .

وهذا المكون الثقافي والسياسي في الوجدان الفلسطيني ظل متواصلا مع الزمن ، ومتصلا بالوطن : الأرض والقضية ، وهذا الاحساس الوطني اخذ قبل النكبة شكل التحريض اليومي لقتال الاعداء وللتمسك بالارض ضد البيع والمصادرة والسماسرة ولكشف الأخطار المحدقة بالبلاد بسبب الهجرة اليهودية والاجراءات البريطانية والتآمر والتخاذل العربيين .

اما بعد النكبة فاتخذ شكل الحنين الى الارض للعودة لدى الذين طردوا من وطنهم ، كما اتخذ شكل الصمود والالتحام بالارض لدىشعراء المقاومة داخل الأرض المحتلة .

الشعر :

قيل قديما ان « الشعر ديوان العرب » ، ويصح هذا بأن نقول اليوم بان الشعر هو ديوان فلسطين .

لقد ظل الشعر الفلسطيني في جميع الأحوال اللسان المعبر عنالحركة الثقافية والسياسية بحيث يمكن قراءة التاريخ الفلسطيني بمختلف مراحله من خلال هذا الشعر .

ولهذا فنحن نعتقد باستحالة قراءة واقع ومسار الحركة الثقافية الفلسطينية بدون قراءة حركة الشعر الفلسطيني ، لقد نهض الجيل الأول من الشعراء الفلسطينيين بدور هام وبارز في خوض المعركة الوطنية بمختلف جوانبها وحذروا قبل صدور وعد بلفور من الخطر الصهيوني ومن سياسة الهجرة اليهودية ومصادرة الاراضي وبيعها ودعوا الى التلاحم العربي لانقاذ الوطن من الأخطار المحدقة به ، وشنوا حملات ضارية ضد السماسرة والعملاء والتخاذل العربي ، كما جندوا أقلامهم لحث الجماهير على خوض النضال وسقط شعراء منهم في ساحة النضال او في زنزانات المحتلين البريطانيين .

ويسجل تاريخ الحركة الثقافية الفلسطينية بفخر اسماء كوكبة عظيمة من الشعراء الذين وهبوا انفسهم لقضية الوطن : اسعاف النشاشيبي والشيخ سليم اليعقوبي وبرهان الدين العبوشي واسكندر الحوري البجالي والشيخ ابراهيم الدباغ .

وفي خضم الكفاح الفلسطيني المسلح الذي انفجر عام ١٩٢٩ وبلغ ذروته بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ توهجت اسماء كوكبة من الشعراء الكبار: ابراهيم طوقان وأبو سلمى ومصطفى عبد الخالق والشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود .

لقد تحول الشعر الفلسطيني في خضم الصراع الوطني الى وثيقة حية وبيان سياسي متصل يكتب ويدافع ويفضح ويحرض .

بعد نكبة ٤٨ عاشت الأرض في الوجدان الفلسطيني وجعا مقيما وحنينا دافقا وتحول الشعر الى جسر لاشواق العودة وملحمة للصمود والتشبث بالارض .

كيف تجلى البعد الاجتماعي والطبقي في الحركة الثقافية الفلسطينية باعتباره الوجه الآخر المفترض للثقافة الوطنية ؟

ان « الوطنية » في الثقافة الفلسطينية مشتقة اساسا من هذا المفهوم النضالي التحرري ، وليست مشتقة من الوطن باعتباره كمينا جغرافيا . من هنا فان الثقافة الوطنية الفلسطينية تقع حصرا خارج المدلول الشائع عن ثقافة وطنية لبلد ما كأن نقول ثقافة وطنية هندية او برازيلية .

من جهة ثانية فان هذه (الوطنية) التي وجهت الحركة الثقافية الفلسطينية في اطار المعركة ضد الاحتلال والاستيطان الاجنبي باعتبارهما شكل التناقض الرئيسي لم تلتفت بعمق الى طبيعة الاداة الوطنية التي تقود الصراع ضد الاعداء ، ولهذا فان مفهوم التحرر الاجتماعي كصراع طبقي لم يترابط او يتكامل مع مفهوم التحرر الوطني ، وقد ادى غياب الوعي الثقافي تجاه هذه المسألة الى انتكاسات عديدة لانزال نشهد آثارها الى اليوم ، ورغم التطور النوعي في هذا المجال ، غير ان هذا الحكم العام

لا يعني عدم وجود التفاتات هامة كانت تبرز بين الفترة والاخرى ، وخاصة في مجال القصة القصيرة كما نجدها عند عارف العزوني ، خليل بيدس ونجاتي صدقي وسيف الدين الايراني وفي الشعر عند ابو سلمى وبعض قصائد عبد الرحيم محمود ومطلق عبد الخالق وابراهيم طوقان . الا ان المحصلة الثقافية العامة كانت من طبيعة وطنية تحررية عامة ولـم تشتمل على بعدها الاخر وهو التحرر الاجتماعي .

الصحافـة :

لقد تركز حديثنا بصورة اساسية على الحركة الشعرية باعتبارها ابرز ملمح ثقافي فلسطيني ، غير اننا في هذه القراءة للثقافة الفلسطينية علينا أن نتوقف قليلا امام الصحافة الفلسطينية والتي مثلت الوجـه السـياسي اليومي للحركة الثقافية في مقابل الوجه الأدبي الآخر ممثلا بالشعر اساسا وبالقصة القصيرة نسبيا .

بلغ عدد الصحف والنشرات التي صدرت في الفترة الواقعة بين ١٨٧٦ ــ ١٩٤٨ حوالي ٢٢٥ صحيفة أما الصحف العربية التي ظهرت في مرحلة المواجهة ضد الانتداب والهجرة اليهودية فبلغت ١٥٦ صحيفة صدر معظمها في مرحلة الانتداب ، اي في مرحلة تصاعد المجابهة المسلحة ضد الأعداء .

لقد حددت الصحافة الفلسطينية دورها وموقعها منذ بداية القرن في خوض المعركة ضد الغزوة الصهيونية ، ثم بعد ذلك ضد الاحتلال البريطاني ، ولكشف المؤامرات المحيطة بالوطن الفلسطيني .

جريدة « الكرمل » التي أصدرها نجيب نصار عام ١٩٠٨ ، قالت في افتتاحية عددها الأول : ان الهدف من اصدار هذه الصحيفة هو التصدي للهجرة اليهودية الى فلسطين ولفضح الحركة الصهيونية ولكشف اخطار بيـع الاراضي وهـذه الحملة كانت الموضوع اليومي للصحافة الفلسطينية على امتداد المرحلة اللاحقة .

لقد كشفت الصحافة الفلسطينية منذ وقت مبكر الطابع السياسي العدواني للحركة الصهيونية ، فكتبت جريدة فلسطين في ١٩٢٧/٩/٢٧ ما يلي :

« الصهيونية تضلل العالم بمشكلة المشردين وتستغل ناحية الشعور الانساني بين الامم للعطف على المأساة اليهودية ولتأييد مطلبها السياسي العدواني في فلسطين ، ولكنها » الحركة الصهيونية « لا تهتم بهؤلاء المشردين الا بقدر قيمتهم السياسية في قضية فلسطين » .

ان الدور المتميز الذي لعبته الصحافة في الحياة الفلسطينية ، يشبه كما قلنا الدور الاول الذي لعبته الحركة الشعرية ، وذلك بحكم الضرورات العملية واليومية المباشرة لمواجهة التحديات والاخطار المحدقة بالمصير الوطني . وكما تحول الشعر الى بيان سياسي متصل ، تحولت الصحافة الى صرخة تحريض حارة لتعبئة الجماهير في المعركة الوطنية .

جوانب اخرى من الحياة الثقافية الفلسطينية :

ان الدور المتميز للحركة الشعرية وللصحافة اليومية في الحياة الفلسطينية لا يجعلنا نغفل الدور الذي لعبته الجوانب الثقافية الاخرى، ونرى من المفيد ان نتحدث بايجاز عن أبرز هذه الجوانب .

لقد أتاحت الظروف الخاصة للأراضي الفلسطينية المقدسة وما لقيته من اهتمام العديد من الدول الاجنبية ، وبغض النظر عن دوافع هذا الاهتمام فرصا مبكرة تمتد الى اواخر القرن التاسع عشر في تأسيس حياة ثقافية متقدمة قياسا الى بقية الاقطار المجاورة .

فلقد منح القانون العثماني امتيازات ثقافيـة للطوائف الدينية في فلسطين وللدول الأجنبية التي تعتنق مذاهب دينية متعددة ، فكان ان ظهرت نتيجة ذلك اعداد من المدارس التابعة للطوائف الدينية والمذهبية

المختلفة والتي يتلقى معظمها دعما مباشرا من الدول والمؤسسات الدينية والأجنبية ، وحرصت هذه الدول على ان تكون اللغة القومية لكل منها هي اللغة الثانية في مدارسها .

وكان هناك المدارس الانكليزية والفرنسية والايطالية والالمانية والروسية القيصرية الى جانب المدارس الاسلامية واليهودية والمدارس الحكومية ، سواء في عهد العثمانيين أو بعد ذلك في عهد الانتداب البريطاني .

هـذا التنوع في الاتصال باللغات والثقافات الاجنبية فتح المجال واسعا امام نهوض حركة ثقافية ارتكزت في مراحلها الاولى على عملية ترجمة واسعة نسبيا وخاصة في مجال الأدب . وتميز في هذا الميدان الاديبان خليل بيدس ونجاتي صدقي والمفكر بندلي صليبا الجوزي من الروسية ، كما تميزت في مرحلة لاحقة ترجمات الأديب الشاعر جبرا ابراهيم جبرا عن الانكليزية ، وترجمات الكاتب المؤرخ عادل زعيتر الذي نقل العشرات من امهات الكتب الفكرية الفلسفية والأدبية الفرنسية .

ولعبت الفرق المسرحية والتمثيلية رغم حداثة التجربة وضعف الامكانيات دورا وطنيا نشطا في الحياة الثقافية الفلسطينية ، فظهرت عشرات الفرق التمثيلية التي قامت بتمثيل العشرات من المسرحيات المترجمة والموضوعة .

وفي مدينة حيفا وحدها مثلت عام ١٩٢٩ ثماني مسرحيات من بينها « كسرى والعرب » و « انتقام الكاهن » و « فهد الطرابلسي » و « مطامع النساء » و « الوفاء » و « مجدولين » و « الأسود » و « النعمان » .

* * *

وانتشرت في المدن الفلسطينية الكبرى العديد من المنتديات الادبية والثقافية وخاصة في مدينة القدس التي كانت احدى المحطات الثقافية الأولى في الوطن العربي آنذاك .

ولعبت الاذاعة الفلسطينية دورا وطنيا متميزا ايضـا في الحيـاة الثقافية الفلسطينية ، وخاصة في الفترة التي اشرف عليها الشاعر الكبير ابراهيم طوقان والتي استمرت عام ١٩٣٦ ـ ١٩٤٠ .

وقد جند الشاعر كل امكانياته ومواهبه من اجـل توظيف هـذا الجهاز الاعلامي الهام في خدمة القضايا الوطنية للجماهير وفي احيـاء التراث العربي رغم الرقابة الحازمة للانتداب البريطاني، ورغم الانتقادات والهجمات المتواصلة من الحركة الصهيونية .

النقـــد :

اتكات الحركة النقدية في بداية تأسيسها على يد روحي الخالدي على ترجمة المفاهيم النقدية الغربية وخاصة الفرنسية منها . ثم راح الخالدي بعد ذلك يجري ذات القياس والمنهج على الانتاج الادبي العربي القديـم والحديث .

ثم تواصلت الحركة النقدية بعد ذلك على ايدي خليل بيدس والمربي الكبير الأستاذ خليل السكاكيني والى جانبه الأستاذ اسعاد النشاشيبي ثم احمد شاكر الكرامي وبعده الناقد التقدمي عبد الله مخلص . كما أسهم في الحركة النقدية عدد كبير من الكتاب والقصاصين من بينهـم نجاتي صدقي وسيف الدين الايراني وابراهيم طوقان . وقد تحورت الحركة النقدية آنذاك حول مفهومين أساسيين :

الاول : مفهوم اجمالي شكلي عبر عنه النشاشيبي .
الثاني : اجتماعي عبر عنه عبد الله مخلص .

غير ان الحركة النقدية رغم شيوعها في الصحافة اليومية والمجلات المتخصصة كالاصمعي والميزان لم تبلور مناهج أساسية متماسكة بسبب اضطراب الحياة السياسية اليومية من جهة وتعدد مشاغل العاملين في

الحقل النقدي من جهة ثانية ، ثم بسبب قصر المسافة الزمنية التي تتيح لها أن تتطور وتنمو ، فقد حدثت النكبة الكبرى عام ١٩٤٨ لتقطع مسار الحركة الثقافية الفلسطينية بمختلف جوانبها وتدخلها في مرحلة جديدة.

الثـــورة :

اذا كان الوطن هو المحور الاساسي الذي تجندت الثقافــة الوطنية الفلسطينية من اجله ، فان الثورة هي الاسلوب الذي وجدت فيه هذه الثقافة الوطنية خلاص الوطن وتحرره . لقد عكس المضمون الاجتماعي الفلاحي للثورة طابعه الوطني التحرري على الحركة الثقافية الفلسطينية.

ان الثورة التي فجرها الشيخ عز الدين القسام تشكلت بجسمها الرئيسي من ابناء الريف وفقراء المدن ذوي الأصول الفلاحية . وكانت آيات واحاديث الجهاد هي عنصر التثقيف الاساسية داخل الخلايا القسامية الأولى .

غير ان هــذا العنصر الديني الثوري وهو يمارس دوره في وسط فلاحي محافظ لا يلغي المفاهيم المتخلفة والسلفية والأفكار التقليدية ، وبالتالي لا يساعد على نشر وبلورة المفاهيم التقدمية والأفكار التحررية ذات المضامين الايديولوجية الاجتماعية مما جعــل الثقافة الفلسطينية تراوح بخطوطها الاساسية في اطار المفاهيم الوطنيــة التحررية العامة كما قلنا .

الزعامة السياسية بقيادة المفتي الحاج امين الحسيني كرست بدورها هذا المنهج العام ، ولهذا فلم يكن غريبا أن تكون معظم الزعامات السياسية في تلك المرحلة من أبناء العشائر والعائلات الكبيرة ، مما جعل السيادة الثقافية لايديولوجية البرجوازية الفلسطينية ذات النهج الوطني العريض .

في اطار هذه الايديولوجية الوطنية ومفاهيمها الثقافية العامة ، وفي خضم الصراع اليومي المباشر ضد الغزو الاستيطاني والانتداب لعبت الثقافة الفلسطينية دورا هاما في الدعوة للثورة وفي المشاركة فيها ثم في التبشير بها بعد النكبة والانخراط في صفوفها مقاومة وقتالا في الداخل والخارج .

مرحلة جديدة :

المتابع لمسار ودور الحركة الثقافية الفلسطينية يلحظ ثلاث مراحل اساسية تمتد الأولى الى عام النكبة ، والثانية من النكبة الى الثورة فيما تتصل المرحلة الثالثة من انطلاق الثورة الى الآن .

واذا كانت المرحلة الأولى قد شهدت وحدة موقف ثقافي متميز على ارضية الصراع الوطني ضد الصهيونية والانتداب فان المرحلة الثانية قد تداخلت بالثقافة العربية الشائعة وان احتفظت بنكهة فلسطينية خاصة تمثلت بحنين دافىء الى الوطن وخصوصا في الأعمال الابداعية ، الا ان الثقافة الفلسطينية حتى بجانبها الابداعي قد اتصلت من حيث الشكل بحركة الابداع العربية، اتصالا وثيقا سواء في الشعر او القصة او الرواية او الفنون التشكيلية .

في المرحلة الثالثة التي ترافقت مع الكفاح المسلح الفلسطيني عادت الثقافة الفلسطينية لتتمحور مجددا حول الثورة محققة وحدة ثقافية متميزة نسبيا عن الثقافة العربية السائدة .

ولا بد هنا من التنبيه بسرعة الى ان الحديث عن التمايز والتداخل مع الثقافة العربية لا يعني للحظة واحدة وجود ثقافتين مختلفتين تتمايزان حينا وتتداخلان حينا آخر . ذلك ان الثقافة الفلسطينية هي في جوهرها وتكوينها ثقافة عربية وان تمايزت الى هذا الحد او ذاك ؛ وفي هذه الفترة او تلك ، بفعل الظروف الاستثنائية التي مر بها المجتمع الفلسطيني ولا يزال في ظل واقع التجزئة العربية .

يضاف الى ذلك أن الطبيعة الاستيطانية للعدو الصهيوني ، والتي استهدفت المجتمع الفلسطيني بكافة فئاته وطبقاته ، قد حددت ثقافة هـذا المجتمع على ارضيـة موقف وطني . ولم تنشأ بالتالي ثقافتان متناقضتان بالمعنى السـائد في المجتمعات الطبقية ، وهذا العامل الرئيسي الذي وسم الثقافة الفلسطينية بطابعها التحرري الوطني العام ، وغيب محتواها الاجتماعي والطبقي الا بحدود ضيقـة كمـا اسلفنا . وحين تداخلت هذه الثقافة الوطنية التحررية بعد النكبة بالثقافة العربيـة السـائدة وجدت ارضا خصبة من ذات المفاهيم ، وان اختلفت الأسباب والمكونات .

الثقافة العربية :

ان قراءة سريعة للواقع الثقافي العربي المعاصر توضح هذه المسالة من ناحية ، كما تكشف جانبا هاما من العناصر المكونة للثقافة العربيـة ومنها الثقافة الفلسطينية من ناحية ثانية ، كما تلقي الضوء من ناحية ثالثة على مرحلة كاملة من مسار الثقافة الفلسطينية ، وهي تلك التي امتدت من ١٩٣٨ الى انطلاقة الثورة عـام ١٩٦٥ وتناميها الجماهيري الواسع بعد حزيران ١٩٦٧ والكرامة في آذار ١٩٦٨ . كما أن هـذه القراءة من ناحية رابعة هي وحدها القادرة على تفسير العديد من الظاهرات الثقافية في الواقع الفلسـطيني الراهن وكشف سر سيادة النهج القائم في الحياة الثقافية والسياسية الفلسطينية .

* * *

لعل أبرز السمات التي تميز الثقافة العربية هو انها ثقافة توفيقية وبلا جذور ... ذلك ان نشأتها الحديثة قد واكبت نشأة البرجوازية الكومبرادورية المرتبطـة بالمتروبول الأوروبي ، وعلى ارضيـة التبعية المباشرة له .

آنذاك .. كان التراث العربي يرزح تحت عمة المستبد التركي وتخلفه والذي اختزل التاريخ بقانون الخلافة ، والفكر بمرافعات الغزالي .. وحيث كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة صاحبها الى النار ، فكان ان احتكر « الغزاليون » التراث وهرب المثقفون صوب الثقافة الأوروبية المعاصرة ، مما وضع التراث في خندق المجابهة ضد المعاصرة وفي هـذا المناخ ظهر التوفيقيون الذين (برهنوا) على ان الذرة قد وردت في اي الذكر الحكيم .

غير ان « الغزالية » وهي ايديولوجية الطبقات الحاكمة الاقطاعية وشبه الاقطاعية لم تكون بحقيقة الأمـر على خلاف جذري مع ثقافـة البرجوازية الكمبرادورية المرتبطة .. ذلك ان هـذه البرجوازية نفسـها كانت متحالفة موضوعيا مع الاقطاع وشبه الاقطاع وفي ظـل السيطرة الاوروبية والتبعية لها ، والخضوع لحكامها ومندوبيها الساميين .. اي الاولياء) مـن جديد .

على ارضية هذا التحالف الثقافي والطبقي حققت المدرسة التوفيقية سيادتها شبه المطلقة ، وكان لظهور الفكر المادي الماركسي اثره المباشر في التسريع بعملية التحالف التوفيقية هذه فواجهوا الاقتصـاد الماركسي بآدم سميث (رغم ان كليهما مستوردان) كما واجهوا الفلسـفة الماديـة بالايديولوجيات الدينيـة وتكفل آخرون بمواجهتها بالأسلحة الفلسفية للوضعيين والوجوديين وخاصة بحدسية برجسون وبرجماتية بركلي .

الماركسية في المقابل لم تكن سلاحا نظريا بيد الطبقات العاملة ، فهذه الطبقة العاملة ، في ظل السيطرة البرجوازية الكمبرادورية المتحالفة مع الاقطاع وشبه الاقطاع ما هي الا طبقة ضعيفة او غائبة .. فجاء انتشار الماركسية بين اوساط البرجوازية الصغيرة عموما لتتحول من منهج الى قالب ومن سطح نظري الى نص مقدس .

ماركسيو البرجوازيـة الصغيرة ورغم حديثهم اليومي عن الماديـة التاريخية لـم يتقدموا خطوة باتجاه التاريخ العربي والتراث العربي ،

فلقد اغناهم ماركس عن ذلك بكتابه الجامع عن « الحرب الاهليــة في فرنسا » وعن « الثامن عشر من برومير » فكان ان تكفل محمد عزة دروزة بانجاز كتابه الضخم عن « تاريخ الجنس العربي » وهكذا غاب المنهــج والدليل وانتشرت بصورة شديدة التشويه والاختلاط منوعات الثقافة المعاصرة والقديمة ، وعلى هــذا الركام تربى اجيال المثقفين العرب ، ولا زالوا يفعلون ذلك الى حد بعيد .

الانتقائيــة :

في ظل هذه المناخات الثقافية وبغياب المنهج اساسا برزت الانتقائية في اشد صورها تشوشا وبشاعة فالانتقائيون ــ وهم التعبير النموذجي لمثقفي البرجوازية الصغيرة المتذبذبة ــ يلتهبون بعواطف التغيير والثورة وشعاراتها المثلثة بالحرية والاخاء والمساواة او ما يعادلها في اقطــار اخرى . ووفق الترتيب الذي تشاء .. غير انهم ومع افتقارهم الطبيعي والمنظر للمارسة الثورية ، سرعان ما يسقطون عمليا في احضان الاصلاحية رغم تمسكهم (الحازم) بالشعارات، وهؤلاء عادة هم المنظرون الحقيقيون للوفاق الوطني والسلم الاجتماعي والتحالف الطبقي والتضامن العربي وهم عادة من تبــح اصواتهم في الهتاف للاشتراكية ووحــدة الجماهير الكادحة .

وفي مرحلة التحولات العنيفــة فان هؤلاء التوفيقيين والاصلاحيين لا يجدون مكانا لهم سوى بالارتفاع فوق الطبقات .. وبطرح افضــل رغباتهم على الجميع .. فيصفق لهم المواطنون الطيبون بحماس وفرح.. تماما كما يصفقون للرحابنة في نهايات مسرحيات فيروز عندما ينصف الملك الطيب الفقيرة المظلومة .. فتقر عيونهم ليلتها بنوم هادىء ... وقد يبادرون في مناسبات اخرى الى شطب مذهبهم من الهوية هربا من رؤية الدم و (حــما) للصراع الطبقي والطائفي البغيض .

والانتقائيون عندما يلتفتون للتراث وهم نادرا ما يفعلون ذلك فان التاريخ العربي يتحول الى مجرد شواهد للبرهنة عن أي شيء يريدونه ، وتفتقد لدى هؤلاء أي خلاف او اختلاف بين عمر وعثمان رضي الله عنهما .. وحيث غضب الله ينصب على مسيلمة الكذاب وعلى القرامطة لا فرق .

النص المقدس :

والى جانب الانتقائية هناك الكهنة المتعبدون في محراب النص المقدس وهؤلاء يشنون حربهم الشعواء على الانتقائية ، ولكن لانها ضد (الانتماء) وليس ضد المنهج .. ولهذا فهم يرفضون في اقتباساتهم الخروج على الكتب المقررة ومهما كلفهم ذلك .

هؤلاء هم الغزاليون لكنهم هذه المرة بطرابيش حمراء .. انها العملة الواحدة ذات الوجهين اما معدنها الفعلي فهو الانتقائية مرة ثانية .. انه النص المنزوع من داخل الكتب المقدسة والمقررة والذي يرفض ان يرى الناسخ والمنسوخ وأسباب التنزيل ، كما يرفض ان يرى السياق التاريخي الذي تنتزع منه هذه النصوص صاحبة العصمة والصالحة لتفسير كل شيء وفي اي مكان وزمان .. فاذا بتجار البندقية يختالون بثياب تجار مكة حتى تخال الجمل جندولا .

الفكر الرجعي والفكر التقدمي :

هل معنى ذلك عدم وجود ثقافة تقدمية بمواجهة ثقافة رجعية ؟ هذا التساؤل يسعى لتبسيط الامور بهدف مواجهتها بوضوح ومباشرة .. ذلك ان الثقافة هي عملية في غاية التعقيد والغموض . فما هو المقياس الذي نحاكم به الثقافة لتحديد هويتها ودورها ؟

يمكن القول بالطبع ان هناك ثقافة تقدمية عامة في مختلف ارجاء الوطن العربي كما ان هناك ثقافة رجعية ايضا .. الا ان ذلك في تقديرنا هو نوع من الحديث عن المواد الاولية او عن التراكم الكمي .. فثقافتنا التقدمية والوطنية لا زالت في مرحلة ما قبل التصنيع او ما قبل التحول النوعي .

ان الثقافة التقدمية هي فعل التغيير في عقل ووجدان الطبقة او الطبقات الصاعدة تمهيدا واسهاما في العملية الثورية التقدمية تاريخيا . وحتى تحقق الثقافة فعلها التغييري هذا فلابد ان تمتلك المنهج الذي يجند ويوظف العملية الثقافية والابداعية في معرفة الصراع الطبقي بالانحياز التام الى جانب القوى الطبقية صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة وضد القوى الطبقية المعوقة للتقدم .. ومعنى ذلك ان كافة اشكال الثقافة الانتقائية والتوفيقية والتلفيقية والاصلاحية لابد ان تخرج من دائرة الثقافة التقدمية وهي التي اندرجت في اطارها طويلا ولا زالت .

البرجوازية الصغيرة بمواقعها على هامش علاقات الانتاج او بين قطبي علاقات الانتاج الاساسيين في المجتمع البرجوازي لايمكن ان تنتج ثقافة تدعو الى تدمير علاقات الانتاج السائدة .. ولكنها تنتج فقط طبقة من المثقفين من دعاة المصالحة الطبقية .

ان المثقفين الثوريين المنتمين للجماهير العمالية والفلاحية المستغلة هم وحدهم الذين يفعلون ذلك وبالمواجهة المباشرة مع ثقافة السلطات السائدة ومع الثقافة التوفيقية والاصلاحية الشائعة . وعملية التغيير والمواجهة التي تحققها الثقافة التقدمية والثورية هي كما يقول حنا مينة، طويلة ومعقدة وشاقة ، الا انها تتواصل باليقين بان التغيير والتقدم هو عملية حتمية ترتبط بوعي الضرورة المترجم ابداعا فكريا وثقافيا ،وممارسة ثقافية عملية .

وحتى يتحقق ذلك على صعيد الثقافة فلابد ان تتوفر الشروط التي تجعلها ثقافة ثورية وتقدمية فاعلة ومغيرة . فالى اي حد حققت الثقافة

الفلسطينية في مرحلة الثورة الشروط التي تجعلها ثقافة ثورية وتقدمية فاعلة ومفيرة ؟ او الى اي حد تجاوزت الثقافة الفلسطينية مفاهيمها الوطنية التحريرية العامة ، باتجاه ثقافة جذرية تقدمية تسهم في فعل التغيير في عقل ووجدان الطبقة او الطبقات الصاعدة تاريخيا ؟ ولا يكتفي بالمراوحة في ظل شعارات (مرحلة التحرر الوطني) بمعناها البائس والمتخلف ؟ الاجابة في سياق ما سيأتي .

جدل المنفى والوطن :

اندرجت الثقافة الوطنية الفلسطينية على امتداد مرحلة الخمسينات والستينات في الجسم الثقافي العربي العام ، وأسهم المثقفون الفلسطينيون فيمختلف الانشطة العربية السياسية والثقافية والايديولوجية والتنظيمية غير ان وقائع التجزئة العربية وما افرزته من ظاهرات اقليمية كانت تدفع المثقف والمواطن الفلسطيني للارتداد نحو « فلسطين مستحيلة » ، فارتد الى « الحلم الممكن » وكابد اشواق الحنين الى الوطن . وانعكس ذلكعلى ابداعه الثقافي بنكهة فلسطينية لاتخفى ، عبر عنها وجدان ابو سلمى وهارون هاشم رشيد وفدوى طوقان ومعين بسيسو ويوسف الخطيب وكمال ناصر في ميدان الشعر ، كما عبر عنها غسان كنفاني وجبرا ابراهيم وسيف الدين الايراني في ميدان القصة والرواية ، واسماعيل شموط في الفن التشكيلي .

هذا الحلم بفلسطين لايلبث ان يتحول الى بشارة بالثورة وتحريض على النضال لتحرير الارض وخلاص الانسان وشكل ذلك كله احد المحاور الرئيسية في الحركة الثقافية الفلسطينية على امتداد تلك المرحلة والارض التي تتحول لدى الشعراء في المنفى الى حنين للعاشق وللفارس تتحول لدى شعراء المقاومة في الارض المحتلة الى جسد وكيان هو جسد الشاعر وكيانه ؛ فيقول محمود درويش : ـ

« هذه الارض جلد عظمي وقلبي
فوق اعشابها يطير كنحلة »

ويقول راشد حسين :

« انا الارض لاتحرميني المطر
انا كل ماظل منها لذا
زرعت جبيني شجر »

ويقول شيخ شعراء الارض المحتلة حنا ابو حنا :

« امنا الارض ونشأتنا مع الزرع غراسا
هل تكلم الطفل امه ؟

ان علاقة الشاعر بارضه هنا اكبر من مجرد الصمود والمقاومة والنضال ضد القمع والنفي والتهجير ، او ضد مصادرة الارض والشخصية الوطنية .. انها علاقة استغراق صوفي حيث يحل العاشق بالمعشوق بحيث يستحيل وجود احدهما دون الآخر ، ولهذا يقول سالم جبران :

« لولاك هل كنا سوى جثث
ولولانا اكنت سوى قبور »

غير ان هذه العلاقة لا تكتمل الا بالنضال وبالمقاومة فهي « الروح القدس » التي تجمع الاقانيم الثلاثة في واحد ، كما يقول محمود درويش:

« الارض والفلاح والاصرار ، قل لي كيف
تقهر
هذي الاقانيم الثلاثة ..
كيف تقهر »

* * *

المرحلة الثالثة

مع الثورة المسلحة :

ارتبط مستوى الوعي الثقافي الفلسطيني وتحددت دائرة اهتماماته الى حد بعيد ومنذ بدايات القرن ، بمسألة مركزية اساسية هي القضية الوطنية ، كما ارتبط بما يحقق لهذه القضية الانتصار ، اي بالثورة المسلحة ، ومن هنا فقد ظل هاجس الثقافة الفلسطينية متصلا بالقتال وبالسلاح سواء بالتبشير به او بالدعوة الى حمله او المشاركة فيه ، وهذا ما جعل من الثقافة الفلسطينية ثقافة مقاتلة بالدرجة الاولى وبالمعنى المحدد والمباشر لمفهوم القتال .

وقد انعكس هذا المفهوم للثقافة المقاتلة على انواع الابداع الادبي والفني المختلفة فالقلب كما تقول الاغنية الثورية الفلسطينية قنبلة والعظام المسنونة حراب لقاتل ، والجسد كما عند الفنان التشكيلي مصطفى الحلاج مشروع بالبنادق . وتتحول المعارك المسلحة التي يخوضها الفدائي الفلسطيني الى موضوع رئيسي في العديد من القصائد والقصص والروايات واللوحات الفنية والاغاني .. الخ ..

ويمكن تلمس هذه الظاهرة بوضوح في العديد من قصائد معين بسيسو واحمد دحبور وخالد ابو خالد ومي صايغ والشاعر الشعبي ابو الصادق ، كما يمكن تلمسها في مجال القصة والرواية في عدد من قصص يحيى يخلف ورشاد ابو شاور وغسان كنفاني وعلي حسين خلف . الخ .

وتتبع دائرة الاهتمام الثقافي الفلسطيني وتتنوع اساليبه وادواته ، ولكن يظل الوطن والثورة هما المحور الرئيسي للغالبية العظمى من الانتاج الثقافي الفلسطيني ، نجد ذلك في اوضح صورة من خلال الصحافة والمجلات والمنشورات الفلسطينية التي وصل عددها الى ما يزيد على المائة صحيفة ومجلة .

هذا الاستغراق الثقافي اليومي الحار في نضالات الثورة الوطنية ارتدى رغم اهميته الاعلامية والتحريضية المباشرة طابعا تكتيكيا ، وجاء ذلك على حساب تأسيس ثقافة استراتيجية رغم وجود عدد هام من مراكز البحث الفلسطيني كمركز الابحاث ومركز التخطيط ومركز الدراسات الفلسطينية في لبنان ، ومركز الدراساتالفلسطينيةفيبغداد ، ومؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية في دمشق .. الخ .. لقد ظل الهاجس الرئيسي في هذه المؤسسات البحثية يدور في ظل التأريخ لا التاريخ ، ويتركز على جمع وتبويب المعلومات لا على دراستهاوتحليلها .

اي ان هدف المراكز البحثية اتصل بتقديم خدمات موسوعية ، او معجمية مباشرة ووظيفية للعمل السياسي اليومي والتكتيكي . وبالطبع يمكن استثناءعدد متميزمن الاسهامات الثقافيةالتأسيسية والاستراتيجية وعلى اي حال فرغم قصور الثقافة الفلسطينية الواضح في هذا المجال الا انها قد خطت خطوات هامة الى الامام قياسا للانتاج الثقافي الفلسطيني في المرحلتين السابقتين .

هذا الوضع الثقافي الفلسطيني بسماته العامة لم يكن نتيجة قصور ذاتي فلسطيني فقط ولمجرد سيطرة وعي ايديولوجي معينعلى القيادات المسؤولة في هذه المجالات بل كان بجزء اساسي منه نتيجة للمواجهات الدامية والمستمرة بين الثورة الفلسطينية واعدائها وخاصة في الاردن ولبنان .

ففي بيروت على سبيل المثال وحيث تتواجد معظم مراكز البحث الفلسطيني ومعظم المفكرين والكتاب الفلسطينيين خاضت الثورة الفلسطينية مواجهات مسلحة في سنوات ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٣ ، ثم المواجهة الدموية الواسعة التي ابتدات في نيسان ١٩٧٤ ولازالتمستمرة حتى الآن .

الكيان الصهيوني والثقافة الفلسطينية :

لعب العدو الصهيوني دورا قمعيا متواصلا لخنق الثقافة الوطنية الفلسطينية واعتمد سلسلة من القوانين والاجراءات للحد من حرية الكتاب والمفكرين والادباء وقيد عمل الصحافة اليومية والفكرية والادبية.

وطبقت بحق هؤلاء ذات القوانين التي كانت معتمدة في زمن الانتداب البريطاني وفي مقدمتها قانون الطوارىء ، بل واعيد احياء بعض القوانين التي تعود الى مرحلة الحكم العثماني . ان اسرائيل التي تحرص على تصوير نفسها امام الراي العالمي كواحة للديمقراطية تكشف من خلال الممارسة العملية ابشع اشكال القمع ومصادرة الحريات العامة .

ويتدرج مستوى القمع الاسرائيلي من فرض رقابة صارمة على اي انتاج ثقافي فلسطيني قبل صدوره الى عمليات الاغتيال والنسف .

والتبرير الاسرائيلي الجاهز دائما لتغطية هذا القمع هو ماتسميه بامن الدولة ومصلحةالجمهور وتحت هذاالشعار المطاط تمارس السلطات الصهيونية ماتشاء من مصادرة الحريات العامة ، والقرارات التي يتخذها الحكام العسكريون في المناطق العربية غير قابلة للنقض وللمراجعة حتى امام القضاء الاسرائيلي نفسه .

ان بعض النماذج من الممارسات الصهيونية فيمجال الحريات الصحفية تكشف مدى ماتعانيه الثقافة الفلسطينية في ظل الاحتلال الصهيوني من حصار وقمع ومصادرة : فكتاب يصدر باللغة العبرية تمنع ترجمته الى اللغة العربية . وقصائد نشرت في الصحافة العربية بعد موافقة الرقيب يمنع نشرها مجددا في ديوان الشعر . وصحيفة يومية يصدرها حزب راكاح توزع في المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ وفي داخل الكيان الصهيوني

ويمنع توزيعها في الضفة الغربية وقطاع غزة .. وقس على ذلك .. اما اغلاق الصحف ومصادرتها فلها حديث طويل. والى جانب هذه الاجراءات هناك عمليات القمع المباشر التي تطال المثقفين والادباء داخل الارض المحتلة ، ولم يعرف حتى الان اسم شاعر فلسطيني بارز في الارض المحتلة لم يتعرض للسجن او الاقامة الجبرية .

هذا الدور الصهيوني المعادي للثقافة الوطنية الفلسطينية لم يقتصر على داخل الارض المحتلة وحدها، وانما تعداها الى الخارج بسلسلة من العمليات الارهابية استخدم فيها العدو الطرود الناسفة والصواريخ والمتفجرات الموقوتة وعمليات الاغتيال المباشرة كما حدث في مركز الابحاث الفلسطيني في بيروت والمكتبة العربية في باريس ؛ وسقط بنتيجة هذه العمليات الارهابية الكاتب والروائي الفلسطيني الكبير غسان كنفاني والشاعر المناضل كمال ناصر والمفكر كمال عدوان ، كما سقط في باريس المثقف الفلسطيني محمود صالح .

كما اصيب بالتشوه الجسدي نتيجة الطرود الناسفة رئيس مركز الابحاث الفلسطيني انيس صايغ والكاتب بسام ابو شريف ، رئيس تحرير مجلة الهدف . هذه الوقائع التي تعيشها الثقافة الوطنية الفلسطينية داخل الارض المحتلة وخارجها لعبت دون شك دورا هاما في شد الانتباه العام باتجاه ثقافة المعركة اليومية والمباشرة ؛ واثرت الى حد كبير على ضعف الانتاج الثقافي التأسيسي والاستراتيجي ولم تساعد على تعميق المحتوى الاجتماعي والطبقي للثقافة الوطنية .

هذه السمة التكتيكية العامة للثقافة الوطنية الفلسطينية دخلها عنصر خطير وهام وخاصة عام ١٩٧٣ فاخذت طابعا استهلاكيا بسبب اغراق الساحة الفلسطينية بفيضان الصحف اليومية والاسبوعية والكتابات المتسرعة في مختلف المجالات . ولم تقتصر هذه الظاهرة على الساحة الفلسطينية او على الساحة اللبنانية بل تعدتها الى مجمل الساحة العربية .

وعبرت هذه الثقافة الاستهلاكية العامة عن الطابع الاستهلاكي وغير المنتج للمجتمعات العربية من ناحية ، كما جاءت من ناحية ثانية نتيجة للفائض المالي الهائل الذي اعقب رفع اسعار النفط عام ١٩٧٣ وانعكاس ذلك على مجمل الحركة الثقافية ومؤسساتها الاعلامية والفكرية والصحفية فاتسم جانب من الانتاج الثقافي الفلسطيني بالتسرع والارتجال وارتبطت قطرة الحبر الى حد بعيد بنقطة النفط ، بعد ان ظلت لاجيال طويلة مرتبطة بقطرة الدم .

وفي ظل التضخم المالي والارتفاع الهائل في الاسعار ، تحول العديد من المثقفين الى ادوات انتاج ثقافية خاضعة لقانون العرض والطلب . وهذا الوضع الذي وجد المثقف الفلسطيني والعربي نفسه فيه ، مرشح لمزيد من الانهيار اذا لم يتم تدارك الامور قبل استفحالها وتحولها الى حالة مستعصية على العلاج . ان صمود المثقف الفلسطيني في وجه الارهاب المالي النفطي في ظل الواقع الاستهلاكي السائد لا يقل اهمية عن صموده في وجه الارهاب الصهيوني فالطرود الناسفة في عصر الاستهلاك تأخذ شكل طرود من نوع اخر .

* * *

في ظل هذه الاوضاع جميعا وجدت مخططات التسوية المناخ الملائم للنمو والنجاح ، وبدأت محاولات ترويض الوجدان العام ليتكيف مع عقلية التسوية ، وليدخل منطقة المحرمات الوطنية .. مما يضع امام المثقفين الثوريين تحديات جديدة ، كما يفرض عليهم مهام من نوع اخر بالتأكيد على البديهيات والمسلمات الوطنية وتنتهي بتعميق وتجذير البعد الاجتماعي والطبقي التقدمي للثورة الوطنية لاعلى مستوى الساحة الفلسطينية بل على مستوى الساحة العربية اولا .

وبدون ذلك فان التاريخ الوطني للثقافة الفلسطينية مهدد بفقدان امتيازه النسبي ودوره القتالي ، اي بما ينهي وجود الثقافة الفلسطينية نفسها ، لانه لا وجود لهذه الثقافة اذا لم تكن ثقافة وطنية مقاتلة .

قال الشاعر الفلسطيني :

قاتل قاتل ان لم تفعل تقتل

وهذا هو الخيار الوحيد الذي طرحته الحياة على الثقافة الفلسطينية ان تكو نثقافة مقاتلة او لاتكون .

* * *

المؤتمر العام
الثالث عشر
للاتحاد العام
للأدباء والكتاب
العرب عدن - صنعاء
نوفمبر ١٩٨١

المثقفون والسلطة

محمد سبيلا
(المغرب)

اوضاع واوهام المثقفين :

تنتج كل فئة اجتماعية مجموعة من الاوهام حول نفسها ، وذلك لتستسيغ مكانتها الاجتماعية ،ولتبرز دورها،ولتعطي لنفسها ولافرادها عزاء وقوة دافعة . ووظيفة هذه الاوهام هي اما التعويض عن وضع دوني او تبرير وضع امتيازي.

والمثقفون كفئة اجتماعية يميلون الى الحديث عن انفسهم ، والى تملي صورتهم في الواقع الاجتماعي ، ناسبين لانفسهم ادوارا حاسمة في السياسة والثقافة ، ومدعين امتلاك الكلمة الفصل في ميدان الحقيقة وكأنهم مؤهلون وحدهم لادراك الحقيقة الاجتماعية كما تعبر عن ذلكنظرية مانهايم عن الانتلجنسيا بدون روابط ، او كان التاريخ لن يتحرك بدونهم كما تعبر عن ذلك نظرية النخبة الواعية التي لايمكن ان تكتسب بدونها البروليتاريا وعموم المستغلين وعيهم الثوري .

فهل الامر كذلك حقا ؟ وماهي حدود فعالية المثقف ، وماهي محدداته؟ لقد عولجت هذه المسألة بما لايدع مجالا للحديث ، لكن في اتجاه تبرير وترسيخ الاوهام اكثر مما سارت في اتجاه نزعها وتعريفها .

ان المثقفين يشكلون فئة اجتماعية متميزة ، وغير متجانسة ، لكنها غير معزولة عن الجاذبية الاجتماعية . فالمثقف ليس انسانا سينويا (نسبة الى ابن سينا) معلقا في الهواء ، وفي حل من تاثير الروابط والشرائط والمحددات الاجتماعية . وفي هذا المنظور الاجتماعي يبدو ان الحديث عن انتلجنسيا بدون روابط يفقد قيمته الجدية وطابعه العلمي لان مثل هذه الاراء تبدو بمثابة تعبير ايديولوجي تبدو كايديولوجيا مدنية للمثقفين حسب تعبير بيير بورديو .

ينتمي المثقفون بوجه عام ، الى الشريحة الاجتماعية المصطلح عليها بالبورجوازية الصغيرة . فهم في الغالب ملاك راسمال ثقافي يعملون في ميدان البنية الفوقية ، في شبه انفصال تام عن عملية الانتاج المادي . يولد لديهم هذا الوضع بعدم امتلاك اية سلطة فعلية وراهنة سواء اقتصادية او اجتماعية او سياسية ، احساسا بعدم الفاعلية وبالهامشية . بيد ان ردود الفعل ضد هذه الوضعية تتوزع بين سريان مشاعر اليأس او النزعات المثالية او غيرها . كما ان افتقادهم للسلطة الفعلية في المجتمع يجعلهم يعدون انفسهم بعملية متخيلة وسحرية « نخبة مدعوة لتقييم كل شيء والحكم عليه ، والحال انهم ليسوا كذلك » كما يقول سارتر(٢) .

لا تستطيع فئة المثقفين اذن ان تتجاوز شرطها الوجودي في المجتمع فمهما يكن المثقف ثوريا فانه لن يصبح بروليتاريا كما ان الانتلجنسيا لن تكون هي البروليتاريا ، واذا توهمت ذلك او خيل اليها فانها لن تكون سوى بيروقراطية الثورة بكل وصايتها ووساطتها وحجرها . واذا جاز ان يكون للمثقفين التقدميين دور فانه لن يكون سوى القيام بمهام التنظير

والتنوير ضمن الحركة التاريخية او في اطار الطبقة دون ان ينصبوا من انفسهم ابطالا وشهداء للحركة او الطبقة .

وبالفعل فقد اخذ المفكرون الغربيون ، تحت تأثير سيادة فلسفة الوجس وتقنيات كشف الخداع الذاتي ، ينتقدون الصورة القديمة للمثقف كنائب « عن » الجماهير ، وكمتحدث « باسم » الجماهير ، معتبرين ذلك بمثابة « اغتصاب » للحديث « بدل » الجماهير و «عوضا» عنها ، اي عن طريق الحلول محلها(٣) . ان مثل هذا المنطق لا يمكن ان يتأسس الا على غياب او تغييب الجماهير ، اي على افتراض دونيتها وحاجتها الى لسان ووسيط ، لذلك فان مهمة المثقف العصري كما يقول « فوكو » هي افساح المجال امام الجماهير الدونية والمتسلط عليها لتقول كلمتها . ان دوره يتلخص في ان يواري خطابه هو ليترك خطاب الاخر ينبثق بكل تلقائية وحرية . غير ان الجماهير التي يتحدث عنها فوكو هي جماهير المجتمع الاخر (المجانين والسجناء والمجرمون والمنحرفون) اي الجماهير الخاضعة للتسلط والاضطهاد لا الجماهير الخاضعة للاستغلال .

ان وضع المثقف يتميز غالبا باحتلاله لوظيفة ايديولوجية او بامتلاكه لرأسمال ثقافي او فكري . ويرى عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر بيير بورديو ، ان المثقفين يحوزون من وضعهم المتميز كمثقفين ، اي كمنتجين رمزيين للتصورات والتمثلات عن العالم الاجتماعي وكمحتكرين لهذه العملية التي هي بعد اساسي في الصراع السياسي ، فوائد عديدة ، حتى ولو لم تكن هذه الفوائد اقتصادية بالمعنى الدقيق . من هذه الفوائد امتلاك مناصب اكاديمية او عقد النشر او جوائز او وظائف جامعية او رموز العرفان بالجميل والتقدير(٤) .

كما يرجع بورديو الكثير من المواقف السياسية للمثقفين الى غموض وضعيتهم كمسودين ضمن السائدين ، وكمضطهدين (بالفتح) ضمن معسكر المضطهدين (بالكسر)(٥) ، فالمثقفون يظلون بالنسبة له جزءا من

الطبقات المستفيدة وذلك بحكم وضعيتهم المتميزة . كما ان المثقفين يمتلكون قدرا من السلطة . فاذا اخذ هذا المفهوم بمعناه الواسع فان المثقفين يملكون جزءا من السلطة الايديولوجية باعتبارهم عناصر فاعلة او مسيرة في احدى المؤسسات الايديولوجية للدولة واحيانا في احدى اجهزتها القمعية .

وهذه الوضعية الحرجة التي يعيشها المثقفون في وجودهم الاجتماعي تسم وعيهم كذلك. فالمثقفون الذين يقال عنهم بانهم اقدر الناس على رفض وعلى تعرية الاوهام ، هم ايضا اكثر قابلية لتصديقها وتوليدها واكثر قابلية للدغمائية المذهبية وللاستيهام الايديولوجي(٦) بل ان للمجال الثقافي اوهامه الخاصة حيث يميل المثقفون ــ ربما اكثر من اية فئة اجتماعية اخرى بحكمها نفس الميكانزم ــ الى اضفاء كافة صفات القدسية والكارزمية والفعالية على وظيفتهم وعلى دورهم الاجتماعي . وليس غريبا ان تتولد وتظهر باستمرار في المجال الثقافي صراعات مهنية وتخصصية غريبة ، وتطرح قضايا ونزاعات قد لا يكون لها اي صدى او اي تأثير على واقع المجتمع(٧) وتتضاعف المأساة حين يتعلق الامر بمجتمع متخلف وتابع ، مجتمع تتضاءل فيه اهمية المثقف وينحط وضعه ، فترى المثقفين يتنابزون بالالقاب ويقفزون بهلوانيا على المنابر ، ويتصارعون على الموضوعات الفكرية والثقافية ، ويتفنون في ابداع الغريب من الاشكال والرموز .

ان المثقف كائن اجتماعي يحكمه وضعه في الواقع الاجتماعي. ولعل الوعي بهذا الوضع وبكافة الحتميات المرتبطة به ، وكذا الوضع بميكانيزم الخداع وبتولد الاوهام والاوهام الذاتية المرتبطة بهذا الوضع والمتولدة عنه يمكن ان تنير الدور المنوط به في حدوده ومدى فاعليته .

هذا النقد الذاتي لاوضاع ولاوهام المثقفين الذاتية مرتبط بتراجع فلسفة الذات وفلسفة الوعي ، وما يرتبط بهما من نزعة ارادية تنتهي الى تهامل الحتميات الاجتماعية والنفسية والايديولوجية والى اغفال ميكانيزم خداع الذات التي يخضع لها المثقفون انفسهم ضمن انظمة

تزداد قدرتها باستمرار على الضبط والتكوين وصناعة الراي . لقد ادت النظرة الكلاسيكية للمثقف الى جعله حامل اوهام وضحية اوهام معا كما يتجلى في فكرة سارتر عن الالتزام . فقد كان المثقفون في فرنسا عشية الحرب الثانية ، يظنون انهم ملزمون بالقيام بواجب انقاذ الاخرين وبواجب توجيههم ، بحكم امتلاكهم لمؤهلات عقلية وثقافية ولقدرات لا يملكها الاخرون ، وهذا ما ادى الى اشاعة تصورات خاطئة عن الفرد والمجتمع والتاريخ(٨) .

ان الحديث عن الالتزام مرتبط بنزعة مثالية اخلاقية وبنزعة ارادية ذاتية تتهامل ميكانيزم السلطة والمعرفة وتتجاهل الوعي المغلوط للمثقفين واستلاباتهم الذاتية لتجعل منهم انبياء العصر وحملة الخلاص . ان الحديث عن دور المثقفين واهدافهم ورسالتهم حديث جميل ولكنه حين يراعي هذه الحتميات والاليات الدفاعية ومظاهر التحويل فانه سيظل حديثا مثاليا مهما يكن تقدميا .

وبجانب تراجع فلسفة الذات وفلسفة الوعي جاءت احداث مايو ١٩٦٨ في فرنسا لتغير كليا من معنى ومن دور المثقف . فقد تبين ان عهد المثقف الكارزماتي ، الموسوعي ، الذي يشكل الى حد ما « ضمير العصر » قد ولى تماما .

مشكل السلطة :

يعود ظهور مسالة السلطة بحدة في الفكر الاجتماعي والفلسفي المعاصر في الغرب وخاصة في فرنسا الى المفارقة العجيبة التي حدثت في مايو ١٩٦٨ . فقد تبين ان السلطة هي في منتهى الصلابة والهشاشة معا . كان يكفي ان يقوم هذا الكرنفال الطلابي بتحركاته وينصب متاريسه في مواجهات عنيفة لتتهشم معظم الاجهزة ولتسقط السلطة في ظرف وجيز ، ولكنه كان يكفي ايضا بضع لحظات لينتصب دينوصور السلطة من جديد كما لو ان شيئا لم يقع . وقد استنتج المثقفون ، الذين استولى عليهم حلم الثورة مددا طويلة من الزمن ، انهم لم يحللوا بعمق

مسألة السلطة وانهم فكروا بمنطق المصلحة ولم يفكروا بمنطق الرغبة ، وهذا ما دفع الكثيرين منهم فيما بعد الى التساؤل عن المسألة الاساسية ، ماهية السلطة(٩) يشرح جيل دولوز الفيلسوف الفرنسي المعاصر هذه المسألة قائلا : اننا نعرف من يستغل من يستفيد ، من ينتفع ، من يحكم ، لكن السلطة شيء مشتت اكثر فأكثر . لقد عرفت الماركسية مسألة السلطة بالفاظ المصلحة (السلطة تمتلكها طبقة سائدة محددة بمصالحها) ولكن حين نقبل بهذا التفسير نصطدم بصعوبة هي : كيف نتصور ان اناسا لا مصلحة لهم يتبعون ويعانقون السلطة باستمرار محصلين على ذرة منها ؟ وذلك لانه يتبعون ويعانقون السلطة باستمرار محصلين على ذرة منها ؟ وذلك لانه بالفاظ الاستثمارات الاقتصادية واللاشعورية في نفس الوقت ، المصلحة ليست هي الكلمة النهائية . هناك استثمارات للرغبة تفسر انه يمكن عند الحاجة الرغبة ليس فقط ضد مصلحة المرء ، لان المصلحة تتبع الرغبة دوما ، بل يمكن ان يرغب المرء احيانا بصورة اعمق ، واكثر انتشارا من مصلحته . يجب ان نقبل صرخة رايخ : لا ، ان الجماهير لم تكن مخدوعة ، انها رغبت في الفاشية في هذه اللحظة ... (١٠)

اما فوكو « فيلسوف السلطة » فيذكر انه كان من اللازم انتظار القرن التاسع عشر لنعرف ما هو الاستغلال ، ولكننا ربما لا نعرف الى الآن ما هي السلطة ؟(١١)

ويرى فوكو أنه في كل مجتمع ، يفرض الخطاب السائد ويحدد ماهو مقبول وماهو مرفوض، مايمكن قبوله ومايتعين تناسيه والسكوت عنه . كل مجتمع يفرض سلسلة من التقسيمات المقبولة والتي يسهر على مراقبة مدى احترامها : الخير والشر ، الحلال والحرام . المباح والمحظور ، المجرم والبريء ، اليمين واليسار ، التقدمي والمحافظ ، العادي والمرضي ، الجنون والعقل . ان الخطاب السائد في اي مجتمع هو خطاب سلطة ، خطاب ينظم يصفى ، يراقب ، ويمد على الناس في تقولات معينة . وهذا الخطاب يحكم قبضته على البشر من المهد الى اللحد ،

من روض الاطفال الى ماوى الشيوخ خطاب تتحدد فيه السلطة بالمعرفة(١٢) .

ان فوكو يقدم لنا المجتمع كما لو كان مجموعة من السلط المتناغمة والتي تستخدم اول ما تستخدم المعرفة ذاتها كاداة لاحكام السيطرة . ولكن فوكو لا يقدم لنا جوابا شافيا حول اصل السلطة ، اين تتمركز من يوجهها ولصالح من ؟

اما رولان بارت فيرى ان السلطة بمعناها الواسع : حاضرة في كل العمليات الاجتماعية الاكثر دقة في التبادل الاجتماعي . فهي ليست فقط الدولة والطبقات والمجموعات ، بل كذلك في الموضات والآراء الجارية والمشاهدوالالعاب والرياضاتوالاخبار والعلاقات العائليةوالخاصة وحتى في الدفعات التحررية التي تحاول مناهضته .

مهمة المثقف في نظر بارت هي مناهضتها والانتفاض ضدها في صورها المتعددة . نضال يجب ان يوجه ضد السلط لا فقط ضد السلطة فالسلطة سلط تتميز بالانتشار والتعدد . انها متعددة ومنتشرة في المكان الاجتماعي كما انها سارية في الزمن التاريخي . فاذا طردتها هنا ظهرت هناك . ان اقتلاع السلطة او السلط ليس بالامر الهين ، فبجانب انتشارها وسريانها في كافة الياف الجسم الاجتماعي فانها لا تندثر ابدا ، بمجرد القضاء عليها ثوريا نراها تنبثق بشكل آخر وتتخذ صورة جديدة والموضوع الذي تنطبع فيه السلطة بقوة فيختزنها ويوزعها ــ في نظريات ــ هي اللغة المستعملة . فاللغة فاشية الطبع : ذلك ان جوهر الفاشية ليس هو ان تمنعك من القول،بل ان تجبرك على القول(١٣) .

هكذا تتحول السلطة في نظر بارت الى شبح فرار ، لكنه شبح يلازم كل الاجسام في المجتمع وكأن السلطة مرتبطة بالوجود الاجتماعي ذاته وملازمة لـه .

لقد فتحت تجربة مايو ١٩٦٨ الباب امام التساؤل الفلسفي عن معنى وماهية السلطة ، وكيف يوظف الناس رغباتهم ، ضدا على مصلحتهم

الفعلية في التمسك بسلطة ما . والسلطة بهذا المفهوم الواسع هي اللحام الذي يشد الجسم الاجتماعي ككل ، ويشد معه واليه كافة البشر وكان كلا منهم بمشاركته الجزئيةفي السلطة العامة المنتشرةيشد البناءالاجتماعي وينشد اليه . وكما يقول « دولوز » : فان هناك استثمارات للرغبةالتي تكيف السلطة وتنشرها وتجعل من السلطة امرا موجودا على مستوى اصغر مخبر من رجال الشرطة الى الوزير الاول ، وان ليس هناك فرق في الطبيعة بين السلطة التي يمارسها ادنى شرطي وتلك التي يمارسها اي وزير »(١٤) .

وبالنسبة لهؤلاء الفلاسفة فقد افتتح ماركس عمر معرفة ميكانيزم استغلال الانسان للانسان وتكون فائض القيمة ، لكن الماركسية لا تعلمنا الكثير عن سيطرة وتسلط الانسان على الانسان ، وخاصة في المجتمعات الحديثة .

امام هذا التحليل لميكانيزم السلطة في المجتمع الغربي يضع المثقف امام نفسه مهمة تعرية وكشف ميكانيزم السلطة ومناهضة بذور السلطة في ثنايا المكنان الاجتماعي وافساح المجال امام الذين تجعلهم السلط موضوعاتها (المساجين ــ المجانين ــ المنحرفين ــ المجرمين) ليقولو كلمتهم ويسمعوا خطابهم الخاص دون وساطة ، دون وصاية . وكل نضال ضد السلط يتعين ان يتمركز حول نواة خاصة (رئيس ــ حارس عمارة ، مدير سجن ، قاض ، مسؤول ، نقابي ، رئيس تحرير جريدة .. الخ) كما يقول فوكو(١٥) ان دور المثقف هو ان يناضل ضد كافة اشكال السلطة في جميع المجالات .

الا ان فلسفة السلطة المعاصرة كما نجدها خاصة عند فوكو فلسفة ذات نزعة فوضوية لانها مناهضة لكافة اشكال السلطة والمؤسسات(١٦) وليس لها من ميزة ايجابية الا كونها وقفت الى ابراز تماسك كافة السلط في المجتمع من العائلة الى المعمل والسجن والمأوى والادارة .

كما ان هذه الفلسفة مناهضة ، او على الاقل مجاوزة للماركسية من حيث انها لا تركز على سلطة الدولة باعتبارها جماعا لسلطة طبقية ،

بل ترى ان السلطة جمع ، فهي سلطة خاصة متعددة . واذا كانت هذه الفلسفة قد حاولت فهم الميكانيزم الداخلي للسلطة متسائلة عن السبب الذي يجعل الناس يعيشون بطواعية وتلقائية وبنوع من العبودية الابيقوربة السلطة المعارسة عليهم فانها قد مالت نحو نوع من التفسير السيكلوجي القائم على تحليل الرغبة ، كما انها اغفلت مسألة استقطاب السلطة وربط السلطة بالصراع الاجتماعي ، وعلاقة السلطة السياسية والايديولوجية بالسيادة الاقتصادية .

المثقف العربي والسلطة :

اذا اعتبرنا السلطة السياسية هي التبلور المجسم والجماع التركيبي لكافة السلط المتمفصلة والمنبثة في الجسم الاجتماعي ضمن منظور ديناميكي للصراع الاجتماعي فان هذه السلطة في المجتمعات المتطورة متبلورة بشكل اوضح ومتناغمة ومتمحورة حول سلطة الطبقات والفئات السائدة اقتصاديا .

اما في المجتمعات المتخلفة والتابعة فهي سلطة متناثرة ومتنوعة . وكما يقول عالم الانتروبولوجيا السياسية جورج بالاندية : فان السلطة في المجتمع القبلي هي بمثابة طاقة منتشرة(١٧) وموزعة على القوى التقليدية . في هذه المجتمعات القبل عصرية والقبل صناعية،ماتزال البنيات والعلاقات الاجتماعية قوية ، وماتزال سلطة الاعيان والشيوخ وسلطة التقليد والموروث شديدة. ومعظمهذه المجتمعات مجتمعات مركبة زمنيا وتزامنيا وذلك على كل المستويات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والنفسية ، مجتمعات تتداخل فيها الحقب والمكونات . يقول الاستاذ ع . العروي : « ان المجتمع العربي اليوم مجتمع خليط من ازمان وعصور مختلفة ، من انظمة وانسانيات متباينة » ويقول في مكان اخر : « المجتمع المغلوب على امره ، المسيطر عليه ، هو مجتمع مشتت في ذاته ، مقطوعة فيه العلائق ، فتتجاوز فيه الازمنة والحقبات التاريخية والفئات المتحجرة وانماط التولد ...الخ . فالقاعدة الاقتصادية

تنوزع الى مجالات متفاوتة التعاصر ، والفئات الاجتماعية ترتبط بقواعد اقتصادية مختلفة ، والفئات الايديولوجية تنتمي الى اصول تاريخية متنافرة ... »(١٩) .

وكمثال على ذلك نشير الى ان نمط الانتاج في التشكيلة الاجتماعية المغربية مثلا عبارة عن نمط مزيج : بقايا العبودية — اقطاع تقليدي واقطاع عصري — بذور نظام راسمالي في طريق النمو ويتجه نحو السيادة على كافة الانماط الاخرى في جمع واضح بين حرية السوق وراسمالية الدولة الموجهة ، مع ما يقابل كل ذلك على مستوى العلاقات والقيم . وهذه الهيئات المكونة للبنية الاجتماعية التقليدية في تعددها وتنافرها وتداخلها تفرز خطابا ثنائيا ، خطابا مزدوجا ، حيث يغلق الخطاب العصري الخطاب التقليدي او العكس : تظن بعض الفئات انها تنتج خطابا عصريا في حين انها تجتر الخطاب التقليدي لانها لم تدرك الحداثة العقلية بعد ، كما تجتهد فئات اخرى في اضفاء اسماء تقليدية على عملية اندراجها الاوتوماتيكي في المسيرة الكونية .

السلطة السياسية في مثل هذه التجمعات سلطة لا تستند الى اية مشروعية وضعية ولاالى اية مشروعية مشروعة واخرماتفكر فيه هوالمصادقة وهي في الغالب سلطة يرتبط فيها السياسي بالمتعالي . وحسب جورج بالانديه فان هناك سمتين اساسيتين للسلطة في المجتمع التقليدي هما القداسة والابهام . فالمقدس ، بارزا او خفيا ، حاضر باستمرار في صلب السلطة(٢٠) .

وعلى العموم فان السلطة السياسية في مجتمعات العالم الثالث سلطة انتزائية(٢١) يتم فيها الاستيلاء على السلطة او اغتصابها تحت تبريرات وشعارات مختلفة . واذا كانت معظم الانظمة العربية دستورية وشعبية وديمقراطية بل احيانا اشتراكية فما ذلك الا على مستوى الخطاب الاعلامي . واذا ما استعارت اشكالا سياسية غربية فانما تستعير الشكل وحده بينماتبقى القوى الفاعلة فيهوالقيم الموجهة له تقليدية(٢٢)بل قد تلجأ بعض هذه الانظمة الى استغلال الشكليات الديمقراطية نفسها

لدعم استبدادها ولتقنين القمع والتسلط كما تنطق بذلك ترسانة القوانين القمعية التي تراكمت اخيرا في مصر .

في ظل هـذا الوضع تظـل مهمة المثقف التقدمي هي المساهمة في السيطرة على المجال الثقافي(٢٥) والسعي الى توجيهه وممارسة واشاعة الفكر النقدي والتحليلي وارساء اسس عقلانية في التفكير . لقد اظهرت تجارب النصف الثاني من القرن العشرين في العالم العربي ان الاستيلاء على السلطة من طرف مجموعات تقدمية لا يحقق نقلة نوعية في المجتمع لان الطليعة الجديدة نفسها ما تزال اسيرة وعي تقليدي . لقد ساد في هذه الفترة نوع من الفهم الميكانيكي الجامد للعلاقة بين البنية الفوقية والبنية التحتية ، وربما كان هذا عاملا ضمنيا في اعطاء الاولوية للتغير الاقتصادي والسياسي وفي وضع المجال الفكري والثقافي والايديولوجي عامة في مرتبة ثانوية ، على اساس ان المجـال الاخير مجـال تابع ومشتق ، فجاءت التغيرات الاقتصادية والسياسية هشة ومعرضة للانتكاس بين الفينة والاخرى ، لانه لم يوازها ولم يدعمها وعي ايديولوجي جذري لدى النخبة، بل تحول المجال الايديولوجي الى عائق في الكثير من الحالات . وهـذه النظرة الميكانيكية تغفل مسالة تضافر العوامل سواء على مستوى التفسير أو على مستوى التغيير .

قد يهفو المثقف التقدمي الى السلطة وقد يقع ضحية وهم توجيهها باعتبار أن السلطة السياسية هي مفتاح تطور المجتمع ، لكنه يظل معرضا للذوبان في بوتقة التسلط وقد يكون أول من يستمرىء لذة السلطة وأول من يستمتع بمتعها المادية ، لان السلطة علاقات موضوعية ومؤسسات تراتبية راسخة وطقوس جارفة ، ولعل هناك تعارضا اساسيا بين لغة السلطة ولغة الحقيقة ، بين سياسة السلطة وسياسة الحقيقة أي بين نظريتين استراتيجيتين متباينتين .

وكما يقول الاديب الامريكي اللاتيني غابرييل غارسيا ماركيز فان « بين الكاتب ورجل السلطة يوجد ضرب من التوتر الدائم ، لان الاول

يفسر الوضع من زاوية اخلاقية والثاني من وجهة سياسية »(٢٦) او بعبارة اخرى فان نظرة السلطة نظرة ايديولوجية للواقع المجتمعي ونظرة الثقافة النقدية نظرة يوتوبية بالمعنى المانهايمي .

فاذا جاز ان نتحدث عن التزام ، فان التزام المثقف التقدمي هو التزام بالنضال من اجل الكشف عن الحقيقة الاجتماعية ومن اجل تعرية الاوهام حول العدالة والديمقراطية ، وهو التزام من اجل ممارسة وترسيخ الفكر النقدي ، ومن اجل ابراز قيم الحداثة والعقلانية على مستوى التفكير والوعي والسلوك . وهذا يستلزم ان يحقق المثقف العربي التقدمي نقلة نوعية في وعيه وفي وجدانه ، وأن يبدأ بتحرير نفسه من الاوهام وان يمارس نقدا ذاتيا قاسيا ليخلص نفسه من الاوهام الذاتية ومن الاوهام المترسبة في اللاشعور الجماعي . وبغير هذا النقد الذاتي لن يكون بامكان النخبة المثقفة ان تلعب دورها الرائد في تحويل الميدان الثقافي لصالح الثقافة النقدية حقا .

واذا كانت ممارسة الفكر النقدي والعقلاني تتطلب مناخا معينا يتوفر فيه حد ادنى من حرية الفكر والراي والمعتقد لا تتيحه المجتمعات العربية المعاصرة ، فان نضالا من هذا النوع لن يكون بالضرورة نضالا فرديا ونظريا معزولا ، بل يتعين ان يكون نضالا ضمن قوى التقدم الحاملة لمشروع مجتمعي جديد ، لإنارة ممارستها وترشيد رؤاها .

بيد ان مهمة كهاته ليست سهلة ابدا . فقد يصطدم المثقف التقدمي ببعض المسبقات والسلبيات ، من بينها مثلا استصغار دور الفكر النقدي والعمل النظري من طرف بعض فصائل هذه القوى نفسها اما تحت تأثير وطغيان معامل الفاعلية والمردودية المباشرة الذي يتطلبه ويفرضه طغيان واولوية العنصر السياسي او تحت تأثير مفهوم مبسط وساذج للمفهوم الماركسي للممارسة الذي يقتضي ضرورة ربط النظر بالعمل والفكر بالتطبيق فتكون النتيجة المباشرة هي تحول الشعبوية الى نزعة حركية وتحول الفكر الى مجرد ترديد ببغاوي للشعارات .

والتنظيم الطليعي او الذات الجماعية التي يتعين على المثقف التقدمي ان يناضل معها وفيها تتطلب سيادة الفكر العقلاني وسيادة مبدأ الحوار والديمقراطية لتصبح هذه الحياة بمثابة سلطة مغايرة كليا للمجتمع القائم بكل مؤسساته وترتباته .

فهل وفق المثقف التقدمي العربي الى خلق هذه الأداة ؟

* * *

هوامش :

(١) P Bourdieri Questions de seciologis. E . d . Minuit Paris 1980 (P : 70) .

(مجموعات مقالات واستجوابات) :

وقد ترجم الاستاذ محمد برادة هذا الاستجواب تحت عنوان : وهم المثقفين الكبير ونشر بمجلة « المشروع » المغربية العدد الثالث الصادر بالدار البيضاء (انظر ص ٢٠٤) .

(٢) سارتر : دفاع عن المثقفين . ترجمة ج طرابيشي دار الآداب بيروت ١٩٧٣ (ص ١٠).

(٣) بورديو : نفس المرجع ص ٦٦ .

(٤) بورديو : نفس المرجع ص ٢٠ و ٦٢ و ٧٠ .

(٥) نفس المرجع ص ٧٠ .

(٦) يشير التوسير الى ان العلماء والمفكرين معميون بالايديولوجيا السائدة في حين ان العامل يجرب استغلال رأس المال في معاناته اليومية . عن :

V . Dss Combss : Le même et l'autrs . Minuit . Paris 1979 P : 158 .

(٧) انظر استجواب ع . العروي في مجلة «المسيرة» البيروتية العدد السابع يوليو ١٩٨٠ بعنوان : المثقفون العرب يهدرون طاقات الوطن .

(٨) محمد آركون : « التراث والموقف النقدي التساؤلي » استجواب بمجلة مواقف البيروتية العدد ٤٠ شتاء ١٩٨١ (ص ٥٢) .

V . Descombss : le même et l'autre P : 156 et 196 . (٩)

Daleuze in l'arc N° 49 P : 9 (١٠)

Foucalt in l'arc N° 49 P : 7 (١١)

5 SCIWY: Les nouveaux philesephes Denoelcouthier Paris 1979 Coll Modiations N° 198 P : et 41 . (١٢)
Voir aussi : M . Fouoault : l'ordre du discours Gallinard Paris 1971 P : 10 - 11 .

R. barthes : leçen . Seuil Paris 1978 P : 11 - 12 . (١٣)

L'arc N° 49 P : 9 . (١٤)

L'ars N° 49 P : 8 . (١٥)

(١٦) ترى الانترولوجيا السياسية ان السلطة ضرورية لان وظيفتها هي المحافظة على المجتمع من اخطار نقائصه ذاتها . فالسلطة ناتجة عن ضرورة النضال ضد قصور الطاقة الذاتية للمجتمع مما يهدده بالفوضى .
G . Balandier : authropologie Politique P . U . T Paris 1967 Coll Sup P : 43 .

G . Balandier : Authrooelogie Politique P : 44 . (١٧)

(١٨) ع . العروي : العرب والفكر التاريخي دار الحقيقة بيروت ١٩٧٣ ص ٢٤٤ .

(١٩) العروي : نفس المرجع ص ١٦٤ .

G . Balandier op CIT P : 46 . (٢٠)

(٢١) هادي علوي : سيكلوجية الحكام العرب . مواقف العدد ٢٩ (١٩٧٤) ص ٨١ .

(٢٢) انظر مجيد خدوري : الاتجاهات السياسية في العالم العربي الدار المتحدة للنشر بيروت ١٩٧٢ الفصل الثالث .

G . Balandiar : opcit P : 48 . (٢٣)

(٢٤) د. علي اومليل رئيس الجمعية المغربية لحقوق الانسان في استجواب مع مجلة النهار العربي والدولي .

(٢٥) يحلل العروي هذه الفكرة في كتابه « العرب والفكر التاريخي » بيروت دار الحقيقة ١٩٧٣ ص ٧٥ .

(٢٦) استجواب نشر بالملحق الثقافي لجريدة « المحرر » المغربية ص ٦ - ٧ - ١٩٨١ .

المؤتمر العام الثالث عشر
للإتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
عدن - صنعاء
نوفمبر ١٩٨١

الثقافة العربية بين مختلف أشكال التحدي والمواجهة

أحمد الطويلي
(تونس)

يشهد العرب اليوم تحديات من اكبر التحديات التي واجهتهم وامتحنوا بها عبر تاريخهم الطويل ومن بينها محاولة القضاء على شخصيتهم الثقافية وتهديد كيانهم وعرقلة تحقيق مصيرهم .

لقد تعرض العرب في الماضي الى شتى الغزوات من الشرق والغرب ، فتوالت عليهم الحملات الصليبية والاستعمارية تريد ان تنهك قواهم وتضرب مجدهم في الصميم فأرهقتهم اقتصاديا واجتماعيا ونفسانيا وادبيا . ورغم ذلك فقد واجهوا مختلف هذه الحملات بكل المعنويات النفسية المرتفعة وبكل قواهم التي مكنتهم من الوقوف في وجوه المغيرين والصمود الى اليوم حضاريا وثقافيا .

واليوم يواجه العرب تحديات مزدوجة ، فبالاضافة الى التحديات الاستعمارية والصهيونية الصريحة ، وهي ذات صبغة سياسية واقتصادية ترمي الى الاستحواذ والاحتواء والقضاء نهائيا على الارض والعباد وامتصاص كل الخيرات واستغلال كل الثروات ، نجد تحديات حضارية ثقافية تتسرب الى الصميم ؛ تعتمد خطة نفسية وفلسفية بعيدة المدى .

ويمكن ان نقسم هذه التحديات من جهة اخرى الى تحديات داخلية . استفزازية : انهزامية ، تبعث على اليأس ، وتثبيط الهمم ، وتقضي على المعنويات ، وتحديات خارجية استعمارية وصهيونية تصد عن التقدم والازدهار وتعرقل الطموح والتوق الى الوفاء وتحقيق الذات .

لقد صدم العرب خلال جوان ١٩٦٧ صدمة كبرى بالواقع المر الاليم. صدمة نفسية كان من نتائجها الوعي العميق بالذات وبالاخطار الحقيقية التي تهددهم في كيانهم وذواتهم ، في وجودهم ومصيرهم . استهدفت القوات الاستعمارية القضاء على ذاتيتهم ولكنها اخفقت ووجدت في مختلف البلدان العربية صمودا ووعيا ومعارضة عنيفة : لكن القوى الاستعمارية غيرت من اساليبها ومناهجها فنراها تخفي نفسها وتتقنع وراء المساعدات الاقتصادية والسياسية ووراء اجهزة اعلامها وما تبثه خلالها من سموم ؛ فتعتمد الدس والتحريف التاريخي واخفاء الحقائق متوخية في ذلك العنصرية والكره ، وكان الغزو الثقافي ابشع مظاهر الغزو الاستعماري لانه يبث الشك واليأس ويؤدي الى التبعية والذوبان في الغير : وهو يرمي اساسا الى تحطيم الشخصية والتشكيك في دورنا الحضاري وقتل معنوياتنا الادبية ، والفت في امكانياتنا في الخلق والابتكار .

لقد جاءت نظريات عديدة تتسم بالعلم والعلمانية ، لكنها تمجها حضارتنا لانها تستهدف روح ثقافتنا وعمودها الفقري بزرع القلق وفقد التوازن النفسي وخلق الازمات الروحية والفكرية .

ويمكن ان نرى ازاء هذا الغزو الثقافي ، وهذه التحديات خلال احلك الفترات الاستعمارية التي واجهتها الامة العربية ثلاثة مواقف :

١ ـ تنكر مطلق للذات القومية ادى الى التجنس والتغرب والانبتات وضياع الهوية والذوبان في الغير .

٢ ـ التبلبل والتذبذب والحيرة والاضطراب والتمزق النفسي ، ومن علامات هذا الموقف الازدواجية في التفكير والتشكيك في القيم العربية ، والمشي بخطى وجلة مترددة ، وهذا الموقف سلبي ينم عن انعدام الثقة في الماضي والحاضر والمستقبل ، وانعدام وضوح الرؤية والنحول امام الحضارة الغربية والجهل بدورنا التاريخي الماضي وعدم الايمان بامكاناتنا الحضارية والفكرية ، وقد صورت هذا الموقف بعض كتابات المستشرقين والمحررين باللغات الأجنبية .

٣ ـ الايمان المطلق بثقافتنا والاعتزاز بقيمنا الفكرية والادبية ، وعدم الذوبان في الغير فكريا وحضاريا ، ويتضاد هذا الموقف مع الموقفين السالفين في وضوح الرؤية وصدق التجربة والاتفاق مع النفس ، وهو الموقف المتغلب ونجد صورا منه في الادب العربي خلال المواجهة التي تمر بها الامة العربية منذ الحروب الصليبية في العهد الوسيط ، وهو اتجاه ثقافي يستقي من الروح الحضارية العربية ومقومات الاخلاق العربية الشرقية في الوفاء للقيم لخلق ثقافة جديدة ، انسانية قبل كل شيء ، متفتحة ، فارضة شخصيتها بمميزاتها الأصلية ، ومساهمتها في محاولة حل مشاكل الانسان في العالم مهما كان واينما كان .

لقد اطلع العدد الوافر من الكتاب العرب على الفكر الغربي وتعرفوا على مواقف الثقافة الغربية منهم ومن ثقافتهم ، فمنذ عهد محمد علي بمصر وعهد احمد باي الاول بتونس ، بدات حركة الاتصال المباشر بالفكر الاوروبي والغرب الاوروبي ، ثم بعد ذلك استطاع المستعمرون أن يتحكموا في البلاد العربية ويبسطوا نفوذهم فيها ويفرضوا انماطهم الثقافية والفكرية في التربية والتعليم والاقتصاد والسياسة والادارة ، واحتك جانب من المثقفين العرب بالثقافة الغربية الى جانب تشربهم ثقافتهم

العربية ، مما مكن عددا منهم الى النفاذ في الحضارة الغربية وفهم روحها وجعلهم يتشبثون عميق التشبث بحضارتهم ويضطلعون بمهمة تأصيل الكيان واثبات الذات وتقوية العزم على اعتماد التراث وتوخي منهجية فكرية خاصة لإعطاء معنى عقلي وديناميكي للتاريخ العربي ومساره عبر الاجيال . وتفطن هؤلاء بعد بحث وتفكير ، الى قيمة تراثهم ذي الشهرة العالمية الفذة وما يشيعه المستعمرون والصهاينة من الكذب والتدجيل لتشويه هذا التاريخ وتمويه الحقائق والتبجح بالتاريخ الغربي منذ رامت الكنيسة وهي في اعظم سلطانها توقيف الحضارة العربية كيلا تكتسح اوروبا ، وضرب الآداب والفنون العربية حتى لا تحل ببلادهم وتؤثر في آدابهم وفنونهم .

وتعيش اليوم الثقافة العربية مرحلة اثبات لذاتها ، وابداع لوجودها في وجه هذه التحديات المختلفة ، واهم ما تواجهها به هو التحدي ، وهو أقوى وانجع وسائل المواجهة والمقاومة ، وهو امتداد لتحدي اجدادنا للثقافات الاخرى منذ الفتح العربي الاسلامي ، وينبثق من قيمنا وايماننا بها وقدرتنا على الاشعاع المتواصل ، وقد خرج اجدادنا كل مرة من تحديهم هذا خلال تاريخهم الطويل اقوى من قبل ، واغنى واثرى واقدر على المواجهة بعد ان هضموا كل العناصر الايجابية في الثقافات الاخرى وصهروها في كيانهم ولم ينصهروا في الامم الاخرى التي ارادت ابتلاعهم فشملت الثقافة العربية زيادة على حدود الوطن العربي الحالية ، اماكن جد قصية من الصين الى الهند الى خوارزم مرورا بمدن فارس . وقد كان الغرب مغرقا الى الاذقان في التوحش والهمجية عندما كانت الحضارة العربية في اوج تألقها ، وكانت المدن العربية علامات اضاءة واشعاع ، كانت بغداد ، دمشق ، القاهرة ، تونس ، القيروان ، بجاية ، فاس ، مراكش ، قرطبة ، غرناطة ، اشبيلية وغيرها نقط ازدهار فكري وادبي ...

وفي الوقت الذي يتساءل فيه فلاسفة الغرب عن قيمة حضارتهم وجدواها ، واحسوا بجفافها وعقمها الروحي ، واخذوا يشكون في قيمهم الثقافية ومثلهم الاخلاقية ويبحثون عن معايير جديدة سلم قيم جديد في

بناء ذواتهم ، نرى الامة العربية اولى من غيرها بثقافتها أن تقدم للانسانية جمعاء معالم جديدة ودروسا في المواجهة والصمود وتحقيق معالم الشخصية .

يتحتم على ثقافتنا في هذه المواجهة ، وفي هذه الظروف لا الدفاع فقط عن نفسها وانما ان تتحدى وتقدم نسخا جديدا لحياة الامم ، ويتحتم على مثقفيها أن يبصروا بما قدمت امتنا من اسهام باهر في الحضارة الانسانية الحاضرة ثم ان يردوا الاعتبار الحقيقي للانسان مهما كان واينما كان ابتداء من الأراضي العربية . ان مثقفينا في مركز قوة ازاء شعوبهم ودورهم يتمثل اساسا لا في الكشف فقط عن البطولات العربية في التاريخ القريب والبعيد ، وانما في الكشف عن البطولات اليومية التي تفرزها شعوبنا وعن المجد الذي تبنيه شعوبنا في كل آن مساهمة في بناء الوطن العربي الكبير .

وبالاضافة الى ذلك يمكن ان نحدد دور الثقافة العربية في مواجهة اخطار التحديات الحضارية الاجنبية والتحديات الاستعمارية والصهيونية في هذه المقترحات الثلاثة لبناء ثقافة قومية عربية :

١ ــ التشبث بالقيم الفكرية ، والايمان بالنصر واعداد النفوس لهذا النصر ، وبث الامل في القلوب ، والتفسير للمخاطر والتعبئة الروحية التامة لكل القوى في هذه المعارك ، الحضارية والعسكرية ، ويتسنى ذلك أولا بالقضاء العاجل على الافكار الانهزامية لان الذين يبثون روح الهزيمة في شعوبنا في كل مناسبة او ادناها عن وعي أو غير وعي ، هم يضربون امتنا في الصميم .

ان رسالة المثقف اليوم هي في التصدي لكل من يبث الشعور بالويل والثبور ، وبالهزيمة والخسران ، لان امتنا قوية بامكاناتها العديدة ، المادية والمعنوية ، لها ان تتفاءل بالمستقبل ، وان تعتبر أن ليست هناك أمة لم ترتكب اخطاء، لكن قوتها في ارتفاع معنوياتها والتغلب على المصاعب والتخلص من المساوىء والقضاء على الرواسب المتبقية من عهود الظلم والاستغلال والتعصب وقصور النظر وعدم الوعي والضبابية في الرؤية والاعجاب المدهش اللامسؤول بالاخرين .

فدور الثقافة اليوم هو تسليط الاضواء على انفسنا ثم على اعدائنا، ومعالجة امراضنا والاسراع بالقضاء على داء الانهزامية المهرىء لعزائمنا. يكفي اذن من البكائية وندب الاوضاع العربية ، والاكتفاء بالاهتمام بالحالات السلبية للامة العربية لبث الوهن والتفريق والياس .

يكفي اذن من التفجع والتوجع والعويل على كل صغيرة او كبيرة تمس جزءا من وطننا العربي الكبير او تحاول ان تمسنا عبثا في الصميم ولكنها لا تدركه ، دور الثقافة العربية اليوم ليس بث الوعي فقط في النفوس ودعم الشخصية العربية وتقوية الذاتية القومية وانما اساسا هو غرس الايمان العميق بمستقبل امتنا الرائع والقدرة على الصمود بكل ثقة في وجه كل من يحاول ان يتسرب الى حصننا المانع والمنيع .

ونحن نتساءل عن قيمة هذه النصوص الشعرية والفكرية التي تطفح بها ساحة الادب العربي الحديث والمليئة بروح الانهزام الذي يتضمن اللوعة الكاذبة ، والتهويل الذي من شأنه ان يخدر الاعصاب ، ويبعث على الاحساس بالشقاء والخجل من الانتماء الى هذه الامة ، وهي نصوص ادبية غير واعية وغير مسؤولة ، وهو ادب خطير على شعوبنا ، ذو مفعول عكسي في القلوب يدعو الى النقمة والياس من الاصلاح ...

ان مهمة الاديب في هذه الآونة التاريخية الراهنة في حياة شعوبنا لمهمة دقيقة حرجة وان الكلمة لسيف ذو حدين ، وليس اسهل من التحطيم والبكاء وابراز السلبيات اما البناء او اقتراح نظرة بناءة خاصة بالمستقبل فهو من أعسر الامور ومن اوكد الواجبات .

٢ ـ اعداد استراتيجية ثقافية وخطة ادبية كاملة لتجاوز هذه الاخطار والقضاء على الازمات الروحية والبلبلة في النفوس، خطة متكاملة الجوانب ، تعبر عن شتى الاهتمامات الوطنية والطموح القومي والتوق الى الحرية واقامة حكم ديمقراطي ، وتتوخى ايديولوجية ثقافية مضادة للتيارات المحبطة للعزائم وكاشفة عن الاسس التاريخية والنفسانية لكل ظروفنا الاجتماعية والاقتصادية .

وهذه الخطة تقتضي تطوير ثقافتنا بعد بلورتها وتحديد الاتجاهات العامة والمنهج المتبع للتغلب على المشاكل وضبط فلسفة ثقافية معينة تقدم معنى للوجود وتعطي قيمة للفن والادب وتكرم المنزلة الانسانية .

ان التقدم العلمي والاقتصادي للشعوب لا يمكن ان يتم على اسس صحيحة الا بشرط توخي خطة ثقافية واضحة تتلاءم مع مقتضيات العصر والظروف التي تمر بها . ان عدم مراعاة خطة ثقافية في مواجهاتها السياسية والحربية والاقتصادية من شأنه ان يهمش القضايا ويدمر الاسس النفسية والتاريخية والعقائدية للشعوب .

وعلى هذا الاساس يكون تصورنا للثقافة القومية مرتبطا بمستويات اهدافنا وحاجاتنا .

لقد كانت وسائل المواجهة ضعيفة لانها كانت غير مخططة وغير حكيمة ولا ترمي الى بعيد ولا تشمل التحديات التي نواجهها بدراسة جذرية شاملة ودقيقة لذلك وجب أن تكون هذه الخطة تعتمد التحليل العلمي وتعالج قضايانا الفكرية والاجتماعية بكل دقة وتجرد ، لشن حرب لاهوادة فيها ضد كل التحديات ولتحقيق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وتجذير التفكير الديمقراطي في اذهان الناس والقضاء على العقد النفسية والاجتماعية وخاصة عقدة الاثم للانتساب لهذه الامة ؟ ! . .

٣ ـ حوار متواصل لثقافتنا مع الثقافات الاجنبية وتفاعل مثمر مع الثقافات الاخرى ، واخصاب متبادل بالاعتماد على الترجمة والنشر والمشاركة في المؤتمرات العلمية والثقافية العالمية ، ومساهمة فعالة لاقامة العدل وحب الخير في المجتمعات وبذلك يتوفر لثقافتنا وبالتالي لمجتمعاتنا العربية الاشعاع والتلقيح .

وفي هذا الاطار يمكن تحديد ثقافتنا بأنها تصور لانفسنا وتصورنا للعالم ، واتخاذ موقف بناء لانفسنا منها ، وهي بناء لعالمنا من جديد على ضوء ما كان عليه في القديم وما تلقيناه من التاريخ من الدروس

وما رأينـاه في الواقع من تجارب وما حصــل من نتائج من احتكاكنا بالثقافات الاخرى .

وهي اذن وخاصة مجهود لاكتسـاب حقول معرفة مكتملة الجوانب الروحية والمادية من اجل الخلق المتواصل والابتكار من اجــل الكرامة والحرية ضد الاستعباد والاستغلال والسلخ والمسخ والاحتواء . حالما تحصلت تونس على استقلالها انكب مفكروها ومثقفوها على التفكير في مفهوم الثقافـة وضبط مدلولاتها وتحديد ما ينبغي القيام بـه لحصر الخطوط الفلسفية الثقافية لبناء الانسـان التونسـي الجديد بعد ان كان على قاب قوسين او ادنى من الذوبان والمســخ والاندمـاج في الغير ، فخصصت بعض المجلات (« الفكر » ، « التجديد ») ، اعدادا كاملة لمفهوم الثقافة ، ونظمت ملتقيات عديدة آنذاك شارك فيها رجال الفكر والسياسة ، والادباء والشعراء وتجادلوا اياما وليال في معاني الثقافـة ومستقبلها بتونس وما يجب الاضطلاع به لبناء المسـتقبل وبلورة الاتجاه الوطني وتحديد الآفاق القومية وضبط ما ينتظره الشعب من المثقفين .

وقد تبلور ان الثقافة يجب ان تكون اولا وآخرا في خدمة قضايا شعوبنا فهي النور الذي يضيء وهي الحافز والدافع وهي المرآة الحقيقية للاشواط التي سلكتها الشعوب في تطورها ونمائها العام . والآن وقد ولى زمن الضياع العربي ، وثبتت الهوية الثقافية ، وانتفت الهامشية ، وتهمشت الغربة الفكرية ، واصبحت قضيـة الانبتات قضية لاغية او مفتعلة في مجتمع عريق الجذور ، ودوى صوتنـا بين شعوب العالم ، واعترف كل أحد ـ الا متكبر او جاهل ـ بالعبقرية العربية ، وان العرب كان لهم دور كبير في بناء الحضارة الغربية ، ولهم امكانات عزيزة الوجود عند غيرهم ، آن أن تكون ثقافتنا متفائلة ، متفتحة ، انسانية ، خصبة ، تساهم في التحرير والقيادة الحضاريـة ، وينتصب المثقفون والادباء روادا ، إذ هم بناة النهضة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية في شعوبنا . وهم في حالة تأهب دائم للدفاع الفكري والتصدي للغزو الثقافي الاجنبي والتحديات الاستعمارية والصهيونيـة رائدهم الاعتزاز بالكيان وتحرير الانسان ازاء نفسـه اولا ثم ازاء العالم وتخليص الشعوب من شتى الضغوط التي ترهقه بها التحديات المختلفة .

المؤتمر العام الثالث عشر
للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب
عدن - صنعاء
نوفمبر ١٩٨١

تحديات التخريب في حياتنا الثقافية

يحيى الدين اسماعيل

* المشهد واسع يشمل هذه البقعة العريقة التي استولدت الحضارات تلو الحضارات ، من شواطئها المطلة على بحر العرب في اقصى الجنوب حتى ثغور الشمال والشمال الشرقي ، وامتدادا غربيا حتى اعمدة هرقل المطلة على شواطىء الاطلسي .

* المشهد واسع رحيب وفرجة الزمن هائلة يصيب المرء منها الدوار .

* وعلى امتداد هذا المشهد كانت هناك عمليات تولد حضاري بدات مع نشوء المجتمع العربي المتحضر . ولا بد لهذا التولد الحضاري من مقومات اولية بدونها لن يكون اثر لهذه الحياتية الكبرى . ويمكن اجمال هذه المقومات بضربين من الشروط هما : شروط البيئة المادية وشروط البيئة البشرية .

* ففي ظل الشروط المادية ينبغي ان تكون الطبيعة عاملا في عملية التطور الحضاري بحيث لا تكون عائقا متحديا أو عنصر افناء دائم للتكون الحضاري ، بل عامل توليد واستقرار ودافعا من دوافع النشاط البشري والمثابرة الانسانية .

* وفي ظل الشروط الانسانية تتفاوت مقومات النشاط البشري من اخلاقية واقتصادية واجتماعية وسياسية وما الى ذلك من مختلف أوجه النشاط الذي يبتدعه الانسان في هذه العملية الكبرى ، عملية التولد الحضاري .

* في هذا المشهد الواسع الرحيب توافرت شروط البيئتين المادية والانسانية على نحو قد ضمن استقرار مقومات المجتمع وقيمه الكبرى على مدى العصور .

* على ان موقع هذا المشهد متوسطا قارات العالم القديم الثلاث بحيث اعتبر منذ البدء نقطة البدء في العالم ، قد اضاف الى قيمة هذه البقعة وحول اليها الانظار .

* لاحظوا ان ما يقع على الغرب من هذا المشهد هو الغرب ، وما يقع على الشرق منه هو الشرق ، اجمع على ذلك كل من كتب في الحضارات منذ القدم .

* هذا الموقع الذي يؤلف البؤرة الحضارية الاولى في تاريخ الانسان عرّض انسان هذا الموقع الى تحديات جمة من الداخل والخارج على امتداد الاجيال - وقصة هذه التحديات بكل اشكالها تقص علينا مغامرات الغزاة بجميع صورهم واشكالهم منذ فجر السلالات حتى اليوم .

* وبدءا في حديثنا هذا علينا ان ننص على اننا ينبغي ان نميز بين نمطين من الاخطار التي تعرض لها هذا الموقع الحضاري ، وطننا العربي .

* النمط الاول هو نمط الصراع الحضاري ، وهو الصراع المشروع الذي ينشب تحت قانون لا فكاك منه بين كل حضارتين متقابلتين ، او حضارات متقابلة .

* والنمط الثاني هو النمط المتأتي من مخاطر الغزو المخطط والمصمم والتحديات التي تتعرض لها حضارة ما من الخارج او الداخل .

* فالنمط الاول يخضع لناموس طبيعي لا مناص منه يحدث على اثر تقابل بين حضارتين فينشب هذا الصراع المشروع لتأخذ كل من الحضارتين من الاخرى وتعطي لها .. واننا لندعو هذا النمط من التقابل صراعا على سبيل التجوز ، لان مثل هذا التقابل هو في جوهره تعايش انساني كأسمى ما يكون التعايش بين الحضارات .

* ولقد عرفت حضارتنا العربية هذا النمط من التعايش بين كثير من الحضارات التي تقابلت واياها على مدرجة التاريخ ، لتتم بها عملية التفاعل الحضاري .

* اما النمط الثاني فهو النمط الذي نعنيه في بحثنا هذا والذي يؤلف خطر التحديات المصممة الغازية وهو نمط غير قائم على الناموس الطبيعي في تقابل الحضارات الذي ينتهي بالاخذ والعطاء ، وانما هو ضرب من العدوان .

* هذا النوع من التحديات واجهته امتنا العربية منذ ان بدات باقامة مجتمعها الحضاري الموحد اذ نهضت بحمل رسالة السماء الى الانسان .

* كانت رسالة السماء التي نهضت الامة العربية بابلاغها الى العالم هي رسالة العدل والمساواة ، وهي الرسالة المظمى التي استجاب لها الضمير العربي ورفضتها القوى الرافضة لخير الانسان وسعادته على الارض .

* وان عقد المقارنات المبدئية والتاريخية بين قيم العرب قبل الاسلام وبعد الرسالة السمحاء لموضوع ممتع غزير ، يطلعنا على جوانب من حقيقة هذه الامة وجوهرها ، كما يطلعنا على البواعث التي دفعت ببعض الامم ان تتحدى هذه الامة وقيمها وحضارتها وجوهرها الانساني .

* فقيم هذه الامة وتقاليدها الرفيعة التي نجدها في كل الموروث الذي تسلمناه من يد الزمن كان احدى القوى المحركة لهذه الامة في صدامها مع تحديات الغزاة والخصوم منذ عصور طوال .

* وما ان أطل عصر الاستعمار مع بداية عهود الاستكشاف حتى غدا الغزو الاستعماري من مادي وفكري حرفة تحترفها قوى البورجوازية الطالعة في الغرب آنذاك .

* ولو رجعنا الى تاريخ تعرض هذه البقعة من الوطن العربي في جنوب الجزيرة لقوى الاستعمار المحترفة ، لعرفنا كم كان التخطيط للغزوتين المادية والفكرية مصمما في دورة التاريخ هذه .

* ففي كانون الاول من عام ١٨٢٠ م قدم الاسطول البريطاني وقصف مرفأ مخا ثم فرض الاستعمار البريطاني في عام ١٨٢١ م معاهدة منحت الرعايا البريطانيين الذين كانوا يترددون على الموانىء في الجنوب نوعا من الامتيازات في كل المرافىء من هذه المنطقة ، واحتلت بعد ذلك القوات التي جردتها شركة الهند الشرقية عام ١٨٣٤ جزيرة سقطرة وحولتها الى محمية بريطانية ، ثم استولى البريطانيون بعد ذلك في عام ١٨٣٩ م ، كما يعلم الجميع ، على عدن بعد عمليات عسكرية رهيبة نكلوا فيها بقوى الشعب تنكيلا سيظل وصمة عار الى الابد .

* كانت تلك هي البداية ، ثم مضى الاستعمار البريطاني ينفذ بغزوه خطوة بعد خطوة حتى بلغ شرق الجزيرة العربية من شواطىء الخليج العربي ، ثم استكمل بعد الحرب العالمية الاولى .

* ولئن استطاعت قوى الشعب العربي ان تتعرف على التحديات المادية وتشخص قواها لتشتبك معها في سلسلة طويلة من الصراع انتهت في كثير من المواقع الى زلزلة الارض تحت اقدام المستعمرين .

* الا ان الغزوة الفكرية اصبحت هي الستار الذي تتستر وراءه قوى الاستعمار وقوى التحديات بشكليها الداخلي والخارجي .

* ومن أبرز اشكال هذه الغزوة الفكرية هي حركة الاستشراق التي بدات بحملات التشكيك في التاريخ العربي وتقائه ، فصدرت ابحاث المستشرقين الطاعنين من امثال نولدكه ورنيان وآسين بلاسيوس وزويمر وامثالهم من اولئك الذين زعموا ان ابحاثهم انما تصدر عن مواقف علمية تقودهم الى وسائل البحث والمنهج العلمي .

* واننا في الحقيقة نرى ان التراث العربي هو جزء من التراث الانساني وهو ملك الانسانية كلها ، ومن حق اي باحث ان يتخذ ازاءه الموقف الذي يختاره بصرف النظر عن بواعثه ومعتقده واهدافه ولكننا في الوقت نفسه نملك من الحق ما ندافع به عن تراثنا باعتباره هذا الجزء الهام من تراث الانسانية ذاتها .

* لقد حاولت حركة الاستشراق على مدى اكثر من قرن ان تقوم بوظيفة المبرهن على ان الحياة العقلية العربية لا تمثل جزءاً من الحياة العقلية الرفيعة للانسانية ، وقد قامت هذه الحركة بجهودها هذه في غياب المنهجية العلمية في مناقشة التراث العربي الى درجة ان وصمت حركة الاستشراق بمجملها بالتعصب والتآمر المعمم على الموروث العربي . والحقيقة ان هذه الوصمة كان مردها دوما غياب هذه المنهجية العلمية ومن التعميمات الخاطئة التي اطلقها المستشرقون ، كقول رينان مثلا في كتابه عن الفيلسوف العربي الكبير (ابن رشد) وليس العرق السامي وهو « يعني العرب في هذا السياق » وهو ما ينبغي ان نطالبه بدروس في

الفلسفة ، ومن غرائب النصيب الا ينتج هذا العرق الذي استطاع ان يطبع على بدائعه الدينية اسمى نزعات القوة ؛ اقل ما يكون من بواكير خاصة في حقل الفلسفة « مثل هذا التعميم وغيره من الآراء التي ترى أن العقلية العربية عاجزة عن التحليل والتركيب والتفكير في دقائق وتفعيلات حركة الوجود .. هذه الآراء والتعميمات هي التي سادت الاجواء الثقافية في الغرب عموما وراث ان الذهن العربي عدو لحركة العقلية مع تجاهل كامل بأن الحضارة الانسانية قد انتقلت الى العصور الحديثة عبر العرب والمفكرين العرب .

※ ومن معطيات هذه الاستراتيجية الثقافية التخريبية صدرت كل حركات التخريب الاخرى داخل الوطن العربي وخارجه والتي استهدفت حياتنا العقلية المعاصرة والاشتباك مع قوى الثورات الفكرية في شتى بقاع الوطن العربي . فقد طرح استراتيجيو التخريب الثقافي رايا شاع في صفوف الشريحة الثقافية للقطاع الامبريالي ــ الاقطاعي ثم بعد ذلك للقطاع الامبريالي ــ الاقطاعي ــ البرجوازي . ويكفي هنا ان نشير الى الذين ارّخوا للفكر الانساني من امثال كوليه وفولر وفندلباند قد اعتذروا عن عدم تعرضهم للعرب في حياتهم العقلية منطلقين من الراي الذي اشاعوه وهو ان الفلسفة والحياة العقلية الفلسفية والعقلية الادبية في العصور الحديثة وان العرب في اوج ازدهار حضارتهم لم ينقلوا للعالم سوى مكتسبات الفكر الاغريقي والهليني .

※ ولقد ناقش في الآونة الاخيرة بعض المثقفين العرب هذا الراي وذهب البعض منهم الى اننا في ردنا على هذا الراي الذي اشاعته حركة الاستشراق علينا ان نبدا بعملية (عودة) وعملية (استعادة) لفكرنا العربي أي أن نضبطه ونحققه ونوثقه تاريخيا .. واصحاب هذا الراي يذهبون الى اننا اذا ما اردنا الكشف عن القصور الذاتي في هذا النمط الذاتي في هذا النمط من المركزية التي تروج لها بعض المدارس الاوروبية فاننا لاشك سنصطدم بمشكلة جهل هؤلاء بـ (التشكيلية الاقتصادية الاجتماعية) او رفضهم لها .

* وفي الحقيقة ان بعض مثقفينا الذين يذهبون هذا المذهب يتجاهلون الحقيقة الاهم ، وهي أن هذه المدارس التي روجت لهذا الضرب من المركزية واعتبار اوربا البؤرة والمعيار في قياس الحضارات هي مدارس الاستشراق التي كانت دوما طليعة الغزو المادي الاستعماري . فالجهل بالتشكيلة الاقتصادية او الاجتماعية لا يكون حجة للجهل بقيمة الفكر الانساني ودور انماطه الشقيقة في دفع حركة التقدم الحضاري . والجهل بهذه التشكيلة لا يكون حجة لاعتبار الفكر العربي ملحقا بالفكر اليوناني الهليني . والجهل بهذه التشكيلة لا يكون حجة على الاطلاق لنسخ الفكر العربي واعتباره فكرا اغريقيا هلينيا مكتوبا باللغة العربية ـ على حد قول رينان ـ الذي كان من اول طلائع المشككين بقيمة الفكر العربي ومن اوائل من مهدوا للغزوة الفكرية الامبريالية الاقطاعية ـ البورجوازية الموجهة ضد الوطن العربي وتراثه وكل المنتمين الى قوى هذه الغزوة من الداخل والخارج .

* والذين ناقشوا هذه الاطروحة منذ رينان حتى اليوم ، القائلة بانتماء الفكر العربي انتماء الحاق لا انتماء ابداع الى الفكر الاغريقي الهليني .. الذين ناقشوا هذه الاطروحة من مثقفينا قد نسوا ان هناك تناقضا يقع فيه فرسان هذه الغزوة .. هذا التناقض يقع مباشرة في ان اعتبار الفكر العربي جزءا من هذا الفكر الاغريقي الهليني هو بنظر المدارس الاستشراقية والاستعمرابية تمجيدا في احد جوانبه طبقا للمنهجية والتقييمات التي تأخذ بها هذه المدارس .

* ولكننا حتى في هذه الحال ، اي في حالة اعتبار الفكر العربي جزءا من الفكر الاغريقي الهليني بنظر معظم مدارس الاستشراق ، سنظل من خلال المنهجية العلمية والتقييم الموضوعي لهذا الفكر نرفض ان ننظر الى تراثنا عبر تلك المناهج والتقييمات . وان نزعة المعاصرة الزائفة التي يحاول فرسان الغزوة وانصارهم ان يسرّبوها الى اذهاننا بهذه الحجة او تلك او تحت اضواء الانبهار المعاصر ، ... نقول ان نزعة المعاصرة الزائفة هذه نرى أنها نوع من الركوع تحت وطأة مركبات النقص ، وانها

تسم من يأخذ بهـا الى الجهـل بحقيقة تفاعل الحضارات والتمثـل الحضـاري .

* وبعد ان اخفقت مدارس الاستشراق والاستعراب هذه في ان تحقق ما سبق ان كانت تمهد له من غزواتها المعممة ظهرت مدارس التخريب الثقافي من الداخل التي اخذت تفلسـف تجزئة الوطن العربي وتجزئـة الامة العربية وبالتالي تفلسف تجزئة الثقافة العربية والفكر العربي .

* ان هؤلاء هم غرباء متغربون اشقياء في انفسهم بعيدون عن رؤيـة ما يمكن ان يتفجر عنه التاريخ من لحظات كشف هائلة يفضح محدودية الرؤية القاصرة الخادعة .. ان هؤلاء الذين يؤلفون طوابير التحديات في قطاع الامبريالية ــ الاقطاعية ــ البورجوازية المتحالفة بالتالي مع قوى الصهيونيـة ودعاتها من الداخـل يحاولون زورا وقهـرا أن ينسخوا ويزوروا ، أن يفسروا ويعللوا بهرطقات جديدة مسيرة التغيرات الكبرى التي تصوغ حركة الحضارة والتاريخ . انهم يرون ــ أو شاؤوا أن يروا ــ أن وحدة الامم التي لا بد ان تسقط مشاريع الربح الآني في مضـاربات المواقع هي فلسـفات مرفوضة ، وهي فلسـفات مرفوضة لانها فلسـفات باهظة الثمن .

* واخيرا فالحجة التي يحتج بها اصحاب هذه الهرطقات التي تؤلف الفصل الجديد في التحديات الاخيرة هو التباين النوعي بين الجزء والكل .. التباين بين الوحدة الاقليمية والوحدة القومية .. ولكن هؤلاء حتى وان صحت لهم فرضيتهم ، وهي لم تصح قط ، تجاهلوا البديهية القائلة بأن عدم بلوغ الهدف لا يلغي الهدف .. وان التركيبة الاقليمية لا تلغي بل تكمل التركيبة القوميـة وهي تقوي الحجة التاريخيـة لهذه التركيبة ولا تضعفها .

* من هذا البعد ينبغي ان ينطلق اديبنا العربي المعاصر في صراعه مع كل تحالفات التخريب الثقافي ، من أجل أن يجتاز محنة الظروف المعقدة ، المركبة التي تواجهه في عملية الخلق والابداع ، وفي ذلك وحده الخلاص .

* * *

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

لعام ١٩٨١

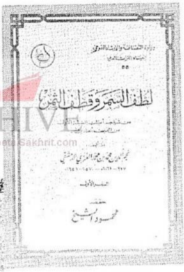




مجموعة قصص قصيرة للناشئة

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

لعام ١٩٨١





صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

لعام ١٩٨١

